مجلة الهدى

مجلة فصلية علمية ثقافية

السـنة السادسة عشر / العدد السادس والستون / لسنة ١٤٤٧هـ

مركز الهدى للدراسات الحوزوية

العراق . النجف الأشرف

مركز الهدى للدراسات

مؤسسة فكريّةٌ تنشطُ في ميدانِ البحثِ والمساهمةِ في تطوير الفكر الإسلامي المعاصر؛ إيماناً منها بقدرة الإسلام ومدرسة أهل البيت عليهم السلام على تقديم البديل الحضاري للإنسان، وتُعنى بالدّراسات الفكريّة والسياسية والتاريخية لحوزتي النجف الأشرف وقم المقدّسة؛ رغبةً منها في ترسيخ الثوابت، والوقوف بوجه الفكر الدّخيل.

مجلة الهدى

مجلة فصلية علمية ثقافية

السنة السادسة عشر / العدد السادس والستون / لسنة ١٤٤٧هـ

الهيئة الإستشارية

- السيد يوسف الحلو
  - أستاذ حوزة النجف الأشرف
- الدكتور علاء محسن الكناني
  - جامعة بغداد
- الدكتور سلام خسرو
  - جامعة المستنصرية
- الشيخ حسين السعيدي
  - أستاذ في الحوزة العلمية
- الدكتور علي عبد الأمير
  - جامعة بغداد
- الدكتور سمير الأسدي
  - جامعة بابل
- الدكتور علي فياض
  - جامعة طهران
- الدكتور صفاء السويعدي
- الدكتور باسم الكناني

الإخراج الفني

أحمد الهاشمي Ahmad Al-hashemi

الإشراف العام

قاسم هاشم مولى

رئيس التحرير

أ. عباس النوري

التنسيق والمتابعة

محمد حميد الهاشمي

عصام الساعدي

معد الترجمة الفارسية

حسن علي مطر

هيئة التحرير

- أ. سمير العطواني
- أ. هادي بدر الكعبي
- أ. ضياء كاظم الهاشمي
- أ. عمار الولائي
- أ. حيدر آل وشاح
- أ. إبراهيم الأسدي

مجلة الهدى

العدد السادس والستون / السنة السادسة عشر / ١٤٤٧

الناشر: مركز الهدى للدراسات الحوزوية

المطبعة: الصنوبر

قطع الورق: ١٧×٢٤سم

عدد الصفحات: ٢٨٠ صفحة

التصميم والاخراج الفني: أحمد الهاشمي

سنة الطبع: ٢٠٢٦ - ١٤٤٧هـ

❖ البحوث الواردة في مجلة المنهج تعبّر عن رأي كاتبها.

❖ ترتيب البحوث خاضع لاعتبارات فنيَّة

هَوِيَّةُ المَجَلَّة:

مجلَّــة [الهدى] فصلية علمية ثقافيــة، تصدرُ عن مركز الهدى للدراسات الحوزوية، تعنى بالفكر الإسلاميِّ المستنير وما يتَّصل به من المجالاتِ والتخصُّصات، في الشريعةِ والتأريخِ والقانونِ والفلسفةِ وعلم الكلام الجديدِ والعلوم الإنســانيَّة المختلفة، مضافاً للفكري الحوزوي وتاريخ المرجعية والفكر المقاوم.

شُرُوطُ الكِتَابَة:

١. يتراوح حجمُ البحث بين (١٠ ـ ٢٥) صفحةً بحجم (A4).
٢. ينضَّــد البحثُ على قرصٍ مدمــجٍ (CD)، أما التصحيحُ اللغويُّ فتتكفَّل به المجلَّة.
٣. يجب أن لا تكون البحوثُ منشورةً سابقاً، في الصحف أو الدوريات أو مواقع الإنترنت على الإطلاق، وأن يتعهَّد الكاتب بعدم نشــره في مكانٍ آخر إلا بعد أخذ الموافقة من المركز.
٤. تخضع البحوث لتسلســلٍ فنيٍّ في النشر، ولا يحقُّ للكتّاب الإعتراضُ على تأخير نشر المادَّة، لأنه أمرٌ تابعٌ لهيأة التحرير حصراً.
٥. تُقبل البحوثُ والدراساتُ المكتوبة بلغةٍ ثقافية مميزة، أما البحوث الضعيفةُ فتهمل ولا تعادُ إلى أصحابها.
٦. المجلَّة ليســت ملزمةً بإرجاع الموادِّ إلى أصحابها، سواءٌ نشرت أم لم تنشر.
٧. يرفق الباحث ملخصاً مع البحث لا يزيد على نصف صفحة.
٨. تكون الهوامش متسلسلة في الصفحة نفسها لا في نهاية البحث.

المحتويات

نداء قائد الثورة الإسلامية
آية الله السيد مجتبى الحسيني الخامنئي
بمناسبة حلول موسم الحج
لعام ١٤٤٧ هـ.ق ٢٦-٠٥-٢٠٢٦

٩

بيانات العزاء والتابين لمراجع الدين والعلماء بشهادة الإمام الخامنئي ١٥

تحصين العقيدة المهدوية ٥١
الشيخ جاسم الوائلي

العقيدة المهدوية ٧٣
في ضوء فلسفة التاريخ وحتمية السنن التاريخية
لطيف عبد النبي يونس

دور العقيدة المهدوية ١٠٣
في تفكيك ظاهرة الالحاد
مهند مضر رؤوف الحبوبي

التنمية الاقتصادية ١٤٣
في دولة الامام المهدي
الشيخ حبيب عبد الواحد الساعدي

دراسة التحولات في قراءة مفهوم ١٦٧
(انتظار الفرج) في الغيبة الكبرى
السيد كاظم الطباطبائي

دور العقل في المعرفة عند المجلسي ١٩٧
الشيخ حيدر نور الدين

٢٢٧ **الشخصية المحمدية**
في الخطاب الاستشراقي البريطاني حتى نهاية القرن 18
حيدر مجيد حسين العليلي

٢٦٩ **أصالة المنهج**
في التراث العربي الإسلامي النص القراني مسدداً
محمد بنعمر

نداء قائد الثورة الإسلامية

آية الله السيد مجتبى الحسيني الخامنئي

بمناسبة حلول موسم الحج

لعام ١٤٤٧ هـ.ق ٢٦-٠٥-٢٠٢٦

بسم الله الرحمن الرحيم

«لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْك. لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ. إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْك».

إلهي! أُجيبُ دعوتَك، لا شريك لك، كلُّ المحامد لك، وكلُّ النِّعَمِ لك، كلّ المُلك لك، وكلُّ القدرة لك، وإليك يرجع الأمرُ كلُّهُ.

ها قد حلَّ موسم الحجّ هذا العام أيضًا، فَعَقَدَ حجّاجُ أمَّة الإسلام إحرامَ العبوديّة، ولبّوا ليهاجروا من الحياة المادّيّة العاديّة إلى الحياة الإلهيّة السعيدة؛ الحياة التوحيديّة القائمة على محور العبوديّة للحقّ جلّ وعلا، وطَرْدِ الأنداد لله ونبذهم والبراءة منهم. بيد أنَّ فرصة هذه الهجرة ليست مختصّة بزوّار وحجّاج بيت الله الحرام لهذا العام فحسب، بل تشمل الإخوة والأخوات المسلمين في إيران جميعهم وفي أنحاء العالم كلها ممّن حجّوا في سنواتٍ مضت من عمرهم، وكذلك الذين لم يوفّقوا بعدُ لأداء مناسك الحجّ.

إنَّ شرط هذه الهجرة، هو عَقْدُ الإحرام الدائم حول ذِكْرِ الله، والطواف

المستمر حول محور الحقّ، والسعي المتواصل بين قمم التكاليف الإلهيّة الخطيرة، والرجم الدائم للشيطان الشرّير بمظاهر غوايته كافة وأذنابه جميعها، والوقوف الممزوج بالتضرّع والإنابة، وإطعام الفقير العاجز وابن السبيل، وذبح الأهواء والنزعات المنحرفة، والتطهّر من الأرجاس الباطنيّة، والجهوزية لخدمة الحقّ ورفع راية الدفاع عنه في الحالات كلّها.

وهكذا كان، حين سار شعبُ إيرانَ على خُطى هذه الهجرة في ميقات الثورة الإسلاميّة، حيثُ لبَّى النّداء الإبراهيميّ للخمينيِّ الكبير، وخلعَ ثوبَ الخضوع للهيمنة، وارتدى ثوب إحرام السعادة الدنيويّة والأخرويّة، وسعى ملبّيًا ومُهرولًا ليطوف حول محور معارف الإسلام المحمّديّ الأصيل، ويُدني النّفس من نور العدالة العالميّة والولاية العُظمى الساطع على المعمورة.

الله أَكْبَر، الله أَكْبَر، لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَالله أَكْبَر، الله أَكْبَر وَلِلّه الْحَمْدُ، الله أَكْبَرُ عَلَى مَا هَدَانَا.

نعم، الله أَكْبَر؛ فبهذا السلاح ذاته، سلاح «الله أَكْبَر»، انتفض شعب إيران المسلم قبل ٤٧ عامًا، وأسقط النظام البهلوي الطاغوتي الدّكتاتوريّ والعميل، وكفَّ الأيدي والأَرجُل الأمريكيّة الطامعة والمستكبرة عن البلاد، واجتثّ نفوذَ الصهيونيّة بالكامل.

وبهذا السلاح عينه، سلاح «الله أَكْبَر»، وبعد عدوان نظام البعث الصدّاميّ على أرض إيران، سَطَّرَ المجاهدون الغيارى والشباب المتفانون ثماني سنوات من ملحمة «الدفاع المقدّس»، ورغم دعم قوى الشرق والغرب جميعها للنظام البعثي، فقد ألزموه حدّه، واستمرّوا في هذا الصمود لسنواتٍ لاحقةٍ أمام الحصار الاقتصاديّ، والانقلابات، وشتّى أنواع الحظر الجائرة، والهجمات السياسيّة والإعلاميّة والاقتصاديّة التي لا تُعدُّ ولا تُحصى للأعداء ضدّ الجمهوريّة

الإسلاميّة، وواصلوا مسيرتهم بعزيمةٍ وثبات.

وَ«الله أَكْبَر»؛ بهذا السلاح نفسه، سلاح «الله أكْبَر»، عُـزّزت أواصر العلاقـات بين الأمّة الإسلاميّة وشباب المقاومة المجاهدين، مـن إيـران إلى لبنـان وفلسـطين والعراق وسوريا، ومن أفريقيا واليمن إلى أفغانستان وباكسـتان وشـعوب العـالم الحرّة كلها، لينهض هذا الحبل المتين للدفاع عـن كيـان الأمّـة الإسـلاميّة في وجـه المعتدين الغاصبين الصهاينة، ويطوي سِجِلَّ «داعش»، ويُفجّر «طوفانَ الأقصى»، ويُحصي أنفاسَ الكيان الصهيونيّ المتزلزل.

«الله أَكْبَر»؛ نعم، الله – تبارك وتعالى – أكبر من أن يوصـف... كـان هـذا هـو سلاح «الله أَكْبَر» الذي اعتمدت عليه جمهوريّة إيران الإسـلاميّة لتـنجح عـبره في جعل الكيان الصهيونيّ يشقى تحت ضرباتها المُرعبة في الحرب المفروضة الثانية في حزيران/ يونيو مـن عـام ٢٠٢٥، وفي توجيـه صـفعةٍ قاسـيةٍ لأمريكـا المعتديـة، وإحباط مساعي العدوَّ الرامية إلى إخضاع إيران.

وقد منحَ سلاحُ «الله أَكْبَر» الشعبَ الإيرانيَّ قوّةً وجَلَدًا لدرجة أنَّهُ بعد الحادثـة المُفجعة لاستشهاد القائد العظيم الشأن، ابن النبيِّ الأكرم – صلّى الله عليـه وآلـه وسلم – وسليله، آية الله العظمى السّيّد عليّ الحسينيّ الخامنئيّ – أعـلى الله مقامـه الشريف – على يد أشقياء عالم اليوم، شَهِد بِعثةً إلهيّة، وأَبهرَ أعينَ العـالمِ بإنجازاتـه المُشَرّفة وبحضوره الفاعل في كلّ ميدان دعت الحاجةُ إليه.

إنَّ الله – تبارك وتعالى – أكبر من أن يوصف بِحَقّ... فبهذا السلاح ذاتـه، «الله أَكْبَر»، حقّق المُجاهِدون الشجعان والقوّات المسلّحة المضحّية بالأرواح في إيران الإسـلاميّة، وبمسـاندة مجاهـدي جبهـة المقاومـة، وخصوصًـا في لبنـان العزيـز، انتصاراتٍ مذهلة ضدّ جيشين إرهابيّين مُدَجّجين بالأسلحة، الجيش الأمريكيّ – الصهيونيّ، في الحرب المفروضة الثالثة؛ فبالتوكّل على الحضرة الربوبيّة، وبواسـطة

صواريخهم وطائراتهم المسيّرة في البرّ والجوّ والبحر، رجموا الشيطانَ الأكبر، أي أمريكا، وحيوانها المروَّض، أي الكيان الصهيونيّ، ورأوا بأمّ العين الوعدَ الإلهيَّ الصادقَ بنصرةِ المجاهدين في سبيل الله.

مجدّدًا، «الله أَكْبَر»؛ وبلا أدنى شكّ، الله - تبارك وتعالى - أكبر من أن يوصف... وجنوده قاهرون لأيّ قوّة، وبهذا السلاح عينه، «الله أَكْبَر»، ستتحقّق بعثةُ الأمّةِ الإسلاميّةِ بعد بعثة الشعب الإيرانيِّ وجبهة المقاومة، وسوف تسري البراءةُ من المشركين من رمي الجمرات في الحجّ إلى مشاهد الحياة الفرديّة والاجتماعيّة والسياسيّة للمسلمين في أقصى نقاط العالم.

إنَّ لدى الأمّة الإسلاميّة وشعوب المنطقة قابليات ومصالح مشتركة كثيرة، ستصيغ النّظامَ الجديدَ والهندسةَ المستقبليّةَ للمنطقة والعالم.

إنَّني أدعو - بِصدقٍ وإخلاص - الدول والحكومات الإسلاميّة كافة إلى الصداقة والتعاون؛ من أجل الخيرِ والصلاح، لكي نخطو معًا بتضافر الجهود في سبيل النهوض بالأمّة الإسلاميّة وتقدّمها، وحلّ مشكلات العالم الإسلاميّ.

ومن المؤكّد في هذا الصدد أنَّ عقارب الساعة لن تعود إلى الوراء، وأنَّ شعوب المنطقة وأراضيها لن تكون بعد الآن معاقلَ للقواعد الأمريكيّة. فأمريكا، فضلًا عن أنّها لن تجدَ بقعةً آمنةً لممارسة الشرّ وإقامة قواعد عسكريّة في المنطقة، فإنّها أيضًا تبتعد يومًا بعد يوم عن وضعها السابق. كما أنَّ الكيان الصهيونيّ المتزلزل والغدَّةَ السرطانيّة، اقتربَ أيضًا من المراحل الأخيرة لحياته المشؤومة.

وبفضل الله، ووفق الكلمة الحاسمة والمستشرفة للمستقبل التي نطقَ بها القائد الشهيد العظيم الشأن - قَدَّسَ اللهُ نفسَهُ الزكيّة - قبل عشر سنوات، لن يشهدَ الأعوام الخمسة وعشرين التي تتلو ذلك التاريخ، إن شاء الله.

ولهذا تكتسب قضية البراءة من المشركين هذا العام أهميةً مضاعفة، ويغدو

عمق البراءة من أمريكا والكيان الصهيوني ونطاقها أبعد من مراسم البراءة في موسم الحج، إذ سيكون شعار «الموت لأمريكا والموت لـ"إسرائيل"» بعد هذه الأيام المباركة، وفي مختلف أنحاء إيران والعالم، الشعارَ المتداول لدى الأمة الإسلامية ومظلومي العالم، ولا سيّما الشباب.

المستقبل للأمَّةِ الإسلاميّة وللحضارة الإسلاميّة الجديدة، وفي إمكان كلِّ واحدٍ منّا أن يؤدي دورًا - على قدر همّته وقدراته ومسؤوليّته - في تحقيق هذا المستقبل والاقتراب منه. كما أنَّ للزوّار والحجّاج الإيرانيّين - في موسم حجّ هذا العام - دورًا مؤثّرًا وبارزًا في سرد رواية الفتح في الحرب المفروضة الثالثة لسائر إخوانهم وأخواتهم المسلمين، وبث الأمل في نفوسهم بمستقبل مشرق.

أطلبُ من الحجّاج الأعزّاء جميعهم أن يهتمّوا بالدّعاء لتعجيل فَرَجِ مُخلّص البشريّة (عجَّلَ اللهُ تعالى فَرَجَهُ)، وأن يدعوا لوحدةِ الأمَّةِ الإسلاميّة، وتحرير فلسطين والمسجد الأقصى، وحلّ المشكلات الكبرى للمسلمين، وتحقيق الظَّفَرِ النهائيِّ على الاستكبار العالميّ، وأن يشملوني أيضًا بصالح دعائِهم.

اللَّهُمَّ صلِّ على محمّد وآل محمّد، واشمل حجّاج بيتك الحرام وسائر الأمّة الإسلاميّة بلطفك ورأفتك، ووفّقهم لحجٍّ مقبول، ونَوِّر قلوبهم بأنوار المعرفة والبصيرة، وثبِّت عزائمهم وإراداتهم على السير في خُطى إصلاح حال الأمّة، وتحقيق النصر النهائيِّ على أعداء الإسلام.

اللَّهُمَّ، أنزل فضلك ورحمتك الواسعة على الأرواح الطاهرة للشهداء في سبيل الله، وخاصّةً شهداء جبهة المقاومة، وفي طليعتهم القائد الشهيد العظيم الشأن - أعلى الله مقامه الشريف - وبلّغ روحه الملكوتيّة النصيبَ الوافرَ من حجّ الحجاج، وعبادة المتعبّدين، وسعي الساعين الذين شملتهم هدايةُ قائد الأمّة وقيادتُه، وأَعِنْ شعبَ إيران والأمّة الإسلاميّة على الاستمرار في طريقه وتحقيق هدفه.

اللَّهُمَّ، أنزل أفضلَ صلواتك وتحيّاتك على سيّدنا ومولانا الإمام المهديّ المنتظر – صلوات الله وسلامه عليه وعلى آبائه الطاهرين –، واجعلنا جميعًا والأمّة الإسلاميّة مشمولين بأدعيته الزاكية والمستجابة، وزيِّن العالم ونوِّره بقدومه المبارك كما وعدتَ، واجعل قلوبنا مفعمةً بالاطمئنان بذلك الوعد المحتوم: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنا﴾ (سورة النور، ٥٥). والسلامُ على إخواننا المسلمين جميعهم، ورحمة الله وبركاته.

السيد مجتبى الحسيني الخامنئي

٢٦ أيار/ مايو / ٢٠٢٦

٩ ذي الحجة ١٤٤٧ هـ.ق.

بيانات العزاء والتأبين
لمراجع الدين والعلماء
بشهادة الإمام الخامنئي قدس سره

بيان آية الله العظمى السيد علي الحسيني السيستاني

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ

بِعَمِيقِ الأَسَى أُعَزِّي الشَّعْبَ الإِيرَانِيَّ الْكَرِيمَ وَعَامَّةَ الْمُسْلِمِينَ بِاسْتِشْهَادِ الْقَائِدِ الْمُعَظَّمِ لِلْجُمْهُورِيَّةِ الإِسْلامِيَّةِ الإِيرَانِيَّةِ سَمَاحَةِ آيَةِ اللهِ السَّيِّدِ الْخَامِنَئِيِّ (رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ). إِنَّ الْمَوْقِعَ الرَّفِيعَ لِسَمَاحَتِهِ وَدَوْرَهُ الْفَرِيدَ فِي قِيَادَةِ نِظَامِ الْجُمْهُورِيَّةِ الإِسْلامِيَّةِ الإِيرَانِيَّةِ خِلالَ سَنَوَاتٍ طِوَالٍ وَاضِحٌ لِلْجَمِيعِ. وَلا شَكَّ فِي أَنَّ الأَعْدَاءَ إِنَّمَا قَصَدُوا بِاسْتِشْهَادِهِ وَشَنِّ الْعُدْوَانِ الْعَسْكَرِيِّ الْوَاسِعِ عَلَى إِيرَانَ أَنْ يُوقِعُوا ضَرَراً بَالِغاً عَلَى هَذَا الْبَلَدِ الْعَزِيزِ. وَالْمُتَوَقَّعُ مِنَ الشَّعْبِ الإِيرَانِيِّ الْعَظِيمِ أَنْ يُحَافِظُوا عَلَى وَحْدَتِهِمْ وَيَرُصُّوا صُفُوفَهُمْ وَلا يَسْمَحُوا لِلْمُعْتَدِينَ بِأَنْ يُحَقِّقُوا أَهْدَافَهُمُ الْمَشْؤُومَةَ. أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى لِلْفَقِيدِ السَّعِيدِ عُلُوَّ الدَّرَجَاتِ وَالرِّضْوَانَ الإِلَهِيَّ وَلِجَمِيعِ الْمَكْلُومِينَ بِفَقْدِهِ الصَّبْرَ الْجَمِيلَ وَالأَجْرَ الْجَزِيلَ. وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

١١ شَهْرِ رَمَضَانَ/ ١٤٤٧هـ الْمُوَافِقِ ١/ آذَارِ/ ٢٠٢٦ م.

عَلِيُّ الْحُسَيْنِيُّ السِّيسْتَانِيُّ

بيان آية الله العظمى الشيخ محمد إسحاق الفياض

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ

لَقَدْ تَلَقَّيْنَا بِبَالِغِ الْحُزْنِ وَالأَسَى نَبَأَ اسْتِشْهَادِ قَائِدِ الثَّوْرَةِ الإِسْلامِيَّةِ فِي إِيرَانَ، سَمَاحَةِ آيَةِ اللهِ الْخَامِنَئِيِّ (قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ)، مِمَّا أَثَارَ فِي نُفُوسِنَا تَأَثُّراً عَمِيقاً. لَقَدْ كَانَ سَمَاحَتُهُ، طَوَالَ هَذِهِ السِّنِينَ الْمَدِيدَةِ، قَائِداً حَكِيماً وَنَاصِحاً مُشْفِقاً لِلشَّعْبِ الإِيرَانِيِّ وَلِلْمُسْلِمِينَ كَافَّةً. وَإِنِّي إِذْ أُعَزِّي مَقَامَ صَاحِبِ الْعَصْرِ وَالزَّمَانِ (أَرْوَاحُنَا فِدَاهُ)، وَالْعُلَمَاءَ الأَعْلامَ، وَالشَّعْبَ الإِيرَانِيَّ الشَّرِيفَ، وَمُحِبِّي ذَلِكَ الْفَقِيدِ الْكَبِيرِ، بِهَذَا الْمُصَابِ الْجَلَلِ وَالأَلِيمِ، أَسْأَلُ اللهَ الْعَلِيَّ الْقَدِيرَ أَنْ يَتَغَمَّدَ الْفَقِيدَ بِوَاسِعِ رَحْمَتِهِ وَمَغْفِرَتِهِ، وَأَنْ يَحْشُرَهُ مَعَ أَجْدَادِهِ الطَّاهِرِينَ. كَمَا نَسْأَلُ الْمَوْلَى عَزَّ وَجَلَّ لِجَمِيعِ مُحِبِّيهِ، وَلا سِيَّمَا أُسْرَتِهِ الْكَرِيمَةِ وَذَوِيهِ الْمُحْتَرَمِينَ، جَمِيلَ الصَّبْرِ وَعَظِيمَ الأَجْرِ. وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

النَّجَفُ الأَشْرَفُ ١١ رَمَضَانَ الْمُبَارَكِ ١٤٤٧ هـ

مُحَمَّدُ إِسْحَاقُ الْفَيَّاضُ

بيان آية الله العظمى الشيخ بشير النجفي

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ

بِقُلُوبٍ مُؤْمِنَةٍ بِمَا وَعَدَ اللهُ، نُؤَبِّنُ وَنُعَزِّي بِاسْتِشْهَادِ قَائِدِ الثَّوْرَةِ الإِسْلامِيَّةِ فِي إِيرَانَ، الْمُجَاهِدِ آيَةِ اللهِ الْعُظْمَى السَّيِّدِ الْخَامِنَئِيِّ (قَدَّسَ سِرَّهُ الشَّرِيفَ)، وَمَنِ اسْتُشْهِدَ مَعَهُ مِنْ أَنْصَارِهِ. لَقَدْ حَمَلَ سَمَاحَتُهُ عَلَى عَاتِقِهِ مَشْرُوعاً نَهْضَوِيّاً رَسَّخَ فِيهِ الاِعْتِبَارَ لِقَضَايَا الأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ، وَقَادَ جُمْهُورِيَّةَ إِيرَانَ الإِسْلامِيَّةَ طَوَالَ عُقُودٍ بِثَبَاتٍ وَحِكْمَةٍ وَجَلادَةٍ وَعِزَّةٍ، وَثَبَّتَ لَهَا مَكَانَتَهَا الْمُهِمَّةَ فِي الْعَالَمِ، وَتَرَكَ إِرْثاً كَبِيراً مِنَ الْمُنْجَزَاتِ عَلَى طَرِيقِ الْحَقِّ وَالْعِزَّةِ، فَنَحْتَسِبُهُ عِنْدَ صَاحِبِ الزَّمَانِ (عَجَّلَ اللهُ فَرَجَهُ الشَّرِيفَ)، وَأُمِّهِ الزَّهْرَاءِ (عَلَيْهَا السَّلامُ). وَنَشُدُّ عَلَى قُلُوبِ الشَّعْبِ الإِيرَانِيِّ وَمُحِبِّيهِ بِالاِحْتِسَابِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى. وَنَعْلَمُ أَنَّ الشَّعْبَ الإِيرَانِيَّ الْعَزِيزَ سَيَبْقَى مُتَمَاسِكاً ثَابِتاً رَاسِخاً عَلَى مَنْهَجِهِ وَمِنْهَجِ أَجْدَادِهِ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ وَعَلَيْهِ. إِنَّ الْعَمَلِيَّةَ الإِجْرَامِيَّةَ الْكُبْرَى الْغَادِرَةَ بِاسْتِهْدَافِهِ إِنَّمَا جَاءَتْ ضِمْنَ خُطًى يُرَادُ لَهَا طَمْسُ الْحَقِّ وَالدِّينِ وَرِجَالِهِ، وَلَكِنَّ اللهَ مُظْهِرُ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ. وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ.

بَشِيرُ النَّجَفِيُّ

بيان آية الله العظمى الشيخ الوحيد الخراساني

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فِي أَثَرِ اسْتِشْهَادِ حَضْرَةِ آيَةِ اللهِ الْخَامِنَئِيِّ، قَائِدِ الثَّوْرَةِ الإِسْلامِيَّةِ، أَعْلَنَ مَكْتَبُ حَضْرَةِ آيَةِ اللهِ الْوَاحِدِ الْخُرَاسَانِيِّ مَرَاتِبَ التَّعْزِيَةِ لِهَذَا الْمَرْجَعِ التَّقْلِيدِ. قَامَ الابْنُ الأَكْبَرُ لِحَضْرَةِ آيَةِ اللهِ الْوَاحِدِ الْخُرَاسَانِيِّ بِاتِّصَالٍ هَاتِفِيٍّ بِحُجَّةِ الإِسْلامِ وَالْمُسْلِمِينَ مُحَمَّدِيٍّ الْعِرَاقِيِّ، الْمَسْؤُولِ عَنْ مَكْتَبِ قَائِدِ الثَّوْرَةِ فِي قُمْ، فَأَبْلَغَ بِرِسَالَةِ التَّعْزِيَةِ وَعُمُقِ التَّأَثُّرِ لَدَى هَذَا الْمَرْجَعِ التَّقْلِيدِ إِلَى الْعَائِلَةِ، وَخَاصَّةً الأَبْنَاءَ. وَقَدْ دَعَا هَذَا الْمَرْجَعُ التَّقْلِيدُ لِلشَّهِيدِ بِالْحَشْرِ مَعَ صَاحِبِ هَذَا الشَّهْرِ، حَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلامُ)، وَلِلْعَائِلَةِ بِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ وَالأَجْرِ الْجَزِيلِ.

الْوَحِيدُ الْخُرَاسَانِيُّ

بيان آية الله العظمى السيد موسى الشبيري الزنجاني

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ

بِبَالِغِ التَّأَثُّرِ وَالْحُزْنِ، أَتَقَدَّمُ بِالتَّعْزِيَةِ إِلَى الْحَوَزَاتِ الْعِلْمِيَّةِ، وَإِلَى الْبَيْتِ الْمُكَرَّمِ وَأَنْجَالِهِ الْكِرَامِ، وَإِلَى الشَّعْبِ الإِيرَانِيِّ الصَّابِرِ الْوَفِيِّ، وَإِلَى عُمُومِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْعَالَمِ، بِوَفَاةِ الْقَائِدِ الْمُعَظَّمِ سَمَاحَةِ آيَةِ اللهِ الْحَاجِّ السَّيِّدِ عَلِيٍّ خَامِنَئِي (رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ). لَقَدْ كَانَ الرَّاحِلُ الْكَبِيرُ تِلْمِيذاً بَارِزاً وَخَرِيجاً لِمَدْرَسَةِ مُؤَسِّسِ الثَّوْرَةِ، مُؤْمِناً بِنَهْجِهِ ثَابِتاً لا يَتَرَدَّدُ فِي مُوَاجَهَةِ التَّحَدِّيَاتِ، فَوَهَبَ عُمُرَهُ الشَّرِيفَ لِهَذَا الطَّرِيقِ بِصَلابَةٍ وَعَزْمٍ رَاسِخٍ، وَتَضْحِيَةٍ وَإِبَاءٍ، وَعِزَّةٍ وَاقْتِدَارٍ، وَنَشَاطٍ دَؤُوبٍ مِثَالِيٍّ. وَقَدْ قَدَّمَ هَذَا الْمُجَاهِدُ خِدْمَاتٍ جَلِيلَةً، نَرْجُو أَنْ تَكُونَ لَهُ ذُخْراً فِي آخِرَتِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى. وَهَا هُوَ الْعَدُوُّ الْخَبِيثُ، الَّذِي تَلَطَّخَتْ يَدَاهُ مِراراً بِدِمَاءِ النِّسَاءِ وَالأَطْفَالِ وَالأَبْرِيَاءِ، يُمَارِسُ عُدْوَاناً وَحْشِيّاً عَلَى الْوَطَنِ الإِسْلامِيِّ، وَيَسْفِكُ دِمَاءَ الأَبْرِيَاءِ. لَقَدْ شَهِدَ تَارِيخُ هَذِهِ الْبِلادِ تَقَلُّبَاتٍ وَمُنْعَطَفَاتٍ كَثِيرَةً، وَمَا حَفِظَ مَدْرَسَةَ الإِسْلامِ الأَصِيلِ وَأَبْنَاءَ هَذَا الدِّيَارِ الْمُؤْمِنِينَ ثَابِتِينَ، إِلَّا يَدُ الرِّعَايَةِ وَالْعِنَايَةِ لأَهْلِ الْبَيْتِ (عَلَيْهِمُ السَّلامُ)، وَوَعْيُ النَّاسِ، وَتَوَكُّلُهُمْ عَلَى اللهِ تَعَالَى، وَعَمَلُهُمْ بِوَظَائِفِهِمُ الشَّرْعِيَّةِ. وَفِي هَذِهِ الظُّرُوفِ الْحَسَّاسَةِ، يُرْتَجَى مِنْ أَبْنَاءِ إِيرَانَ الْكِرَامِ، الَّذِينَ تَكُنُّ قُلُوبُهُمُ الْمَحَبَّةَ لآلِ الْعِصْمَةِ وَالطَّهَارَةِ (عَلَيْهِمُ السَّلامُ)، أَنْ يُحَافِظُوا عَلَى وَحْدَتِهِمْ وَيُعَزِّزُوهَا أَكْثَرَ مِنْ ذِي قَبْلُ، رَغْمَ اخْتِلافِ الأَذْوَاقِ أَوْ مَا قَدْ يَكُونُ مِنِ اسْتِيَاءٍ مِنْ بَعْضِ أَحْدَاثِ الْمَاضِي، وَأَنْ يَتَجَنَّبُوا كُلَّ أَشْكَالِ الاِسْتِقْطَابِ وَالانْقِسَامِ فِي الْمُجْتَمَعِ، وَأَنْ يَسْعَوْا إِلَى صَوْنِ الأَمْنِ وَالطُّمَأْنِينَةِ، مُتَوَاصِينَ بِالْمُوَاسَاةِ وَالتَّعَاطُفِ، وَجَاعِلِينَ مَوَاعِظَ الْمَعْصُومِينَ (عَلَيْهِمُ السَّلامُ) نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ. كَمَا يَنْبَغِي لِلْمَسْؤُولِينَ وَالْقَائِمِينَ عَلَى الأُمُورِ أَنْ يَعْمَلُوا، مُتَوَكِّلِينَ عَلَى

اللهِ، وَبِحِكْمَةٍ وَبَعْدِ نَظَرٍ وَتَدْبِيرٍ دَقِيقٍ وَإِشْرَافٍ عَلَى الأَجْهِزَةِ، عَـلَى أَدَاءِ وَاجِبَـاتِهِمْ وَخِدْمَةِ النَّاسِ بِإِخْلاصٍ، لِعُبُورِ هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ الصَّعْبَةِ وَإِحْبَـاطِ مُـؤَامَرَاتِ أَعْـدَاءِ الإِسْلامِ. وَفِي هَذِهِ الأَيَّامِ وَاللَّيَالِي مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُبَارَكِ، أُوصِي جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ بِالإِكْثَارِ مِنَ الدُّعَاءِ وَالارْتِبَاطِ بِاللهِ تَعَالَى، وَالتَّوَسُّلِ بِالأَئِمَّةِ الْمَعْصُـومِينَ (عَلَـيْهِمُ السَّلامُ)، وَلا سِيَّمَا الاسْتِغَاثَةَ بِسَاحَةِ مَوْلانَا صَاحِبِ الْعَصْرِ وَالزَّمَـانِ (عَجَّـلَ اللهُ فَرَجَهُ الشَّرِيفَ). وَإِذْ أَتَقَدَّمُ بِالتَّعْزِيَةِ إِلَى الْعَوَائِلِ الثُّكْلَى جِرَّاءَ الْحَـوَادِثِ الأَخِـيرَةِ، وَأَدْعُو لِلْمُصَابِينَ وَالْجَرْحَى بِالشِّفَاءِ وَالسَّلامَةِ، فَإِنِّي أَبْتَهِلُ إِلَى اللهِ تَعَـالَى وَأَتَـضَرَّعُ إِلَيْهِ أَنْ يُعَجِّلَ فِي ظُهُورِ مَوْعُودِ الأُمَمِ، حَضْرَتِ بَقِيَّةِ اللهِ الأَعْظَمِ (أَرْوَاحُنَا فِـدَاهُ)، لِيُقِيمَ الْقِسْطَ وَالْعَدْلَ، وَتَنْتَهِيَ مُعَانَاةُ الْبَشَرِيَّةِ.

السَّيِّدُ مُوسَى الشَّبِيرِيُّ الزَّنْجَانِيُّ ١١ رَمَضَانَ الْمُبَارَكِ ١٤٤٧ هـ

بيان آية الله العظمى الشيخ مكارم الشيرزاي

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ

يَا أُمَّةَ الإِسْلامِ الْعَظِيمَةِ، يَا أَحْرَارَ الْعَالَمِ، وَيَا أَبْنَاءَ الشَّعْبِ الإِيرَانِيِّ الشَّرِيفِ وَالْمُقْتَدِرِ! مَرَّةً أُخْرَى، امْتَدَّتْ يَدُ أَذَلِّ أَعْدَاءِ الإِنْسَانِيَّةِ وَأَلَدِّهِمُ الْكُفْرِ، لِتَنَالَ مِنْ قَائِدِ الثَّوْرَةِ الْحَكِيمِ، وَرُبَّانِ سَفِينَةِ الْجِهَادِ ضِدَّ الاِسْتِكْبَارِ الْعَالَمِيِّ، لِيَنَالَ فَوْزَ الشَّهَادَةِ فِي الْمَسَارِ النُّورَانِيِّ لِمَدْرَسَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ (عَلَيْهِمُ السَّلامُ). لَقَدْ كَانَ قَائِداً يَقِظاً وَشُجَاعاً، قَضَى طِيلَةَ مَرَاحِلِ عُمُرِهِ الْمُبَارَكِ فِي مَسِيرَةِ الثَّوْرَةِ الإِسْلامِيَّةِ صَامِداً بِالْحَقِّ أَمَامَ عَوَاصِفِ الأَحْدَاثِ وَالْمِحَنِ وَالضُّغُوطِ، حَتَّى نَالَ أُمْنِيَّتَهُ الْقَدِيمَةَ وَالْتَحَقَ بِقَوَافِلِ الشُّهَدَاءِ وَإِمَامِ الشُّهَدَاءِ؛ «فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ». وَرَغْمَ أَنَّ هَذِهِ الْفَاجِعَةَ قَاسِيَةٌ جِدّاً، إِلَّا أَنَّ تَارِيخَ الإِسْلامِ خَيْرُ شَاهِدٍ عَلَى أَنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ يُسْقَى دَوْماً بِدِمَاءِ الإِيثَارِ، وَإِنَّ هَذِهِ الشَّهَادَاتِ هِيَ ضَرِيبَةُ الْعِزَّةِ وَالاِسْتِقْلالِ، وَتَمْهِيدٌ لِظُهُورِ صَاحِبِ الْعَصْرِ وَالزَّمَانِ (أَرْوَاحُنَا فِدَاهُ). وَفِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ الْحَسَّاسَةِ وَالْمَصِيرِيَّةِ، لا بُدَّ مِنَ التَّأْكِيدِ عَلَى نِقَاطٍ أَسَاسِيَّةٍ مُوَجَّهَةٍ لِلشَّعْبِ الإِيرَانِيِّ الْعَزِيزِ وَعُمُومِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْعَالَمِ:

لِنَتَذَكَّرْ دَائِماً أَنَّ يَدَ الْقُدْرَةِ الإِلَهِيَّةَ هِيَ الْعُلْيَا فَوْقَ كُلِّ الْقُوَى. وَإِيَّاكُمْ أَنْ يَتَسَرَّبَ الْوَهْنُ إِلَى الْقُلُوبِ فِي هَذِهِ الاِبْتِلاءَاتِ؛ فَإِنَّ وَعْدَ اللهِ بِالنَّصْرِ لا يُخْلَفُ: إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ.

كَمَا حَذَّرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عِنْدَ فَقْدِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلّم «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً»، فَإِنَّ اسْتِشْهَادَ خُدَّامِ الدِّينِ يَجِبُ أَلَّا

يُزَعْزِعَ الإِرَادَاتِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ. هَذِهِ الثَّوْرَةُ شَجَرَةٌ طَيِّبَةٌ لا تَقُومُ عَلَى شَخْصٍ بِعَيْنِهِ، وَبِفَضْلِ اللهِ وَتَمَسُّكاً بِشِعَارِ «إِنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ»، لَنْ تَسْقُطَ رَايَةُ هَذِهِ النَّهْضَةِ أَبَداً إِنْ شَاءَ اللهُ.

لَقَدْ حَانَ الآنَ وَقْتُ الرِّسَالَةِ الثَّقِيلَةِ الْمُلْقَاةِ عَلَى عَاتِقِ مَجْلِسِ خُبَرَاءِ الْقِيَادَةِ، لِيَعْمَلَ وَفْقَ الدُّسْتُورِ دُونَ إِضَاعَةٍ لِلْوَقْتِ وَبِحَزْمٍ تَامٍّ، وَإِنَّ قَرَارَ هَذَا الْمَجْلِسِ هُوَ «فَصْلُ الْخِطَابِ» شَرْعاً وَقَانُوناً.

عَلَى الْقُوَى الْحُكُومِيَّةِ وَمَسْؤُولِي النِّظَامِ كَافَّةً الْعَمَلُ بِدَوَافِعَ مُضَاعَفَةٍ وَتَدْبِيرٍ أَكْثَرَ ذَكَاءً لِلْقِيَامِ بِمَهَامِّهِمُ الَّتِي وُضِعَتْ لِمِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ، وَإِدَارَةُ شُؤُونِ الْبِلادِ بِحَيْثُ لا يَحْدُثُ أَيُّ خَلَلٍ فِي حَيَاةِ النَّاسِ أَوْ فِي أَمْنِ الْمُجْتَمَعِ وَاسْتِقْرَارِهِ.

نَحْنُ فِي خِضَمِّ حَرْبٍ شَامِلَةٍ. لِذَا، عَلَى الْقُوَى الْعَسْكَرِيَّةِ وَالأَمْنِيَّةِ الْمُقْتَدِرَةِ – الَّتِي هِيَ مَبْعَثُ طَمَأْنِينَةِ الشَّعْبِ – أَنْ تَعْمَلَ بِصَلابَةٍ وَدُونَ أَيِّ مُهَادَنَةٍ عَلَى وَأْدِ أَيِّ مُؤَامَرَةٍ أَوْ مُحَاوَلَةٍ لإِثَارَةِ الْفَوْضَى مِنْ قِبَلِ الأَعْدَاءِ، وَمُوَاجَهَتِهِمْ بِحِكْمَةٍ حَتَّى الْقَضَاءِ التَّامِّ عَلَيْهِمْ.

سِرُّ انْتِصَارِنَا هُوَ الاتِّحَادُ. إِنَّ الْوَاجِبَ الشَّرْعِيَّ عَلَى الْمُخْلِصِينَ وَأَبْنَاءِ الشَّعْبِ كَافَّةً هُوَ صِيَانَةُ وَحْدَةِ الصُّفُوفِ وَالتَّصَدِّي لاخْتِرَاقِ الأَعْدَاءِ وَإِشَاعَاتِهِمْ.

إِنَّ الشَّعْبَ الإِيرَانِيَّ وَالْعَالَمَ الإِسْلامِيَّ هُمُ الْمُطَالَبُونَ بِدَمِ الْقَائِدِ الشَّهِيدِ. وَالْمُجْرِمُونَ الأَسَاسِيُّونَ هُمْ حُكُومَةُ الاسْتِكْبَارِ الأَمْرِيكِيِّ وَالْكِيَانُ الصَّهْيُونِيُّ الْمَنْحُوسُ؛ وَإِنَّ هَذَا الانْتِقَامَ هُوَ وَاجِبٌ دِينِيٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمِي الْعَالَمِ حَتَّى يُقْطَعَ دَابِرُ هَؤُلاءِ الْمُجْرِمِينَ.

لا نَغْفُلَنَّ عَنِ الدُّعَاءِ وَالتَّوَسُّلِ، فَنَحْنُ فِي ظِلِّ إِمَامٍ حَيٍّ وَنَاظِرٍ إِلَيْنَا، وَلَنْ يَتْرُكَنَا وَحْدَنَا. بِقَلْبٍ مَفْعُومٍ بِالْحُزْنِ، وَلَكِنْ مُمْتَلِئٍ بِالأَمَلِ بِالنَّصْرِ الإِلَهِيِّ، نَرْفَعُ أَيْدِيَنَا

بِالتَّضَرُّعِ إِلَى الْبَارِي عَزَّ وَجَلَّ وَنَدْعُو لانْتِصَارِ الْحَقِّ. فِي الْخِتَامِ، أُعَزِّي بَقِيَّةَ اللهِ الأَعْظَمِ (أَرْوَاحُنَا فِدَاهُ) وَعُمُومَ الْمُسْلِمِينَ وَأَحْرَارَ الْعَالَمِ، وَلا سِيَّمَا الشَّعْبَ الإِيرَانِيَّ الْعَزِيزَ، بِاسْتِشْهَادِ قَائِدِ الثَّوْرَةِ الْمُعَظَّمِ وَمُرَافِقِيهِ وَعَدَدٍ مِنَ الأَطْفَالِ وَالْمَظْلُومِينَ الأَبْرِيَاءِ، سَائِلاً الْمَوْلَى عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ عُلُوَّ الدَّرَجَاتِ، وَلِذَوِيهِمُ الصَّبْرَ وَالأَجْرَ الْجَزِيلَ.

مَكَارِمُ الشِّيرَازِيُّ (قم ـ ١٠/ إسفند/ ١٤٠٤)

بيان آية الله العظمى الشيخ جوادي الآملي

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ

إِنَّ اسْتِشْهَادَ الْقَائِدِ الْجَلِيلِ آيَةِ اللهِ الْخَامِنَئِيِّ، وَاسْتِشْهَادَ جَمْعٍ مِنَ الْقَادَةِ، حَادِثَةٌ أَلِيمَةٌ. قَائِدٌ أَفْنَى عُمُرَهُ الْمُبَارَكَ فِي صَوْنِ الإِسْلام، وَصَوْنِ عِزَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَحِفْظِ اسْتِقْلالِ الْوَطَنِ. لَقَدْ كَانَتِ التَّوْصِيَةُ الْمُهِمَّةُ لِذَلِكَ الْقَائِدِ الرَّاحِلِ التَّأْكِيدَ عَلَى حِفْظِ وَحْدَةِ الأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ، وَصَوْنَ اسْتِقْلالِ الْوَطَنِ، وَالْحِفَاظَ عَلَى سَلامَةِ أَرَاضِيهِ. نُعَزِّي الأُمَّةَ الإِسْلامِيَّةَ بِرَحِيلِ ذَلِكَ الْقَائِدِ الْعَظِيمِ، وَنَسْأَلُ اللهَ سُبْحَانَهُ عُلُوَّ الدَّرَجَاتِ لِسَمَاحَتِهِ، وَلِلأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ الصَّبْرَ الْجَمِيلَ، وَلِعَائِلَتِهِ الْكَرِيمَةِ الأَجْرَ الْجَزِيلَ.

جَوَادِيُّ الآمِلِيُّ ١/ ٣/ ٢٠٢٦

بيان آية الله العظمى الشيخ جعفر السبحاني

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

﴿إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾

إِنَّمَا الْحَيَاةُ عَقِيدَةٌ وَجِهَاد

لَقَدْ أَثَارَ نَبَأُ الاِسْتِشْهَادِ الْمَظْلُوم لِقَائِدِ جُمْهُورِيَّةِ إِيرَانَ الإِسْلامِيَّةِ سَمَاحَةِ آيَةِ اللهِ الْخَامِنَئِيِّ (قَدَّسَ سِرَّهُ)، وَكَذَلِكَ ارْتِكَابُ مَجْزَرَةٍ بِحَقِّ عَدَدٍ مِنْ أَبْنَاءِ الْوَطَنِ الْمَظْلُومِينَ، وَلا سِيَّمَا النِّسَاءِ وَالأَطْفَالِ الْعُزَّلِ، مَوْجَةً مِنَ الْحُزْنِ وَالأَسَى فِي أَوْسَاطِ الأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ، وَلا سِيَّمَا الشَّعْبِ الإِيرَانِيِّ الشَّرِيفِ. وَإِنِّي إِذْ أُعَزِّي بِهَذِهِ الْفَاجِعَةِ الأَلِيمَةِ وَالْمُؤْلِمَةِ مَقَامَ صَاحِبِ الْعَصْرِ وَالزَّمَانِ (عَجَّلَ اللهُ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيفَ)، وَعُمُومَ الأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ، وَلا سِيَّمَا الْعُلَمَاءَ الأَعْلامَ وَالْمَرَاجِعَ الْعِظَامَ، وَبِالأَخَصِّ الْعَوَائِلَ الْكَرِيمَةَ لِلشُّهَدَاءِ، أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى لَهُمْ عُلُوَّ الدَّرَجَاتِ، وَالرَّحْمَةَ الْوَاسِعَةَ، وَالرِّضْوَانَ الإِلَهِيَّ. لَقَدْ كَانَ سَمَاحَةُ آيَةِ اللهِ الْخَامِنَئِيِّ مِصْدَاقاً بَارِزاً لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ: «إِنَّمَا الْحَيَاةُ عَقِيدَةٌ وَجِهَادٌ»؛ فَمُنْذُ شَبَابِهِ وَحَتَّى اللَّحَظَاتِ الأَخِيرَةِ مِنْ عُمُرِهِ الشَّرِيفِ، بَذَلَ بِقَلَمِهِ وَلِسَانِهِ وَبِرُوحِهِ وَقَلْبِهِ جَهْدَهُ فِي سَبِيلِ تَبْيِينِ تَعَالِيمِ الإِسْلامِ وَإِدَارَةِ الْبِلادِ بِحِكْمَةٍ، إِلَى أَنْ نَالَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُبَارَكِ فَيْضَ الشَّهَادَةِ الْعَظِيم، فَحَلَّ ضَيْفاً عَلَى جَدِّهِ الطَّاهِرِ، مَوْلَى الْمُتَّقِينَ الإِمَامِ عَلِيٍّ (عَلَيْهِ السَّلامُ). وَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَلَّا يَتْرُكَ دِمَاءَ هَؤُلاءِ الْمَظْلُومِينَ الطَّاهِرَةَ مِنْ دُونِ قِصَاصٍ، وَأَنْ يَنْتَقِمَ لَهُمْ مِنَ الأَعْدَاءِ الْخُبَثَاءِ الْمَلْعُونِينَ الْمُتَوَحِّشِينَ، وَنَرْجُو مِنَ الشَّعْبِ الإِيرَانِيِّ الْعَظِيمِ أَنْ يَحْفَظُوا التَّلاحُمَ وَوَحْدَةَ الْكَلِمَةِ، فَاللهُ تَعَالَى هُوَ حَافِظُ هَذَا الْبَلَدِ وَهَذَا النِّظَام. وَالسَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

قُمْ – جَعْفَرُ السُّبْحَانِيُّ

بيان آية الله العظمى الشيخ نوري الهمداني

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً

إِنَّ اسْتِشْهَادَ الْقَائِدِ الْحَكِيمِ وَالشُّجَاعِ لِلثَّوْرَةِ الإِسْلامِيَّةِ فِي إِيرَانَ، سَمَاحَةِ آيَةِ اللهِ الْخَامِنَئِيِّ (رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ)، كَانَ ثَوَابَ عُمْرٍ حَافِلٍ بِالإِخْلاصِ وَالْجِهَادِ وَالْعُبُودِيَّةِ؛ إِذْ نَالَ مِنَ اللهِ الْمُتَعَالِي أُمْنِيَّتَهُ الدَّائِمَةَ وَرَغْبَتَهُ الْمُسْتَمِرَّةَ الَّتِي طَالَمَا ابْتَهَلَ بِهَا فِي أَدْعِيَتِهِ.

رَجُلٌ تَوَلَّى، عَلَى مَدَى مَا يُقَارِبُ أَرْبَعَةَ عُقُودٍ مِنَ الْقِيَادَةِ بَعْدَ الإِمَامِ الرَّاحِلِ [الْخُمَيْنِيِّ] (رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ)، فَكَانَ عَلَى نَهْجِ ذَلِكَ الْقَائِدِ الْقُدْوَةِ؛ فَلَمْ يَعْمَلْ قَطُّ لِغَيْرِ اللهِ، وَلَمْ يَتَّخِذْ قَرَاراً، وَلَمْ يَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ.

لَقَدِ امْتَازَ عِلْماً وَعَمَلاً، وَتَقْوًى وَشَجَاعَةً، وَلَمْ يَنَأْ بِنَفْسِهِ عَنْ شَعْبِهِ أَبَداً، حَتَّى فِي لَحَظَاتِ الْخَطَرِ. لا رَيْبَ أَنَّ أَمْرِيكَا الْمُجْرِمَةَ وَالصَّهْيُونِيَّةَ الْمُتَعَطِّشَةَ لِلدِّمَاءِ قَدْ بَلَغَتَا نِهَايَةَ الطَّرِيقِ، وَهَذِهِ الْمَرَّةَ سَتُوَجِّهُ الْقُوَّاتُ الْمُسَلَّحَةُ الْمُقْتَدِرَةُ، بِدَعْمٍ شَامِلٍ مِنَ الشَّعْبِ، رَدّاً حَاسِماً لا يُنْسَى.

وَفِي هَذِهِ الظُّرُوفِ الاسْتِثْنَائِيَّةِ، عَلَى الشَّعْبِ الإِيرَانِيِّ الْعَظِيمِ وَجَمِيعِ الأَحْرَارِ أَنْ يُحَافِظُوا عَلَى غَضَبِهِمُ الْمُقَدَّسِ تِجَاهَ الْعَدُوِّ، وَأَنْ يُدْرِكُوا أَنَّ صَوْنَ الْوَحْدَةِ وَالتَّلاحُمَ وَاجِبٌ وَضَرُورَةٌ، وَأَنْ يَتَجَنَّبُوا كُلَّ خِلافٍ؛ فَبِالْحُضُورِ فِي السَّاحَةِ وَبِالْتِحَامِ جَمِيعِ فِئَاتِ الشَّعْبِ يُصَابُ الْعَدُوُّ بِالْيَأْسِ.

وَإِنْ شَاءَ اللهُ سَيُؤَدِّي مَجْلِسُ الْخُبَرَاءِ الْمُنْبَثِقُ مِنَ الشَّعْبِ وَاجِبَهُ التَّارِيخِيَّ، وَسَيَعْلَمُ الْعَدُوُّ أَنَّ مَسَارَ الثَّوْرَةِ الإِسْلامِيَّةِ سَيَسْتَمِرُّ بِقُوَّةٍ وَاقْتِدَارٍ.

أَتَقَدَّمُ بِالتَّهْنِئَةِ وَالتَّعْزِيَةِ بِاسْتِشْهَادِ هَذَا الْقَائِدِ الْعَظِيمِ لِلْعَالَمِ الإِسْلامِيِّ إِلَى مَحْضَرِ بَقِيَّةِ اللهِ الأَعْظَمِ (عَجَّلَ اللهُ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيفَ)، وَإِلَى أُمَّـةِ الإِسْـلامِ، وَإِلَى جَمِيـعِ أَحْرَارِ الْعَالَمِ.

نُورِيُّ الْهَمَدَانِيُّ

بيان آية الله السيد علاء الدين الغريفي

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.

بِبَالِغِ الْحُزْنِ وَعَظِيمِ الأَسَى وَبِقُلُوبٍ مُطْمَئِنَّةٍ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، فُجِعْنَا وَفُجِعَتِ الأُمَّةُ الإِسْلاَمِيَّةُ الأَبِيَّةُ بِنَبَإِ اغْتِيَالِ وَاسْتِشْهَادِ الْمُرْشِدِ الأَعْلَى لِلْجُمْهُورِيَّةِ الإِسْلاَمِيَّةِ الإِيرَانِيَّةِ، الْقَائِدِ الْكَبِيرِ (آيَةِ اللهِ السَّيِّدِ عَلِيِّ الْحُسَيْنِيِّ الْخَامِنَئِيِّ "قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ") وَجَمْعٍ مِنَ الْقِيَادِيِّينَ فِي دَوْلَةِ إِيرَانَ الإِسْلاَمِيَّةِ الصَّامِدَةِ "رَفَعَهُمُ اللهُ إِلَى أَعْلَى عِلِّيِّينَ" فِي شَهْرٍ عَظِيمٍ عِنْدَ اللهِ، خِلاَلَ هَجَمَاتٍ طُغْيَانِيَّةٍ وَمَجَازِرَ وَحْشِيَّةٍ ارْتَكَبَتْهَا أَيْدِي الصَّهْيَوْنِيَّةِ الْعَالَمِيَّةِ الآثِمَةِ مُمَثِّلَةً بِأَمْرِيكَا وَإِسْرَائِيلَ وَأَعْوَانِهِمَا.

وَفِي الْوَقْتِ نَرْفَعُ تَعَازِينَا إِلَى وَلِيِّ الْعَصْرِ وَالزَّمَانِ (عَجَّلَ اللهُ فَرَجَهُ) وَإِلَى جَمِيعِ مَوَالِي أَهْلِ الْبَيْتِ (عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ) وَالشُّعُوبِ الإِسْلاَمِيَّةِ الْحُرَّةِ أَحَرَّ التَّعَازِي وَأَصْدَقَ الْمُوَاسَاةِ لِهَذِهِ الْجَرِيمَةِ وَالْفَاجِعَةِ النُّكْرَاءِ، نُعْلِنُ تَضَامُنَنَا مَعَ الشَّعْبِ الإِيرَانِيِّ فِي مِحْنَتِهِ الْكَبِيرَةِ. فَقَدْ كَانَتْ لِقِيَادَةِ فَقِيدِنَا "طَابَ ثَرَاهُ" الْحَكِيمَةِ، خِلاَلَ عُقُودٍ مِنَ الزَّمَنِ، الأَثَرُ الْبَالِغُ فِي نُفُوسِ مُسْتَضْعَفِي الْعَالَمِ فِي دِفَاعِهِ عَنِ الْعَدَالَةِ وَالْحُرِّيَّةِ وَالإِنْسَانِيَّةِ وَتَحْرِيرِ الأَرَاضِي الْمُغْتَصَبَةِ فِي لُبْنَانَ وَفِلِسْطِينَ الْمُحْتَلَّةِ. إِنَّ تَكْرَارَ مَا تَشْهَدُهُ بُلْدَانُ السَّاحَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ الْيَوْمَ مِنْ وَحْشِيَّةٍ وَهَمَجِيَّةٍ مُوَجَّهَةٍ مِنَ الاِسْتِعْمَارِ الْعَالَمِيِّ الْغَاشِمِ، حَتَّى طَالَتِ اسْتِفْزَازَاتُهُمُ الْوَقِحَةُ مَشَاعِرَ الْمَلاَيِينَ مِنْ أَحْرَارِ الْعَالَمِ الإِنْسَانِيِّ، اغْتِيَالاَتٍ لِقِيَادَاتٍ رُوحَانِيَّةٍ عُلْيَا وَرُمُوزِهَا الشَّامِخَةِ فِيهَا، دُونَ رَادِعٍ مِنَ الْمُؤَسَّسَاتِ الدُّوَلِيَّةِ الْقَانُونِيَّةِ الَّتِي لا حِيَادِيَّةَ فِيهَا، لا كَمَا يَدَّعُونَ.

لَهُوَ مَدْعَاةٌ لِلْوُقُوفِ الْحَازِمِ أَمَامَ الْعَالَمِ أَجْمَعَ لِإِيقَافِ هَذِهِ الِاعْتِدَاءَاتِ الآثِمَةِ عَلَى الْجُمْهُورِيَّةِ الإِسْلاَمِيَّةِ الإِيرَانِيَّةِ الشَّقِيقَةِ وَرُمُوزِهَا وَشَعْبِهَا النَّبِيلِ، وَالْوُقُوفِ وَقْفَةً وَاحِدَةً جَادَّةً ضِدَّ تَمَدُّدِهَا وَاسْتِمْرَارِهَا، فَإِنَّ الإِقْدَامَ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْعُدْوَانِيَّاتِ سَيُثِيرُ غَضَبَ وَاسْتِنْفَارَ الشُّعُوبِ الْمَظْلُومَةِ وَالْمُسْتَضْعَفَةِ، وَسَيُشْعِلُ الْعَالَمَ بِأَسْرِهِ، وَلا يَجِدُ مَنْ يُطْفِئُ نِيرَانَهَا.

دَاعِينَ الشَّعْبَ الإِيرَانِيَّ الأَبِيَّ لِأَنْ يَتَكَاتَفَ وَيَتَآزَرَ بِكُلِّ صَلاَبَةٍ وَعَزِيمَةٍ تَحْتَ قِيَادَاتِهِ وَحُكَمَائِهِ، وَيَنْهَضُوا وَيَقِفُوا أَمَامَ هَذَا التَّيَّارِ الْجَارِفِ إِلَى أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ مُحْنَتِهِمْ فِي كَافَّةِ الْمَجَالاَتِ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى. سَائِلِينَ الْمَوْلَى الْعَلِيَّ الْقَدِيرَ أَنْ يَتَغَمَّدَ الْفَقِيدَ الْقَائِدَ وَرُفَقَاءَهُ السُّعَدَاءَ بِوَاسِعِ رَحْمَتِهِ، وَيَحْشُرَهُمْ مَعَ أَوْلِيَائِهِمْ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ، وَيَمُنَّ عَلَى جَرْحَاهُمْ بِالشِّفَاءِ الْعَاجِلِ، وَيَزِيدَ مِنْ صَبْرِ الشَّعْبِ الإِيرَانِيِّ وَصُمُودِهِ، وَيُفَرِّجَ عَنَّا وَعَنْهُمْ وَعَنْ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ بِظُهُورِ إِمَامِنَا الْمُفَدَّى الْحُجَّةِ الْمُنْتَظَرِ (عَجَّلَ اللهُ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيفَ).

وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ

النَّجَفُ الأَشْرَفُ الأَحَدُ ١١ رَمَضَانَ الْمُبَارَكِ/ ١٤٤٧ هـ السَّيِّدُ عَلاءُ الدِّينِ الْغَرِيفِيُّ

بيان آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. نُعَزِّي الْمَرَاجِعَ الْعِظَامَ، وَعُلَمَاءَ الإِسْلامِ وَالْحَوْزَاتِ الْعِلْمِيَّةِ، وَالأُمَّةَ الإِسْلامِيَّةَ وَالشُّعُوبَ الْمُؤْمِنَةَ، سَيَّمَا الشَّعْبَ الإِيرَانِيَّ الَّذِي عَبَّرَ بِصُمُودِهِ وَجِهَادِهِ وَمُخْتَلَفِ مَوَاقِفِهِ عَنْ عَظِيمِ وَلائِهِ لِلإِمَامِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلامُ، نُعَزِّيهِمْ بِشَهَادَةِ قَائِدِ الثَّوْرَةِ الإِسْلامِيَّةِ آيَةِ اللهِ السَّيِّدِ عَلِيٍّ الْخَامِنَائِيِّ (قَدَّسَتْ نَفْسُهُ)، الَّذِي كَانَ مِثالاً لِلشَّجَاعَةِ الْحُسَيْنِيَّةِ، فِي مُخْتَلَفِ مَرَاحِلِ حَيَاتِهِ وَقِيَادَتِهِ، حَتَّى شَهَادَتِهِ عَلَى يَدِ أَعْدَاءِ الإِسْلامِ، لِتَتَحَقَّقَ بِذَلِكَ قَدِيمُ أُمْنِيَّتِهِ الَّتِي تَمَنَّاهَا، فَهَنِيئاً لَهُ الشَّهَادَةُ فِي سَبِيلِ اللهِ. إِنَّنَا إِذْ نَنْتَظِرُ فَرَجَ مَوْلانَا الْحُجَّةِ بْنِ الْحَسَنِ الْمَهْدِيِّ عَجَّلَ اللهُ فَرَجَهُ الشَّرِيفَ، وَنَسْأَلُ اللهَ سُبْحَانَهُ أَنْ يُعَجِّلَ فَرَجَهُ الْمَيْمُونَ، نَعْلَمُ أَنَّ نَهْجَ مُقَاوَمَةِ الطُّغَاةِ، هُوَ مِنْ صَمِيمِ أَمْرِ انْتِظَارِهِ الَّذِي أَمَرَنَا بِهِ أَجْدَادُهُ الطَّاهِرُونَ عَلَيْهِمُ السَّلامُ، وَنُعْلِنُهَا صَرِيحَةً لأَعْدَاءِ الإِسْلامِ، أَنَّ الشُّعُوبَ الْمُؤْمِنَةَ، لا يَزْدَادُونَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْمَصَائِبِ الْجَلِيلَةِ إِلَّا اسْتِقَامَةً وَتَحَدِّياً. إِنَّ دِمَاءَ شُهَدَاءِ الأُمَّةِ، سَوْفَ تَسْقِي شَجَرَةَ الصُّمُودِ وَالتَّصَدِّي، مِنْ أَجْلِ إِعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ وَرَايَةِ الْحَقِّ فِي الْعَالَمِ، وَدَحْضِ الظَّالِمِينَ، وَكَمَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) وَسَيَرَى الْعَدُوُّ الْمُسْتَكْبِرُ، أَنَّ هَذِهِ الدِّمَاءَ سَتَكُونُ خَارِطَةَ طَرِيقٍ لِجِهَادِهَا وَوَسِيلَةً لِتَحَقُّقِ نَصْرِ اللهِ الْعَزِيزِ وَقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: (وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ). وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

كَرْبَلاءُ الْمُقَدَّسَةُ – مُحَمَّدُ تَقِيُّ الْمُدَرِّسِيُّ ١١ شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُبَارَكِ ١٤٤٧ هـ

بيان آية الله الشيخ دوزدوزاني التبريزي

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ

بِالتَّأَثُّرِ الْعَمِيقِ، أُعَزِّي باسْتِشْهَادَ الْقَائِدِ الْمُعَظَّمِ آيَةِ اللهِ الْحَاجِّ السَّيِّدِ عَلِيٍّ الْخَامِنَئِيِّ (رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ) إِلَى الْحَوَزَاتِ الْعِلْمِيَّةِ، وَالْبَيْتِ الْمُكَرَّمِ وَالأَنْجَالِ الْكِرَامِ، وَإِلَى الشَّعْبِ الصَّابِرِ الْوَفِيِّ الإِيرَانِيِّ وَعُمُومِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْعَالَمِ.

ذَلِكَ الْكَافِرُ الْخَبِيثُ، الَّذِي تَلَطَّخَتْ يَدَاهُ بِدِمَاءِ النِّسَاءِ وَالأَطْفَالِ وَالْبُرَآءِ مِرَارًا، مَا زَالَ يَقُومُ بِاعْتِدَاءٍ وَحْشِيٍّ عَلَى الْوَطَنِ الإِسْلامِيِّ. سَيُؤَدِّي مَجْلِسُ الْخُبَرَاءِ الْمُنْبَثِقُ مِنَ الشَّعْبِ وَاجِبَهُ التَّارِيخِيَّ، وَسَيَعْلَمُ الْعَدُوُّ أَنَّ مَسَارَ الثَّوْرَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ سَيَسْتَمِرُّ بِقُوَّةٍ وَاقْتِدَارٍ. أَتَقَدَّمُ بِالتَّهْنِئَةِ وَالتَّعْزِيَةِ بِاسْتِشْهَادِ هَذَا الْقَائِدِ الْعَظِيمِ لِلْعَالَمِ الإِسْلاَمِيِّ إِلَى مَحْضَرِ بَقِيَّةِ اللهِ الأَعْظَمِ (عَجَّلَ اللهُ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيفَ)، وَإِلَى الأُمَّةِ الإِسْلاَمِيَّةِ، وَإِلَى جَمِيعِ أَحْرَارِ الْعَالَمِ.

آيَةُ اللهِ دُوزْدُوزَانِيُّ التَّبْرِيزِيُّ

بيان آية الله العظمى الشيخ محمد السند

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ

نُعَزِّي صَاحِبَ الْعَصْرِ وَالزَّمَانِ عَجَّلَ اللهُ فَرَجَهُ الشَّرِيفَ وَعُلَمَاءَ الأُمَّةِ الْمُجَاهِدَةِ وَالْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِاسْتِشْهَادِ الْقَائِدِ زَعِيمِ الثَّوْرَةِ فِي الْجُمْهُورِيَّةِ الإِسْلامِيَّةِ الإِيرَانِيَّةِ آيَةِ اللهِ الْمُجَاهِدِ الشَّهِيدِ السَّيِّدِ عَلِيٍّ الْخَامِنَئِيِّ دَامَتْ أُسْوَتُهُ فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ لِلأَجْيَالِ. وَلا أَجِدُ تَأْبِيناً لِهَذَا الْقَائِدِ الْبَاسِلِ إِلاَّ تَذْكِرَةَ الْمُجَاهِدِينَ وَالأُمَّةِ بِوَصَايَا الْوَحْيِ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ وَوَصَايَا النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ الأَوْصِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ فَمَا أَحْوَجَنَا إِلَيْهَا فِي هَذَا الظَّرْفِ:

فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)) وَهُوَ يَقْتَضِي الْمَزِيدَ مِنَ التَّعْبِئَةِ وَأَخْذِ الأُهْبَةِ قِبَالَ الْعَدُوِّ. وَقَالَ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ) وَقَالَ: (وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً) فَاعْتِمَادُ الأَمَانِ مَعَ الْعَدُوِّ فَشَلٌ وَانْتِكَاسَةٌ.

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَآلِهِ: (الْحَرْبُ الْخُدْعَةُ) فَاعْتِمَادُ الْوَفَاءِ فِي الْحَرْبِ فَشَلٌ وَانْتِكَاسَةٌ. وَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلامُ: الْوَفَاءُ لِأَهْلِ الْغَدْرِ غَدْرٌ عِنْدَ اللهِ وَالْغَدْرُ بِأَهْلِ الْغَدْرِ وَفَاءٌ عِنْدَ اللهِ) فَإِذَا كَانَ الْعَدُوُّ دَأْبُهُ الْغَدْرَ وَالْمُبَاغَتَةَ وَالنَّكْثَ بِالْعُهُودِ فَالْوَفَاءُ لَهُ غَدْرٌ عِنْدَ اللهِ. وَالاقْتِصَاصُ لِدَمِ هَذَا الْقَائِدِ الزَّعِيمِ وَلِدِمَاءِ الشُّهَدَاءِ الْقَادَةِ وَقَوَافِلِ الشُّهَدَاءِ الْمُجَاهِدِينَ لَيْسَ إِلاَّ بِاعْتِمَادِ الْمُبَاغَتَةِ الدَّائِمَةِ وَالأُهْبَةِ الْمُسْتَمِرَّةِ.

وَأَعْظَمُ الْوَهَنِ وَالضَّعْفِ فِي صُفُوفِ الْمُجَاهِدِينَ وَالأُمَّةِ هُوَ الإِخْلادُ إِلَى زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالإِخْلادُ إِلَيْهَا، وَهُوَ رَأْسُ تَشَتُّتِ الأَهْوَاءِ وَاخْتِلافِ الْقُلُوبِ وَالْفُرْقَةِ.

وَقَالَ عليه السلام: حَتَّى إِذَا رَأَى اللهُ سُبْحَانَهُ جِدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَى الأَذَى فِي مَحَبَّتِهِ وَالاِحْتِمَالَ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضَايِقِ الْبَلاءِ فَرَجاً فَأَبْدَلَهُمُ الْعِزَّ مَكَانَ الذُّلِّ وَالأَمْنَ مَكَانَ الْخَوْفِ فَصَارُوا مُلُوكاً حُكَّاماً وَأَئِمَّةً أَعْلاماً وَقَدْ بَلَغَتِ الْكَرَامَةُ مِنَ اللهِ لَهُمْ مَا لَمْ تَذْهَبِ الآمَالُ إِلَيْهِ بِهِمْ.

فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتِ الأَمْلاءُ مُجْتَمِعَةً وَالأَهْوَاءُ مُؤْتَلِفَةً وَالْقُلُوبُ مُعْتَدِلَةً وَالأَيْدِي مُتَرَادِفَةً وَالسُّيُوفُ مُتَنَاصِرَةً وَالْبَصَائِرُ نَافِذَةً وَالْعَزَائِمُ وَاحِدَةً أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَاباً فِي أَقْطَارِ الأَرَضِينَ وَمُلُوكاً عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ.

فَانْظُرُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ حِينَ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ وَتَشَتَّتَتِ الأُلْفَةُ وَاخْتَلَفَتِ الْكَلِمَةُ وَالأَفْئِدَةُ وَتَشَعَّبُوا مُخْتَلِفِينَ وَتَفَرَّقُوا مُتَحَارِبِينَ وَقَدْ خَلَعَ اللهُ عَنْهُمْ لِبَاسَ كَرَامَتِهِ وَسَلَبَهُمْ غَضَارَةَ نِعْمَتِهِ وَبَقِيَ قَصَصُ أَخْبَارِهِمْ فِيكُمْ عِبَراً لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنْكُمْ.

مُحَمَّدُ السِّنْدِ ١١ شَهْرِ رَمَضَانَ ١٤٤٧هـ

٢ـ بيانات الشخصيات العلمية

بيان الشيخ صادق آملي اللاريجاني

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً»

شَهَادَةُ قَائِدِ الثَّوْرَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ الْفَرْزَانَةِ، حَضْرَةِ آيَةِ اللهِ الْعُظْمَى الْخَامِنَئِيِّ (قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ الشَّرِيفَ)، ضَاعَةٌ عَظِيمَةٌ لِلشَّعْبِ الإِيرَانِيِّ الْكَبِيرِ وَالْعَالَمِ الإِسْلاَمِيِّ وَجَمِيعِ الأَحْرَارِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ فِي الْعَالَمِ. هَذَا الْمُصِيبُ الْكَبِيرُ، مَلأَ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحُزْنِ وَالنَّحِيبِ، وَسَجَّلَ صَفْحَةً مُفْتَخَرَةً مِنَ الْجِهَادِ وَالإِخْلاَصِ فِي تَارِيخِ الثَّوْرَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ. بِلاَ شَكٍّ، هَذَا الْعُرُوجُ الْمَلَكُوتِيُّ، هُوَ جَزَاءُ سِنِينَ طَوِيلَةٍ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ الْخَالِصَةِ وَالْجِهَادِ الْمُسْتَمِرِّ وَالصَّبْرِ الْحَكِيمِ فِي طَرِيقِ تَحْقِيقِ أَهْدَافِ الإِسْلاَمِ الْمُحَمَّدِيِّ الأَصِيلِ. إِنَّ أَعْدَاءَ الإِسْلاَمِ وَإِيرَانَ، يَجِبُ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ الانْتِقَامَ لِدَمِ قَائِدِ الثَّوْرَةِ الشَّهِيدِ سَيُؤْخَذُ. وَالسَّلاَمُ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ جَاهَدَ وَيَوْمَ اسْتُشْهِدَ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا.

صَادِقٌ آمُلِيُّ اللَّارِيجَانِيُّ

بيان الشيخ علي رضا الأعرافي

بِسْمِ اللهِ قَاصِمِ الْجَبَّارِينَ وَمُبِيرِ الظَّالِمِينَ

أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. رُوحُ أُسْطُورَةِ الْمُقَاوَمَةِ وَقُدْوَةُ الْجِهَادِ وَزَعِيمُ الأُمَّةِ وَرُوحُ الشَّعْبِ، شَهِيدُ رَمَضَانَ، حَضْرَةُ آيَةِ اللهِ الْعُظْمَى الإِمَامِ الْخَامِنَئِيِّ (أَعْلاَ اللهُ مَقَامَهُ)، إِلَى الْمَلَكُوتِ الأَعْلَى ارْتَفَعَ. هَذِهِ الْفَاجِعَةُ الْمُوجِعَةُ، نُعَزِّيهَا إِلَى مَحْضَرِ وَلِيِّ الْعَصْرِ (عَجَّلَ اللهُ فَرَجَهُ)، وَالشَّعْبِ الإِيرَانِيِّ الْعَظِيمِ الشُّجَاعِ، وَالأُمَّةِ الإِسْلاَمِيَّةِ الْفَخُورَةِ، وَالْمَرَاجِعِ الْعِظَامِ، وَالْحَوَزَاتِ الْعِلْمِيَّةِ، وَالْمُسْتَضْعَفِينَ فِي الْعَالَمِ، وَمِحْوَرِ الْمُقَاوَمَةِ. إِنَّ الأَعْدَاءَ يَعْلَمُونَ أَنَّ الأُمَّةَ سَتُوَاصِلُ طَرِيقَ الثَّوْرَةِ وَذَلِكَ الشَّهِيدِ، وَسَتَأْخُذُ بِالثَّأْرِ لِدِمَاءِ الشُّهَدَاءِ.

عَلِيُّ رِضَا الأَعْرَافِيُّ (مُدِيرُ الْحَوَزَاتِ الْعِلْمِيَّةِ)

بيان الشيخ جواد الفاضل اللنكراني

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً

فِي شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُبَارَكِ، فَقَدَتِ الأُمَّةُ الإِسْلاَمِيَّةُ أَعْظَمَ شَخْصِيَّةٍ دِينِيَّةٍ وَسِيَاسِيَّةٍ، قَائِداً شُجَاعاً وَمَرْجِعاً كَبِيراً. هَذَا الْمُصِيبُ الْعَظِيمُ، أُبْرِكُهُ وَأُعَزِّيهِ إِلَى مَحْضَرِ الإِمَامِ الزَّمَانِ (عَجَّلَ اللهُ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيفَ)، وَجَمِيعِ الْمَرَاجِعِ الْعِظَامِ، وَالأُمَّةِ الإِسْلاَمِيَّةِ، وَالشَّعْبِ الإِيرَانِيِّ الْعَظِيمِ الشَّأْنِ.

جواد الْفَاضِلُ اللنكراني

بيان الشيخ علي اكبر السيفي المازندراني

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ». «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ». إِنَّ الرُّوحَ الْعَالِيَةَ لِلْقَائِدِ الْعَظِيمِ الشَّأْنِ، وَلِيِّ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْعَالَمِ، حَضْرَةِ آيَةِ اللهِ الْعُظْمَى الإِمَامِ الْخَامِنَئِيِّ (دَامَتْ بَرَكَاتُهُ) قَدِ الْتَحَقَتْ بِالْمَلَكُوتِ الأَعْلَى. إِنَّ الشَّهَادَةَ هِيَ حَقُّ رِجَالِ اللهِ وَالْعُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ. وَمَا يَنبَغِي الْيَوْمَ عَلَى جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَهْلِ الْبَيْتِ:

فِي هَذِهِ الظُّرُوفِ الْحَرْبِيَّةِ، أَنْ يَتَجَنَّبُوا كُلَّ حَدِيثٍ يُؤَدِّي إِلَى الاِخْتِلاَفِ.

عَلِيٌّ أَكْبَرُ السَّيْفِيُّ الْمَازِنْدَرَانِيُّ

بيان الشيخ الشيخ أبو القاسم العليدوست

بِاسْمِ اللهِ الْعَزِيزِ

هَذَا صَاحِبُ يَوْمِ الْفَتْحِ وَنَاشِرُ رَايَةِ الْهُدَى، هَذَا الطَّالِبُ بِذُحُولِ الأَنْبِيَاءِ وَأَبْنَاءِ الأَنْبِيَاءِ. بَارِكْ الْهَلاَكُ، قَدِ ارْتَكَبَتْ أَيْدِي الاِسْتِكْبَارِ الأَمْرِيكِيِّ وَالصَّهْيَوْنِيَّةِ جَرِيمَةً أُخْرَى. إِنَّ اسْتِشْهَادَ قَائِدِ الثَّوْرَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ الْكَبِيرِ، آيَةِ اللهِ الْعُظْمَى الْخَامِنَئِيِّ (قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ)، مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمَسْؤُولِينَ وَالشَّعْبِ الإِيرَانِيِّ الأَبْرِيَاءِ، هُوَ جَرِيمَةٌ كَبِيرَةٌ. إِنِّي أُعَزِّي هَذَا الْمُصِيبَ الصَّعْبَ إِلَى مَحْضَرِ مُنْتَقِمِ الدِّمَاءِ الَّتِي سُفِكَتْ بِغَيْرِ حَقٍّ، حَضْرَةِ وَلِيِّ الْعَصْرِ (عَجَّلَ اللهُ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيفَ)، وَالْمَرَاجِعِ وَالْعُلَمَاءِ، وَالشَّعْبِ الإِيرَانِيِّ الْكَبِيرِ. رُؤَسَاءُ الرَّجعِيَّةِ يَعْلَمُونَ أَنَّ هَؤُلاءِ الْمُجْرِمِينَ سَيَأْتُونَ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ.

آبُو الْقَاسِمِ الْعَلِيدُوسْتُ

بيان السيد مجتبى نور المفيدي

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً

مُصِيبَةُ اسْتِشْهَادِ قَائِدِ الثَّوْرَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ رَفِيعِ الْمَقَامِ، الْمَرْجَعِ الْكَبِيرِ، الْفَقِيهِ الْوَاعِي الْمُجَاهِدِ، حَضْرَةِ آيَةِ اللهِ الْعُظْمَى الإِمَامِ الْخَامِنَئِيِّ (رَحِمَهُ اللهُ)، بِوَسِيلَةِ الأَعْدَاءِ الأَمْرِيكِيِّ وَالصَّهْيُونِيِّ. إِنِّي هَذَا الْفَقْدَ الْمُؤْلِمَ الَّذِي لاَ يُعَوَّضُ أُعَزِّيهِ إِلَى حَضْرَةِ بَقِيَّةِ اللهِ الأَعْظَمِ (عَجَّلَ اللهُ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيفَ)، وَالْمُسْلِمِينَ وَالشِّيعَةِ وَالْمُطَالِبِينَ بِالْحَقِّ فِي الْعَالَمِ، وَخَاصَّةً الشَّعْبَ الإِيرَانِيَّ الشَّرِيفَ الْمُعَظَّمَ.

السَّيِّدُ مُجْتَبَى نُورٌ الْمُفِيدِيُّ (رَئِيسُ مَعْهَدِ الدِّرَاسَاتِ الْفِقْهِ الْمُعَاصِرِ)

بيان الشيخ محمد علي موحدي الكرماني

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً»

شَهَادَةُ الْفَقِيهِ الْمُجَاهِدِ وَالْعَالِمِ الرَّبَّانِيِّ، قَائِدِ الثَّوْرَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ الْعَظِيمِ الشَّأْنِ، نَائِبِ الْحُقِّ لِحَضْرَةِ وَلِيِّ الْعَصْرِ (أَرْوَاحُنَا فِدَاهُ)، حَضْرَةِ آيَةِ اللهِ الْعُظْمَى الْخَامِنَئِيِّ (رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ)، إِلَى مَحْضَرِ الإِمَامِ الزَّمَانِ (عَجَّلَ اللهُ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيفَ)، وَالأُمَّةِ الإِسْلاَمِيَّةِ، وَالْمَرَاجِعِ الْعِظَامِ، وَالشَّعْبِ الإِيرَانِيِّ الْكَبِيرِ. أَنَا أَعْتَبِرُ هَذَا الْعُرُوجَ الْمَلَكُوتِيَّ، بِدَايَةَ فَصْلٍ جَدِيدٍ فِي مَيْدَانِ الْجِهَادِ وَالْمُقَاوَمَةِ.

مُحَمَّدُ عَلِيٌّ مُوَحِّدِيُّ الْكِرْمَانِيُّ (رَئِيسُ مَجْلِسِ خُبَرَاءِ الْقِيَادَةِ)

بيان السيد حسن الخميني

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ

شَهَادَةُ قَائِدِ الثَّوْرَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ الْعَزِيزِ الْجَلِيلِ، حَضْرَةِ آيَةِ اللهِ الْعُظْمَى الْخَامِنَئِيِّ، مُصِيبَةٌ مُوجِعَةٌ لاَ يُعَوِّضُهَا إِلاَّ لُطْفُ اللهِ الْكَبِيرِ. ذَلِكَ الْعَظِيمُ، كَانَ خَلَفًا صَالِحًا لإِمَامِنَا الْكَبِيرِ، قَادَ سَفِينَةَ هَذِهِ الثَّوْرَةِ عَلَى مَدَى سَنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ. الشَّجَاعَةُ، وَسَلاَمَةُ النَّفْسِ، وَالتَّقْوَى الإِلَهِيَّةُ، وَالاِسْتِقَامَةُ عَلَى الأَهْدَافِ السَّامِيَةِ، جَعَلَتْ مِنْهُ شَخْصِيَّةً نَادِرَةً. إِنَّ الشَّعْبَ الإِيرَانِيَّ الشَّرِيفَ سَيَجْتَازُ هَذِهِ الْحَادِثَةَ أَيْضًا، وَسَيَسْلُكُ طَرِيقَ الإِمَامِ وَالطَّرِيقَ الدَّامِيَ لِعَاشُورَاءَ. الْخَامِنَئِيُّ الْعَزِيزُ كَانَ كَبِيرًا وَبَقِيَ كَبِيرًا، وَسَيَكُونُ بِمَوْتِهِ الأَحْمَرِ بَطَلاً لِلشَّعْبِ الإِيرَانِيِّ وَالْمُسْلِمِينَ فِي الْعَالَمِ إِلَى الأَبَدِ.

السَّيِّدُ حَسَنُ الْخُمَيْنِيُّ ١٠ إِسْفَنْدَ ١٤٠٤ هـ ش

بيان الشيخ الشيخ محسن الفقيهي

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً

أَيُّهَا الشَّعْبُ الْمُجَاهِدُ الشَّرِيفُ لِإِيرَانَ الإِسْلاَمِيَّةِ، يَا جَبْهَةَ الْمُقَاوَمَةِ الْمُنْتَصِرَةِ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْعَالَمِ. فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، شَهْرِ اسْتِشْهَادِ أُسْوَةِ الْعَدْلِ وَالشَّجَاعَةِ، حَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، جَاءَ خَبَرُ شَهَادَةِ زَعِيمِ الْحُرِّيَّةِ وَإِمَامِ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي الْعَالَمِ، الْمَرْجَعِ الْمُجَاهِدِ وَالْقَائِدِ الْعَالِي الْقَدْرِ، حَضْرَةِ آيَةِ اللهِ الْعُظْمَى الإِمَامِ الْحَاجِّ السَّيِّدِ عَلِيٍّ الْحُسَيْنِيِّ الْخَامِنَئِيِّ (قَدَّسَ اللهُ نَفْسَهُ الزَّكِيَّةَ). إِنَّ رَمْزَ نَجَاحِ الثَّوْرَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ هُوَ الاِعْتِمَادُ عَلَى الْقِيَادَةِ الْحَكِيمَةِ وَاتِّحَادِ الأُمَّةِ. إِنِّي أُبْرِكُ وَأُعَزِّي هَذِهِ الشَّهَادَةَ إِلَى مَحْضَرِ صَاحِبِ الأَمْرِ، وَالْمَرَاجِعِ الْعِظَامِ، وَالْحَوَزَاتِ الْعِلْمِيَّةِ، وَالشَّعْبِ الشَّهِيدِيِّ الإِيرَانِيِّ، وَجَبْهَةِ الْمُقَاوَمَةِ.

مُحْسِنُ الْفَقِيهِيُّ ١١ رَمَضَانَ ١٤٤٧ هـ

بيان السيد حسن المرتضوي

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً

بِالتَّأَثُّرِ وَالتَّأَسُّفِ الشَّدِيدَيْنِ؛ شَهَادَةُ قَائِدِ الثَّوْرَةِ الْمُعَظَّمِ، حَضْرَةِ آيَةِ اللهِ الْخَامِنَئِيِّ (رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ)، فِي شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُبَارَكِ وَعَلَى يَدِ أَعْدَاءِ الإِسْلاَمِ الأَنْجَاسِ، أُعَزِّيهَا إِلَى مَحْضَرِ بَقِيَّةِ اللهِ الأَعْظَمِ (عَجَّلَ اللهُ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيفَ)، وَالْحَوَزَاتِ الْعِلْمِيَّةِ، وَعُمُومِ الشَّعْبِ الإِيرَانِيِّ الشَّرِيفِ. نَرْجُو بِفَضْلِ اللهِ وَعِنَايَةِ وَلِيِّ الْعَصْرِ، تَحْقِيقَ الأَمْنِ وَالْعَظَمَةِ لِلشَّعْبِ الإِيرَانِيِّ فِي هَذِهِ الظُّرُوفِ الْحَسَّاسَةِ.

السَّيِّدُ حَسَنُ الْمُرْتَضَوِيُّ (مِنْ أَسَاتِذَةِ حَوْزَةِ خُرَاسَانَ الْعِلْمِيَّةِ)

بيان الشيخ إبراهيم زكزاكي

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَعَجِّلْ فَرَجَهُمْ

إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾

بِقُلُوبٍ مَكْسُورَةٍ وَنُفُوسٍ يَعْتَصِرُهَا الْحُزْنُ، نَتَقَدَّمُ بِأَصْدَقِ التَّعَازِي إِلَى صَاحِبِ الْعَصْرِ وَالزَّمَانِ (عَجَّلَ اللهُ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيفَ)، وَإِلَى الأُسْرَةِ الْكَرِيمَةِ لِلْفَقِيدِ الْعَزِيزِ، قَائِدِ الأُمَّةِ الإِسْلاَمِيَّةِ، آيَةِ اللهِ الْعُظْمَى الشَّهِيدِ السَّيِّدِ عَلِيٍّ الْخَامِنَئِيِّ (قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ)، وَكَذَلِكَ إِلَى جَمِيعِ أَفْرَادِ عَائِلَتِهِ الْكَرِيمَةِ، وَمَرَاجِعِ التَّقْلِيدِ الْعِظَامِ، وَشَعْبِ جُمْهُورِيَّةِ إِيرَانَ الإِسْلاَمِيَّةِ، وَسَائِرِ الأُمَّةِ الإِسْلاَمِيَّةِ، وَالْمُسْتَضْعَفِينَ فِي الْعَالَمِ. فَقَدْ تَعَرَّضَ سَمَاحَتُهُ فِي مَنْزِلِهِ بِطِهْرَانَ لِهَجُومٍ إِرْهَابِيٍّ شَنَّهُ الْعَدُوُّ الصَّهْيُونِيُّ نَتَانْيَاهُو، بِالتَّعَاوُنِ مَعَ الاِسْتِبْدَادِ الأَمْرِيكِيِّ بِقِيَادَةِ تْرَامْب، مَا أَدَّى إِلَى اسْتِشْهَادِهِ. إِنَّ هَذَا الْعَمَلَ الْجَبَانَ وَالإِجْرَامِيَّ الَّذِي اسْتَهْدَفَ الأَبْرِيَاءَ هُوَ اعْتِدَاءٌ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ، وَلَنْ تَنْكَسِرَ إِرَادَةُ الشُّعُوبِ فِي مُوَاجَهَةِ الإِرْهَابِ وَالظُّلْمِ وَالاِسْتِبْدَادِ.

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَتَقَبَّلَ هَذَا الشَّهِيدَ الرَّفِيعَ الْمَقَامِ وَالْقَائِدَ الْعَظِيمَ، وَأَنْ يُنْزِلَهُ أَعْلَى دَرَجَاتِ جِنَانِهِ، وَأَنْ يَحْشُرَهُ مَعَ الَّذِينَ اسْتُشْهِدُوا إِلَى جِوَارِ جَدِّنَا أَبِي عَبْدِ اللهِ الْحُسَيْنِ (عَلَيْهِ السَّلامُ)، وَأَنْ يَمْنَحَ ذَوِيهِ وَرُفَقَاءَهُ الصَّبْرَ الْجَمِيلَ وَالسَّكِينَةَ الْحَقِيقِيَّةَ.

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾. نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى لِذَلِكَ الشَّهِيدِ رَحْمَةً وَاسِعَةً وَمَغْفِرَةً

وَأَعْلَى دَرَجَاتِ الثَّوَابِ الإِلَهِيِّ، وَلِلْجَرْحَى الشِّفَاءَ الْعَاجِلَ. كَمَا نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَحْفَظَ دَوْلَةَ [إِيرَانَ] وَشَعْبَهَا مِنْ كُلِّ مَا هُوَ شَرٌّ وَمَكْرُوهٌ، وَأَنْ يَقْضِيَ عَلَى الْفِتْنَةِ، فِي ظَاهِرِهَا وَبَاطِنِهَا. نَبْعَثُ إِلَيْكُمْ بِأَصْدَقِ التَّعَازِي وَأَخْلَصِ الدُّعَاءِ سَائِلِينَ اللهَ لَكُمُ الصَّبْرَ وَجَزِيلَ الثَّوَابِ.

الشَّيْخُ إِبْرَاهِيمُ زَكْزَاكِيُّ ١٣ رَمَضَانَ ١٤٤٧ هـ

بيان الشيخ نعيم قاسم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

"وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ"

نُعَزِّي وَنُبَارِكُ لِصَاحِبِ الْعَصْرِ وَالزَّمَانِ الإِمَامِ الْمَهْدِيِّ عجل الله فرجه وَالأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ، وَأَحْرَارِ الْعَالَمِ، وَالشَّعْبِ الإِيرَانِيِّ الْعَظِيمِ، بِالشَّهَادَةِ الْعَظِيمَةِ الْمُبَارَكَةِ لِقَائِدِنَا وَلِيِّنَا الإِمَامِ السَّيِّدِ عَلِيٍّ الْخَامِنَئِيِّ دام ظله الَّذِي حَصَلَ عَلَى أَعْظَمِ أَوْسِمَةِ الْعِزَّةِ وَالإِخْلاصِ وَالْمُقَاوَمَةِ وَالتَّفَانِي فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى وَهُوَ وِسَامُ الشَّهَادَةِ عَلَى طَرِيقِ سَيِّدِ الشُّهَدَاءِ الإِمَامِ الْحُسَيْنِ عليه السلام.

إِنَّنِي وَإِذْ أَنْعَى الْعَالِمَ الرَّبَّانِيَّ وَالْقَائِدَ الإِلَهِيَّ بِقَلْبٍ مُتَخَّنٍ بِالأَلَمِ وَالْجِرَاحِ، وَنَفْسٍ مَمْلُوءَةٍ بِالْحُزْنِ وَالْوَجَعِ، فَإِنَّنِي أَشْعُرُ فِي الْوَقْتِ عَيْنِهِ بِالْفَخْرِ وَالاعْتِزَازِ الْكَبِيرَيْنِ أَنَّ قَائِدَ الأُمَّةِ وَمُرْشِدَهَا وَوَلِيَّ أَمْرِهَا، قَدِ ارْتَقَى إِلَى رَحْمَةِ رَبِّهِ وَرِضْوَانِهِ فِي أَعْظَمِ الشُّهُورِ وَأَفْضَلِ الأَيَّامِ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَهُوَ يَقُودُ مَسِيرَةَ الْجِهَادِ وَالْمُقَاوَمَةِ ضِدَّ الطُّغَاةِ وَالْمُتَجَبِّرِينَ الأَمِيرِكِيِّينَ وَالإِسْرَائِيلِيِّينَ، مِنْ أَعْدَاءِ الدِّينِ وَالإِنْسَانِيَّةِ، لِيَنَالَ بِذَلِكَ الْفَوْزَ الْعَظِيمَ وَالشَّرَفَ الرَّفِيعَ، إِذْ خَتَمَ حَيَاتَهُ الشَّرِيفَةَ الْمُبَارَكَةَ، بِوِسَامِ الشَّهَادَةِ الإِلَهِيِّ.

لَقَدْ عَرِجَ وَلِيُّنَا وَقَائِدُنَا إِلَى السَّمَاءِ وَاقِفاً صَامِداً شُجَاعاً، وَمُحْتَسِباً أَجْرَهُ عَلَى اللهِ تَعَالَى، وَقَدْ تَرَكَ مِنْ بَعْدِهِ عَشَرَاتِ الْمَلايِينَ مِنْ عُشَّاقِ الْوِلايَةِ، وَمِنَ الْقَادَةِ الَّذِينَ سَيَسْتَمِرُّونَ فِي حَمْلِ الرَّايَةِ وَمُتَابَعَةِ الْمَسِيرَةِ، وَمِنَ الشُّعُوبِ الَّتِي سَتَبْقَى فِي الْمَيْدَانِ تَصْدَحُ بِالإِسْلامِ الْمُحَمَّدِيِّ الأَصِيلِ وَنُصْرَةِ الْحَقِّ وَالْعَمَلِ لِتَحْرِيرِ فِلِسْطِينَ وَالْقُدْسِ، وَبِالْمُقَاوَمَةِ الَّتِي تُنْقِذُ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ نِيرِ الاسْتِكْبَارِ وَالاحْتِلالِ وَالتَّبَعِيَّةِ وَالاسْتِسْلامِ.

أَنْ يَسْتَهْدِفَ الْعُدْوَانُ الأَمِيرِكِيُّ الطَّاغُوتِيُّ وَالصَّهْيُونِيُّ الْمُجْرِمُ وَلِيَّنَا وَقَائِدَنَا وَقَائِدَ الأُمَّةِ الإِمَامَ الْخَامِنَئِيَّ ﷺ وَثُلَّةً مِنَ الْقَادَةِ وَالْمَسْؤُولِينَ وَأَبْنَاءِ الشَّعْبِ الإِيرَانِيِّ الأَبْرِيَاءِ، فَهَذَا قِمَّةُ الإِجْرَامِ، وَهَذَا الاغْتِيَالُ هُوَ وَصْمَةُ عَارٍ عَلَى جَبِينِ الْبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ، حَيْثُ يَظْلِمُ قَتَلَةُ الأَنْبِيَاءِ الصَّهَايِنَةُ شُعُوبَ الْعَالَمِ بِاسْتِبْدَادٍ مَدْعُومٍ مِنَ الشَّيْطَانِ الأَكْبَرِ أَمِيرِكَا، فِي إِطَارِ عُدْوَانٍ آثِمٍ وَخَطِيرٍ عَلَى الْجُمْهُورِيَّةِ الإِسْلاَمِيَّةِ الإِيرَانِيَّةِ وَمَا تُمَثِّلُهُ لِشُرَفَاءِ وَأَحْرَارِ الْعَالَمِ وَمُقَاوِمِيهِ.

إِنَّنَا فِي حِزْبِ اللهِ وَالْمُقَاوَمَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ فِي لُبْنَانَ وَكُلِّ الْمُؤَيِّدِينَ الدَّاعِمِينَ لِهَذَا الْخَطِّ الْخُمَيْنِيِّ الأَصِيلِ، سَنُوَاصِلُ الطَّرِيقَ بِعَزْمٍ وَثَبَاتٍ وَرُوحِيَّةٍ اسْتِشْهَادِيَّةٍ لا تَعْرِفُ الْكَلَلَ وَلا الْمَلَلَ، وَلا تَرْضَى الذُّلَّ، وَسَنَكُونُ دَائِماً فِي طَلِيعَةِ الْمُجَاهِدِينَ لِتَحْرِيرِ الأَرْضِ وَالإِنْسَانِ عَلَى نَهْجِ سَيِّدِ شُهَدَاءِ الأُمَّةِ السَّيِّدِ حَسَنِ نَصْرِ اللهِ ﷺ.

سَنَقُومُ بِوَاجِبِنَا فِي التَّصَدِّي لِلْعُدْوَانِ، وَاثِقِينَ بِنَصْرِ اللهِ وَتَسْدِيدِهِ وَتَأْيِيدِهِ.

"وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ".

وَمَهْمَا بَلَغَتِ التَّضْحِيَاتُ لَنْ نَتْرُكَ مَيْدَانَ الشَّرَفِ وَالْمُقَاوَمَةِ وَمُوَاجَهَةَ الطَّاغُوتِ الأَمْرِيكِيِّ وَالإِجْرَامِ الصَّهْيُونِيِّ لِلدِّفَاعِ عَنْ أَرْضِنَا وَكَرَامَتِنَا وَخِيَارَاتِنَا الْمُسْتَقِلَّةِ.

بِاسْمِي وَبِاسْمِ إِخْوَانِي فِي قِيَادَةِ شُورَى حِزْبِ اللهِ وَكُلِّ أَبْنَاءِ وَمُجَاهِدِي حِزْبِ اللهِ وَمُجْتَمَعِ الْمُقَاوَمَةِ فِي لُبْنَانَ، أَتَقَدَّمُ بِأَسْمَى آيَاتِ الْعَزَاءِ وَالتَّبْرِيكِ لِصَاحِبِ الْعَصْرِ وَالزَّمَانِ (عَجَّلَ اللهُ فَرَجَهُ) وَالْمَرَاجِعِ الْعِظَامِ وَالْحَوْزَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَالأُمَّةِ الإِسْلاَمِيَّةِ جَمْعَاءَ وَأَحْرَارِ وَمُسْتَضْعَفِي الْعَالَمِ، وَالإِخْوَةِ الأَعِزَّاءِ فِي قِيَادَةِ الْجُمْهُورِيَّةِ الإِسْلاَمِيَّةِ وَمِنْ رَئِيسِ الْجُمْهُورِيَّةِ الإِيرَانِيَّةِ وَالْحُكُومَةِ وَالْبَرْلَمَانِ وَالْجَيْشِ الإِيرَانِيِّ وَحَرَسِ الثَّوْرَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ وَالشَّعْبِ الإِيرَانِيِّ الْعَظِيمِ وَالْعَائِلَةِ الشَّرِيفَةِ وَالْمُضَحِّيَةِ

لِلسَّيِّدِ الْقَائِدِ، عَلَى هَذَا الْمُصَابِ الْعَظِيمِ، وَنُعَاهِدُكَ سَيِّدِي أَيُّهَا الْقَائِدُ الْخَامِنَئِيُّ بِالثَّبَاتِ عَلَى نَهْجِكَ وَخَطِّكَ، خَطِّ الْجِهَادِ وَالْمُقَاوَمَةِ وَمُقَارَعَةِ الْمُسْتَكْبِرِينَ وَنُصْرَةِ الْحَقِّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ، بِيَقِينٍ رَاسِخٍ وَعَزْمٍ لا يَلِينُ، حَتَّى تَحْقِيقِ كُلِّ الْقِيَمِ وَالْمَبَادِئِ وَالثَّوَابِتِ، فِي الْعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ وَالسِّيَادَةِ وَالْحُرِّيَّةِ وَالاِسْتِقْلالِ الَّتِي أَفْنَيْتَ عُمُرَكَ الشَّرِيفَ خِدْمَةً لَهَا وَفِي سَبِيلِهَا.

الشَّيْخُ نَعِيمُ قَاسِمٌ

الشيخ جاسم الوائلي
أستاذ في حوزة النجف الاشرف

تحصين العقيدة المهدوية

إنّ الاعتقاد بوجود المهدي ﷺ وبقائه حيّاً حتى يأذن الله تعالى له بالقيام هو كغيره من الاعتقادات الحقّة، من جهة أنّه عرضة للتزلزل والشّك، لسببٍ أو آخر.

وإلى هذه المسألة الخطيرة أشارت جملة من الروايات، من قبيل: ما رواه علي بن جعفر، عن أخيه موسى بن جعفر عليه السلام[1]، قال: «إذا فُقد الخامس من ولد السابع فالله الله في أديانكم، لا يزيلكم عنها أحد، يا بنيّ؛ إنّه لابدّ لصاحب هذا الأمر من غيبة حتى يرجع عن هذا الأمر من كان يقول به، إنّما هو محنة من الله (عزَّ وجلَّ) امتحن بها خلقه...»[2].

ومن قبيل ما رواه المفضّل بن عمر، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إيّاكم والتنويه، أما والله لَيغيبنّ إمامكم سنيناً من دهركم، ولتمحصنّ حتى يقال: مات، قُتل، هلك، بأيّ وادٍ سلك؟ ولتدمعنّ عليه عيون المؤمنين، ولتكفأنّ كما تكفأ السفن في أمواج البحر، فلا ينجو إلّا من أخذ الله ميثاقه، وكتب في قلبه الإيمان، وأيّده بروح منه، ولترفعنّ اثنتا عشرة رايةً مشتبهة، لا يُدرى أيٌّ من أيٍّ»، قال: فبكيت، ثم قلت: فكيف نصنع؟ قال: فنظر إلى شمس داخلة في الصفّة فقال: «يا

أبا عبد الله[٣]؛ ترى هذه الشمس؟»، قلت: نعم، فقال: «والله لأمرنا أَبينُ من هذه الشمس»[٤].

ولتحصين الاعتقادات الحقّة مرتكزات ثلاثة:

المرتكز الأول: عدم اغترار المؤمن بما هو عليه من الإيمان أو العلم والمعرفة، بل عليه أن يستجير بالله تعالى على الدوام، ويستعيذ به من الزيغ والانحراف[٥]، وكما علّمنا سبحانه في كتابه بقوله: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ﴾ (آل عمران: ٨).

والوجه في ذلك أنّ الإيمان والعلم وحدهما لا يعصمان الإنسان من الزيغ والضلال.

أمّا الإيمان فقد دلّت جملة من النصوص على إمكان زواله، كالنصّ الدالّ صريحاً على أنّ الإيمان منه مستقرٌّ، ومنه مستودع، وهذا الثاني قابل للزوال، وما دلّ على أنّ العبد ربما يصبح مؤمناً ويمسي كافراً، ومن الروايات الجامعة لكلا المعنيين ما رواه كليب بن معاوية الأسدي، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إنّ العبد يصبح مؤمناً ويمسي كافراً، ويصبح كافراً ويمسي مؤمناً، وقومٌ يُعارون الإيمانَ، ثمّ يُسلبونه، ويُسمَّون المُعارين، وفلانٌ منهم»[٦].

وأمّا العلم فلا شكّ في عدم كفايته للعصمة من الضلال، وإلّا فكثير من أئمّة الضلال هم من العلماء بلا أدنى شكّ، بل لو قيل: إنّ إبليس من أعلم العلماء لم يكن مجانباً للواقع.

المرتكز الثاني: مراجعة الأدلّة، لأنّها هي العلّة الموجبة للعلم بحقّانية هذه العقيدة أو تلك، ومن البديهيّ أنّ العلم بثبوت العلّة يستتبع وبشكل قهريّ العلم بثبوت المعلول، والمعلول هنا كما أسلفنا هي الحقّانية، والعلم بحقّانية العقيدة يستتبع قهراً منع حصول الشك فيها، أو رفعه لو حصل بالفعل.

هذا وقد أشبع العلماء والباحثون

العقيدة المهدوية شرحاً واستدلالاً وبرهنة وردّاً للإشكالات التي وُجهت إليها، بحيث لم يتركوا لجاهل أو شاكٍّ أو مشكّكٍ عذراً.

المرتكز الثالث: معرفة الأسباب الموجبة للشّك، لأجل الحذر من الوقوع في شراكها كما حصل لبعضهم والعياذ بالله تعالى.

ومن هنا يتّضح أنّ تحصين العقيدة المهدوية من الشك والتزلزل يرتكز على هذه المرتكزات الثلاثة كغيرها من الاعتقادات الحقّة.

والبحث الذي بين يديك - عزيزي القارئ - يسلّط الضوء على المرتكز الثالث بالخصوص، ويستعرض بعض الأسباب الموجبة للشك في حقّانية العقيدة المهدوية، ويبيّن كيفية التغلّب عليها من خلال التذكير ببعض أدلّة حقّانيتها، ومن الله (عزَّ وجلَّ) نستمدّ العون والتوفيق.

جملة من أسباب الشك:

وفي هذا المجال نذكر ما تيسّر استحضاره من أسباب للشّك، ونتعرّض لكيفية معالجتها، ومنه يعرف الطريق لمعالجة ما لم نستحضره منها ولو بشكل مجمل.

ولما لم نكن بصدد تمييز الأهمّ منها عن المهمّ، لم نلتزم بذلك في ترتيبها، وربما كان المتأخّر أهمّ من المتقدّم، فلتكن على بيّنة من ذلك.

السبب الأوّل: الوسوسة:

من نافلة القول إنّ للوسوسة ثلاثة مصادر:

الأوّل: شياطين الجنّ بزعامة إبليس.

الثاني: شياطين الإنس.

الثالث: النفس الأمّارة بالسّوء.

والمعركة بين المؤمن وهؤلاء الثلاثة على قدم وساق، وهي معركة شرسة لم تتوقّف يوماً منذ أن كان آدم عليه السلام في الجنة، وهي مستمرّة حتى يوم الناس هذا، ولن تتوقّف مادام عالم الابتلاء

والتكليف باقياً، أعني الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ العَزِيزُ الغَفُورُ﴾ (الملك: ٢).

أمّا شياطين الجنّ فقد أخذ زعيمهم إبليس على نفسه أن يضلّ بني آدم عليه السلام مهما أمكنه ذلك حسداً منه وعداوة لآدم عليه السلام وبنيه، كما حكاه القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٦-١٧)، وقوله سبحانه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ﴾ (ص: ٨٢-٨٣).

ولذا جنّد جنوده من الجنّ، وأوكل إليهم مهمّة إضلال العباد كما بيّنته كلمات أهل بيت العصمة عليهم السلام، من قبيل ما روي عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «إنّ إبليس عليه لعائن الله يبثُّ جنود الليل من حيث تغيب الشمس وتطلع، فأكثروا ذكر الله (عزَّ وجلَّ) في هاتين الساعتين، وتعوّذوا بالله من شرّ إبليس وجنوده، وعوِّذوا صغاركم في تلك الساعتين، فإنّهما ساعتا غفلة»[٧].

وينبغي الالتفات إلى أنّ الشغل الشاغل لإبليس هو إضلال المؤمنين على وجه الخصوص كما جاء في رواية زرارة، قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيمَ﴾، قال: «يا زرارة؛ إنّما عَمَدَ لك ولأصحابك، وأمّا الآخرون فقد فرغ منهم»[٨].

وقد حذّر الله (عزَّ وجلَّ) ذرّية آدم عليه السلام من تسويل الشيطان وإضلاله، وسيأتي اليوم الذي يذكّر فيه سبحانه الذين لم يأخذوا بتحذيره تعالى، واتّبعوا أمر اللّعين، فيقول لهم: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ

أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ * هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (يس: ٦٠-٦٤).

وأمّا شياطين الإنس فقد أشير إليهم في قوله تعالى: ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الإِنْسِ وَالجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ﴾ (الأنعام: ١١٢).

وهؤلاء صنفان:

١ - المعادون للدين علناً من الملحدين والمشركين.

٢ - المعادون للدين في الخفاء والمتستّرون بغطاء الإسلام من المنافقين.

والصنف الأوّل كان ولا يزال يطعن في الدين بمختلف السبل، لا سيما في العصر الحديث، من قبيل ما يزعمونه من مخالفة تراث الإسلام للبحوث والدراسات العلمية والمكتشفات الحديثة، مع أنّ أكثرها مجرّد ظنون ونظريات لم يحسم أمرها بعد.

والصنف الثاني يلعب دور المساعد للأوّل، فهو يده التي تعبث بتعاليم الإسلام ومعارفه، من خلال التشكيك فيها بطرح التساؤلات التي من شأنها إثارة الشّك في نفوس عوامّ المسلمين، وأنّه لماذا جعل الله تعالى كذا كذا، ولم يجعله كذا؟ ولِمَ قال النبي ﷺ كذا أو فعل كذا، ولم يقل كذا أو يفعل كذا؟

وعموم الناس بطبيعتهم لا يلتفتون إلى الهدف الحقيقي من وراء طرح هذه الأسئلة، ظنّاً منهم أنّ الهدف من طرحها هو طلب العلم والتعلُّم.

وأمّا النفس الأمّارة بالسّوء فقد أشير إليها في قوله تعالى: ﴿وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (يوسف: ٥٣)، كما أشير إليها أيضاً في الروايات، من قبيل الحديث المعروف الذي رواه الصدوق بسنده عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «إنّ رسول الله ﷺ

بعث سرية فلّما رجعوا قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر، وبقي عليهم الجهاد الأكبر، قيل: يا رسول الله؛ وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس»[٩]، وما رواه ﷺ عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه»[١٠].

وعلى المؤمن أن تكون مجسّاته في غاية التحسُّس لما تسوّل به نفسه، ويميّز بين المسائل التي تطرحها النفس عليه، فإنّ الغرض الأساسي من طرحها لبعض المسائل هو إيجاد المبرّر للتحلُّل من الأحكام الإلزامية – الواجبات والمحرّمات – التي تتضمّنها تلك المسائل، كما في تساؤل بعض النساء عن دليل وجوب التستّر، وتساؤل بعض الرجال – لا سيما الشباب منهم – عن دليل حرمة إقامة علاقة صداقة مع الأجنبية بدون عقد شرعي تحت عنوان الحب مثلاً.

وممّا تقدّم يتّضح أنّ هذه المصادر الثلاثة: شياطين الجنّ، وشياطين الإنس، والنفس الأمّارة بالسّوء، بمقدورها أن تثير الشك في العقيدة المهدوية، وبعدّة طرق:

الطريق الأوّل: التشكيك في مجمل أدلّتها:

ويمكن دفعه من خلال مراجعة تلك الأدلّة وإتقانها، ولو من خلال الاستعانة بالعلماء أو بعض تلامذتهم.

الطريق الثاني: التشكيك في إمكان بقاء الإنسان حيّاً كلّ هذه المدّة:

وهذا والذي بعده هو من التشكيك في بعض مسائل العقيدة المهدوية.

والتشكيك المذكور هو ما أشارت إليه الروايتان اللّتان صدّرنا بهما البحث، لاسيما قول الإمام الصادق ﷺ في رواية المفضّل بن عمر: «أما والله لَيغيبنّ إمامكم سنيناً من دهركم، ولتمحصنّ حتى يقال: مات، قُتل، هلك، بأيّ واد سلك؟».

ويمكن دفع التشكيك المذكور بعدّة وجوه:

١ - البديهة العقلية:

فإنّ إمكان التعمير لهذه المدّة - بل وأضعافها - هو من البديهيّات العقلية، لأنّ العقل لا يرى وجود أيّ استحالة في ذلك.

٢ - الضرورة الدينية:

فإنّ من ضروريّات ديننا الحنيف أنّ الله (عزَّ وجلَّ) قادر على كلّ شيء، وبالتالي فهو تعالى قادر على أن يعمّر بعض عباده ما شاء من التعمير ولو لآلافٍ من السنين، خصوصاً وأن ذلك أمر ممكن في حد نفسه.

٣ - الوقوع الخارجي:

فإنّ التعمير لهذه المدّة أو ما يقاربها أمر وقع في الخارج بالفعل لا أنّه ممكن فحسب، والوقوع خير دليل على الإمكان كما يقولون، فقد عمَّر نوح النبي عليه السلام ضعف العمر الحالي لإمامنا المهدي عجل الله فرجه، وعمّر العبد الصالح - أعني الخضر عليه السلام - أضعاف عمر النبي نوح عليه السلام.

أمّا تعمير النبي نوح عليه السلام فقد روي فيه عدّة أحاديث، ونذكر هنا حديثين رواهما الصدوق رحمه الله وإن كانا مختلفين في مقدار عمره عليه السلام، إلّا أنّهما متّفقان على أنَّه عمَّر أكثر من ألفين وأربعمائة سنة.

الحديث الأول: أنّ عمره عليه السلام ألفان وخمسمائة (٢٥٠٠) سنةٍ، وهو ما جاء في صحيح هشام بن سالم، عن جعفر بن محمد (عليهما السلام)، قال: «عاش نوحٌ ألفي سنةٍ وخمسمائة سنة، منها: ثمانمائة وخمسون سنةٍ قبل أن يبعث، وألفُ سنةٍ إلّا خمسين عاماً وهو في قومه يدعوهم، وسبعمائة عامٍ بعد ما نزل من السفينة ونضب الماء، فمَصَّرَ الأمصار، وأسكن ولده البلدان»[١١].

الحديث الثاني: أنّ عمره عليه السلام ألفان وأربعمائة وخمسون (٢٤٥٠) سنةً، وهو خبر محمد بن يوسف التميمي، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن

جده عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: «عاش أبو البشر آدم تسعمائة وثلاثين سنّة، وعاش نوحٌ ألفي سنةٍ وأربعمائة سنةٍ وخمسين سنةٍ»[١٢].

ولا يهمّنا البحث في كيفية التوفيق بين الحديثين، أو ترجيح الأوّل لصحّة سنده وضعف سند الثاني[١٣]، لأنّهما متّفقان على أنّ عمر نوح عليه السلام لا يقلّ عن ألفي سنة وأربعمائة وخمسين سنة، وعلى كلا التقديرين يدلّان على أنّ عمر النبي نوح عليه السلام يزيد على عمر إمامنا الحجّة عجل الله فرجه حتى عامنا هذا بألف سنة ومائتين واثنتين وستين (١٢٦٢) سنة تقريباً[١٤].

وأمّا تعمير العبد الصالح فهو أضعاف ذلك على ما تعتقده الإمامية تبعاً لأئمتهم عليهم السلام، ووافقهم في ذلك بعض أعلام المخالفين.

وبعض من ذهب منهم إلى موته روى أنّ اسمه خضرون بن قابيل بن آدم عليه السلام، فيكون عمره إلى حين وفاته المزعومة قد تجاوز الآلاف من السنين إذا قلنا بأنّ وفاته كانت بعد زمان نبيّنا صلى الله عليه وآله، بناءً على ما كذبه البخاري عليه صلى الله عليه وآله من أنّه قال: (لا يبقى على رأس مائة سنة ممن هو على وجه الأرض أحد)!

بل جاء في صريح رواياتنا أنّ الحكمة من تعمير الخضر عليه السلام هو الاحتجاج بتعميره على منكري تعمير المهدي عليه السلام، فقد روى الصدوق رحمه الله بسنده عن سدير الصيرفي، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام في حديث طويل حول غيبة المهدي عليه السلام، وجاء فيه: «وأمّا العبد الصالح أعني الخضر؛ فإنّ الله تبارك وتعالى ما طوّل عمره لنبوّةٍ قدّرها له، ولا لكتابٍ ينزله عليه، ولا لشريعةٍ ينسخ بها شريعة من كان قبله من الأنبياء، ولا لإمامةٍ يُلزم عباده الاقتداء بها، ولا لطاعةٍ يفرضها له، بلى[١٥] إنّ الله تبارك وتعالى لمّا كان في سابق علمه أن يقدّر من عمر القائم في

أيّام غيبته ما يقدّر وعلم ما يكون من إنكار عباده بمقدار ذلك العمر في الطول طوَّل عمر العبد الصالح في غير سببٍ يوجب ذلك، إلّا لعلّة الاستدلال به على عمر القائم، وليقطع بذلك حجّة المعاندين، لئلّا يكون للنّاس على الله حجّة...»[١٦].

والخلاصة: أنّ التعمير ممكن عقلاً، بل ثابت وقوعه بالضرورة من الدين، ومنكرها يندرج في سلك الكافرين، ومعه فلا مانع من تعمير المهدي ﷺ عقلاً ونقلاً، بل تواترت بذلك الأخبار، وإنكاره موجب للخروج من مذهب الإمامية الاثني عشرية.

الطريق الثالث: التشكيك في انتفاء الحاجة إلى شخص الإمام المهدي ﷺ، وذلك بحجّة أنّ إقامة دولة الحقّ في آخر الزمان لا تتوقّف عليه بالخصوص، لأنّ الله تعالى قادر على أن يخلق ويهيّئ من يقوم بهذه المهمّة، وهو معتقد جمهور المخالفين.

ويمكن دفعه باستحضار الروايات الدالة صريحاً على أنّ الذي أسندت إليه هذه المهمّة هو الإمام المهدي ﷺ حصراً دون غيره، وهي روايات متواترة، بل تجاوزت حدّ التواتر.

وبعد القطع بكونه هو الذي أسندت إليه تلك المهمّة لا يضرّ الجهل بالحكمة من حصرها به.

هذا مضافاً إلى أنّ كلّ مسلم يعتقد اعتقاداً جازماً بأنّ الله تعالى هو أعلم بالمصلحة، ولمن يوكل إليهم المهام، ومن لا يوكلها إليهم، كما هو الحال في جعله تعالى النبوَّة لهذا الشخص دون ذاك، وعلى كلّ من يعترضه الشكّ في ذلك أن يستحضر ما أشرنا إليه من الروايات المتواترة، كما عليه أن يستحضر قوله تعالى: ﴿وَإِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اللهِ وَعَذابٌ شَدِيدٌ بِما كانُوا يَمْكُرُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٤)، وأن يحذروا أشدّ الحذر من أن

يندرجوا في دائرة المعترضين على مشيئة الله تعالى وحكمته.

الطريق الرابع: التشكيك في أصل ولادة المهدي عجل الله فرجه:

ودفعه أهون من شربة ماء، فإنّ الروايات الدالة على تولّده عجل الله فرجه من الإمام الحسن العسكري عليه السلام مباشرة وبلا واسطة في منتصف القرن الثالث للهجرة (٢٥٥هـ تقريباً) قد تجاوزت حدّ التواتر بأضعاف مضاعفة، ومنها ما دلّ عليه بالمطابقة، ومنها ما دلّ بالالتزام.

ويمكن في هذا الصدد مراجعة مؤلّفات أصحابنا التي جمعت تلك الروايات، من قبيل كتب المحمدين الأربعة:

١ - الكافي، لثقة الإسلام الشيخ محمد بن يعقوب الكليني قدس سره.

٢ - الغيبة، لتلميذه الشيخ محمد بن إبراهيم النعماني.

٣ - كمال الدين وتمام النعمة، للشيخ الصدوق محمد بن علي بن بابويه القمّي قدس سره.

٤ - الغيبة، لشيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي قدس سره.

وقد دفعنا - بتوفيق من الله تعالى - هذه الشبهة بما لا مزيد عليه في كتابنا المخطوط (إقامة الحجّة على من أنكر ولادة الحجة عجل الله فرجه)، فقد أحصينا فيه أكثر من (٢٥٠) مائتين وخمسين رواية في هذا المجال بحسب ما تيسّر لنا، وقد قامت مجلّة الموعود مشكورةً بنشر مقالة مختصرة من الكتاب المذكور[١٧].

هذه جملة من الطرق التي يمكن لأعداء الدين أن يسلكوها بهدف تشكيك المؤمنين في عقيدتهم المهدوية، وقد عرفت كيفية دفعها بحمد الله.

السبب الثاني: التقزُّم والشعور بالدونية:

إنّ التقزُّم والشعور بالدونية أمام الآخر هو أحد الأسباب التي تجعل الفرد يتراجع عن بعض العادات والتقاليد التي جرت عليها سيرة

محيطه من العائلة أو القبيلة أو الشعب، سواء في ملبسه أم مأكله أم مشربه أم مركبه أم مسكنه أم حتى في مشيته وجلسته، وربما وصل به الحال إلى التراجع عن بعض أفكاره ومعتقداته ومبادئه.

ولهذا الشعور مناشئ عديدة:

منها: الانبهار بالآخر الناشئ من الوهم، كالانبهار بتقدّم المجتمعات الغربية على المجتمعات الشرقية، لاسيما البلدان الإسلامية والعربية منها، حتى ظنّ بعض الجهلة أنّ السبب وراء ذلك هو الدين، وكأنّ الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر وأنبيائه مدعاة للجهل والتخلّف، فيما يكون الكفر والإلحاد مدعاةً للتقدّم والتحضُّر.

وقد فات هؤلاء أنّ الغرب لم يتقدّم إلّا في الجانب المادّي، وأنّه لم يتقدّم فيه خطوة إلّا وتأخّر خطوة بل خطوات في الجانب المعنوي، سواء في بُعده الديني أم بعده الأخلاقي والإنساني.

أمّا في البُعد الديني فهو من أوضح الواضحات، إذ بات أقصى هدفهم في الوجود أن يعيشوا حياتهم الدنيا برغد ورفاهية وراحة بال وسلامة جسد، ولم يعطوا لآخرتهم أدنى اهتمام، هذا لو بقي عند بعضهم شيء من الإيمان بالآخرة، لكنّهم خسروا آخرتهم، ولم يصلوا إلى هدفهم في الدنيا، فلا رغد ولا رفاهية في العيش، ولا راحة بالٍ، ولا سلامة جسد، وها هو الواقع بابك.

وما يصدّره إعلامهم للناس فهو يشتمل على أكاذيب كثيرة وتزييف للحقائق، لكن مشكلة العرب والمسلمين أنّ أكثرهم لا يقرأون ولا يتابعون، بل ربما يصير بعضهم ملكاً أكثر من الملك، فتجده يبالغ في مدحهم، بل يستميت في الدفاع عنهم، بل يجرح في انتقاده من ينتقدهم من أبناء جلدته!

وأمّا في البُعد الإنساني والأخلاقي فحدِّث ولا حرج، إذ ما من شعار يرفعونه في ميدانٍ إلّا وينقضونه في ميدان آخر، ففي الوقت الذي يرفعون عقيدتهم بالدعوة إلى مراعاة حقوق الإنسان تجدهم أوّل من ينتهكها انتهاكاً صارخاً بلا خجل ولا حياء.

بل أكثر من ذلك، ففي الوقت الذي تراهم يبكون بدل الدموع دماً لموت كلب عاش مدلّلاً أكثر من دلال أطفالهم تراهم يغضّون النظر عن جرائم حكوماتهم حينما يبيدون الآلاف من الأبرياء من أطفال ونساء وشيوخ بأسلحة فتّاكة لا تبقي ولا تذر، وبدمٍ باردٍ، ومن دون أن يرفّ لهم جفن.

وما تراه من لطف في معاملتهم، وتماوع في حديثهم، وأدبٍ رفيع في مكالمتك لا يعدو كونه وجهاً من وجوه النفاق الاجتماعي الذي صار ثقافة لتلك الشعوب، بشاهد أنّك تجد المجرمين من المسؤولين في حكوماتهم تتَّبع ذات الأسلوب عندما يتحدّثون إلى الجماهير أو الإعلام أو عندما يصدرون قرارتهم بسحق آلافٍ من الأبرياء هنا أو هناك، فإن اعتراك في هذا شكّ فما عليك إلّا أن تتابع خطابات مسؤوليهم في أمثال ما ذكرت لك، وما يتبعه من تأييد شعبيٍّ كبيرٍ من مختلف أطياف شعوبهم، بمن فيهم أولئك الذين تعتقد أنّهم تقدّميّون ومتحضّرون ومثقّفون، بل ربما تجد بعض هؤلاء أشدّ إجراماً وقساوة ووحشية من عامّة الشعب، بل وينظّرون لحكّامهم في مجال إبادة الشعوب المسحوقة بألف حجّة وحجّة.

هذا مضافاً إلى أنّ المنبهرين - بل وغيرهم - لا يفرّقون بين مصطلحي التقدّم والتحضُّر، فإنّه لا تلازم بينهما خارجاً، فربما يتقدّم الإنسان ويتحضّر، وربما يتقدّم ولا يتحضّر، والحاصل في بلدان الغرب ليس هو إلّا التقدّم المادّي كما نبّهنا، وأمّا في

مجال التحضّر فلا يوجد أدنى مؤشّر على ذلك، فيما يوجد أكثر من مؤشّر على وجود تراجع كبير في هذا الميدان.

وبيان هذه المفارقة يحتاج إلى مناسبة أخرى ربما نتعرّض لها في بحث مستقل.

ومنها: الشخصية الانهزامية، فإنّ بعض الأشخاص يعانون حالة الانهزام أمام الآخر، ولا يصمد في سوح المواجهة الفكرية، وربما تبلغ الانهزامية عند بعضهم حدّاً يشك معه في كلّ شيء يختلف فيه مع الآخر فيما لو كان ذلك الآخر يتمتّع بقوّة في شخصيّته.

وأمثلة ذلك كثيرة، من قبيل الانهزام أمام ذوي الاختصاص، كما لو صرّح أحد المختصّين في علم من الفيزياء بما يتعارض مع العقل أو النقل - من كلام الله تعالى أو حديث المعصوم - فتراه يتردّد كثيراً في رفض كلامه والردّ عليه، بل يسري الشك إلى نفسه في صواب ما قاله الله (عزَّ وجلَّ) أو المعصوم، وما ذلك إلّا لأنّ الكلام الذي خالفهما قد سمعه من مختصّ، وقد بلغت به الانهزامية أنّه لم يمنح لنفسه حتى مثل المطالبة بالدليل على صحّة ما قاله ذلك المختصّ، وكأنّه يفترض سلفاً أنّ أصحاب الاختصاص مصيبون في كلّ ما يقولون، ويتعامل معهم معاملة المعصوم من الخطأ والاشتباه.

ولهذا المنشأ آثار خطيرة نراها اليوم تتجلّى في بعض الدعوات التي نسمعها بين الحين والآخر من بعض المحسوبين على الإسلام أو مفكّريهم وعلمائهم.

ومجمل دعواتهم هذه هو المطالبة بإعادة النظر في جملة من المسائل الدينية، من قبيل: ميراث الأنثى، وعقوبة السرقة، وعقوبة الزنا، واللواط، والسحاق، وأحكام الارتداد، والحجاب للمرأة، وقيمومة الزوج على زوجته، ولاية الأب على أولاده قبل الرشد، وفريضة النهي عن المنكر، وغير ذلك من المسائل التي

يشعر هؤلاء بالانهزامية أمام المنتقدين لهذه المسائل من الملحدين وإخوانهم ممّن عُرف عنهم العداء للدين.

ويمكن معالجة الانهزامية من خلال تشييد البناء الفكري والعقدي وتقويتهما، فإنّ ذلك يستتبع إعادة الثّقة بصواب الشرع المبين وأحكامه، وبالتالي يستتبع الاطمئنان ببطلان كلّ ما خالفه.

ويجدر في هذا المقام تذكير النفس بترديد بعض النصوص بين حين وآخر، من قبيل:

١ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ هذَا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾ (الإسراء: ٩).

٢ - وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي القُرْبى وَيَنْهى عَنِ الفَحْشاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ﴾ (النحل: ٩٠-٩١).

٣ - وقوله (عزَّ وجلَّ): ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦).

٤ - وما رواه الصدوق ﷺ بسنده عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «إنّ دين الله (عزَّ وجلَّ) لا يصاب بالعقول الناقصة، والآراء الباطلة، والمقاييس الفاسدة، ولا يصاب إلّا بالتسليم، فمن سلَّم لنا سَلِمَ، ومن اقتدى بنا هُدِيَ، ومن كان يعمل بالقياس والرأي هلك، ومن وجد في نفسه شيئاً ممّا نقوله أو نقضي به حرجاً كفر بالذي أنزل السبع المثاني والقرآن العظيم وهو لا يعلم»[١٨].

وغيرها من النصوص النافعة في هذا المجال، فإن لم ينتفع بها هؤلاء

فعليهم أن يأخذوا العبرة من أتباع الديانات الأخرى واعتزازهم بأديانهم، حتى أنّ عُبّاد البقر يعتزون بعقيدتهم، وفيهم الكثير من حملة الشهادات العليا، فتراهم يتذلّلون لها، ويتمسّحون بها، ويتبرّكون بأبوالها، فإن لم يتمكّن الانهزاميّون من المسلمين أن يكونوا أشدّ وفاءً واعتزازاً بعقيدتهم من عبدة الأبقار، فلا أقلّ يكونون مثلهم.

السبب الثالث: طول الأمد وقسوة القلوب:

إنّ استبطاء الظهور المقدّس لطول أمد الغيبة يشكّل أحياناً عاملاً من عوامل قسوة القلوب، كما حذّر الله (عزَّ وجلَّ) منها في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ﴾ (الحديد: ١٦).

وقسوة القلوب تشكّل بدورها عاملاً مساعداً في زلزلة العقيدة، لاسيما العقيدة المهدوية، ويعضد هذا العامل عامل الملل والضجر الملازم للطبيعة البشرية.

وبالإمكان معالجة السبب المذكور إذا تمّت مراعاة جملة من الأمور:

منها: أخذ العبرة ممّا ابتلي به المؤمنون من قوم نوح عليه السلام، وكيف ارتدّوا بعد إيمانهم نتيجة استبطائهم لما وعدهم به، على ما جاء في رواية سدير الصيرفي المتقدّمة عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، حيث قال عليه السلام: «وأمّا إبطاء نوح فإنّه لمّا استنزل العقوبة على قومه من السماء بعث الله (عزَّ وجلَّ) الرُّوح الأمين بسبع نويّات، فقال: يا نبيّ الله؛ إنّ الله تبارك وتعالى يقول لك: إنّ هؤلاء خلائقي وعبادي، ولستُ أبيدهم بصاعقة من صواعقي، إلّا بعد تأكيد الدعوة وإلزام الحجّة، فعاود اجتهادك في الدعوة لقومك، فإنّي مثيبك عليه، واغرس هذه النّوى، فإنّ لك في نباتها وبلوغها

وإدراكها إذا أثمرت الفرج والخلاص، فبشّر بذلك من تبعك من المؤمنين.

فلمّا نبتت الأشجار وتأزّرت وتسوّقت وتغصّنت وأثمرت وزها التمر عليها بعد زمان طويل، استنجز من الله سبحانه وتعالى العِدَةَ، فأمره الله تبارك وتعالى أن يغرس من نوى تلك الأشجار ويعاود الصبر والاجتهاد، ويؤكّد الحجّة على قومه، فأخبر بذلك الطوائف التي آمنت به، فارتدّ منهم ثلاثمائة رجلٌ، وقالوا: لو كان ما يدّعيه نوح حقّاً لمّا وقع في وعد ربّه خلف.

ثمَّ أنّ الله تبارك وتعالى لم يزل يأمره عند كلّ مرّة بأن يغرسها مرّة بعد أخرى، إلى أن غرسها سبع مرَّات، فما زالت تلك الطوائف من المؤمنين ترتدّ منه طائفة بعد طائفة، إلى أن عاد إلى نيّف وسبعين رجلاً، فأوحى الله تبارك وتعالى عند ذلك إليه وقال: يا نوح؛ الآن أسفر الصبح عن اللّيل لعينك حين صرح الحقُّ عن محضه، وصفى [الأمر والإيمان] من الكدر بارتداد كلِّ من كانت طينته خبيثة، فلو أنّي أهلكت الكفّار وأبقيت من قد أرتدّ من الطوائف التي كانت آمنت بك لمّا كنت صدقت وعدي السابق للمؤمنين الذين أخلصوا التوحيد من قومك، واعتصموا بحبل نبوّتك، بأن أستخلفهم في الأرض، وأُمكّن لهم دينهم، وأُبدّل خوفهم بالأمن، لكي تخلص العبادة لي بذهاب الشك من قلوبهم...»، إلى أن قال عليه السلام: «وكذلك القائم فإنه تمتدُّ أيّام غيبته ليصرح الحقُّ عن محضه، ويصفو الإيمان من الكدر بارتداد كلِّ من كانت طينته خبيثة من الشيعة الذين يخشى عليهم النفاق إذا أحسوا بالاستخلاف والتمكين والأمن المنتشر في عهد القائم...»[١٩].

ومنها: ضرورة الالتفات إلى أنّ طول الأمد إنّما هو بملاحظة مجموع المُدَدِ التي قضتها الأجيال في

الانتظار، وأمّا بملاحظة المدّة التي يقضيها الفرد المنتظر فهي مدّة قصيرة وليست بالطويلة.

ذلك ببيان: أنّ الفرد غير معنيٍّ بما قضاه الذين سبقوه في الانتظار، بل يلاحظ السنوات التي يقضيها هو شخصيّاً فحسب، فلو كان في عمر الأربعين مثلاً وكان قد اهتمّ بهذه المسألة في العشرين من عمره فتكون مدّة انتظاره ضمن العشرين الثانية فحسب، وبطرح شطرٍ منها للنوم والشواغل الأخرى تكون مدّة انتظاره الفعلية أقلّ من عشر سنوات، ومعلوم أنّ هذه المدّة ليست شيئاً يذكر في جنب انتظار آخر الأوصياء الإمام الحجة ﷺ والذي أُوكلت إليه إقامة دولة العدل الإلهي، ناهيك عمّا يعيشه الفرد المنتظِر خلال هذه المدّة من الأمل بقرب الظهور المقدّس، لما يراه من امتلاء الأرض من الظلم والجور، فينشط للدعاء له ﷺ بالفرج كأنّه يراه قاب قوسين أو أدنى، كما أشير إلى ذلك في دعاء العهد الذي روي عن الإمام الصادق ﷺ استحباب الدعاء به أربعين صباحاً، حيث جاء فيه: «اللّهمّ اكشف هذه الغمّة عن هذه الأمّة بحضوره، وعجّل لنا ظهوره، إنّهم يرونه بعيداً ونراه قريباً، برحمتك يا أرحم الراحمين»[٢٠].

ومنها: أنّ طول الأمد ليس أمراً سلبيّاً ولا إيجابيّاً في حدّ نفسه، بل السلبية والإيجابية كلتاهما ترجعان إلى الفرد المنتظِر، فإن عاش الانتظار متذمّراً معترضاً جازعاً كان طول الأمد سلبياً بالنسبة إليه، بل ربما يورثه الشّك والتزلزل في عقيدته المهدوية، وإن عاش صابراً محتسباً مسلِّماً كان طول الأمد إيجابيّاً له، لأنّه موجبٌ لمضاعفة حسناته، ورفع درجاته، وزياد إيمانه، كما يرشّحه لأن يكون من أعوانه ﷺ وأنصاره، والمقرّبين لديه (صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين).

ومنها: أنّ الذي يجب على المؤمن في الغيبة إنّما هو العمل بتكاليفه الشرعية الإلزامية إلى جانب انتظار الفرج، مع التسليم فيه لمشيئة الله تعالى وإرادته، وأن لا يتعجّل الظهور المبارك، كما أشير إلى ذلك في الدعاء الوارد استحبابه في زمن الغيبة، والذي أملاه النائب الأوّل عثمان بن سعيد العمري (رضي الله عنه) على أبي عليٍّ محمد بن همّام، وأوّله: «اللّهمّ عرّفني نفسك، فإنّك إن لم تعرّفني نفسك لم أعرف نبيّك، اللّهمّ عرّفني نبيّك، فإنّك إن لم تعرّفني نبيّك لم أعرف حجّتك، اللّهمّ عرّفني حجّتك، فإنّك إن لم تعرّفني حجّتك ضللت عن ديني...»، إلى أن قال: «وثبّتني على طاعة وليِّ أمرك الذي سترته عن خلقك، فبإذنك غاب عن بريّتك، وأمرَك ينتظر، وأنت العالم غير معلَّم بالوقت الذي فيه صلاح أمر وليّك في الإذن له بإظهار أمره، وكشف ستره، فصبّرني على ذلك، حتّى لا أحبَّ تعجيل ما أخَّرت، ولا تأخير ما عَجَّلت، ولا أكشف عمّا سترته، ولا أبحث عمّا كتمته، ولا أنازعك في تدبيرك، ولا أقول: لِمَ؟ وكيف؟ وما بالُ وليِّ الأمر لا يظهر وقد امتلأت الأرض من الجور؟ وأفوِّض أموري كلّها إليك...»[٢١].

السبب الرابع: الانغماس في الذنوب:

فإنّ من آثاره أنّه يورث كراهة الحقّ والعياذ بالله تعالى، وربما تبلغ كراهته أن يصبح مرتكبها من قتلة الأنبياء وأولاد الأنبياء، كما أشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالمَسْكَنَةُ وَباءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (البقرة: ٦١)، فإنّ ظاهره أنّ هؤلاء إنّما ضُربت عليهم الذلّة والمسكنة وصاروا مستحقّين للغضب الإلهي لسببين:

كفرهم بآياته، وقتلهم لأنبيائه، وأنّ هذين السببين ناشئان من العصيان والاعتداء، فإن كانت كثرة الذنوب تورث الكفر بآيات الله وقتل النبيّين فبالأَوْلى تورث الشّك فيما هو دون ذلك، كبعض المسائل المرتبطة بالعقيدة المهدوية.

السبب الخامس: ظلم العباد:

ذلك أنّ الظالمين يتوقّعون أن يكونوا من المشمولين بمعاقبة الإمام ﷺ لهم عند خروجه، لِما بلغهم متواتراً من أنّه ﷺ إنّما يخرج ليملأها قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً، ولابدّ أن يتقدّمه إزاحة الظَلَمة من أمثالهم ومعاقبتهم، وبالتالي لا يكون خروجه ﷺ في صالحهم.

وربما يتفاقم لدى الظَّلَمة هذا الشعور الباعث على القلق حتى يجرّهم إلى الشّك في العقيدة المهدوية، كخطوة نفسية في طريق التخلّص من القلق المذكور.

السبب السادس: الوقوع في العلماء الربّانيّين:

إنّ عقيدة الإمامية في علمائهم الربّانيّين تبعاً لنصوص أئمّتهم عليهم السلام أنّهم: ورثة الأنبياء، وأمناء الرسل، وأنّ الفقيه منهم إذا مات ثُلم في الإسلام ثلمة لا يسدها شيء، وأنّهم حجّة عليهم من قبل الإمام المهدي ﷺ في زمن الغيبة، لا سيما في بيان الأحكام ومعالم الدين.

وهذا المقدار من النصوص يكفي لبيان ما للعلماء الربّانيّين من مكانة عند الله تعالى ورسوله والأئمّة الطاهرين عليهم السلام، لاسيما خاتمهم المهدي ﷺ، ما يعني أنّ الذين يقعون في هؤلاء العلماء إنّما يقعون في حملة تلك العناوين العظيمة والكريمة، ومن المتوقّع جدّاً - كما وقع بالفعل - أن يؤدّي ذلك والعياذ بالله إلى سلب ولاية أهل البيت عليهم السلام ممّن يقع فيهم

ويطعن عليهم، لاسيما لو كان معلناً بذلك، وفي ضمن ما يسلب منه عقيدته في الإمام الحجّة أرواحنا لتراب مقدمه الفداء.

السبب السابع: الجهل والاستنكاف:

فإنّ من أخطر الآفات التي تهدّد عقيدة المسلم أن تجتمع فيه هاتان الخصلتان، لأن الجهل يجعله عرضةً لتضليل المضلّين الذين يستهدفون الجهلة من الناس فيما يطرحونه من شبهات، لعلمهم بعدم قدرتهم على دفعها بعد عدم تسلّحهم بسلاح العلم الذي به حصراً تدفع كلّ شبهة، وبالتالي فليس بمقدور الجاهل دفعها ما لم يستعن بأهل العلم، لكن الاستنكاف يمنعه من ذلك، فتستولي الشبهات على قلبه حتى يضلّ عن سواء الصراط والعياذ بالله.

ومن الواضح أنّ معالجة الجهل إنّما تكون بالتعلُّم، والتعلُّم يتوقّف على ترك الاستنكاف، وإلى هذا المعنى أشار أمير الحكماء وحكيم الأمراء علي بن أبي طالبٍ عليه السلام فيما روي عنه أنّه قال: «قِوَام الدنيا بأربعة: عالم مستعمل علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلّم، وجواد لا يبخل بمعروفه، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه، فإذا ضيّع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلّم، وإذا بخل الغنيّ بمعروفه باع الفقير آخرته بدنياه...»[٢٢].

ويمكن معالجة الاستنكاف ومحاربته من جبهتين ومحورين:

أحدهما: التفكير في عواقب الجهل، وأخطرها الضلال والانحراف عن دين الله تعالى.

ثانيهما: إزاحة موجب الاستنكاف من خلال التعرُّف على مكانة العلم والعالم والمتعلّم في مقابل حال الجاهل، كما دلّت عليها جملة من الروايات، من قبيل:

١ - ما رواه أبو إسحاق السبيعي،

عمّن حدّثه ممن يوثق به، قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «إنّ الناس آلوا بعد رسول الله صلى الله عليه وآله إلى ثلاثة، آلوا إلى عالمٍ على هدى من الله قد أغناه الله بما علم عن علم غيره، وجاهلٍ مدّع للعلم لا علم له معجب بما عنده، قد فتنته الدنيا، وفَتَن غيره، ومتعلّمٍ من عالمٍ على سبيل هدى من الله ونجاة، ثم هلك من ادّعى، وخاب من افترى»[٢٣].

٢ - ما رواه جميل، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: سمعته يقول: «يغدو الناس على ثلاثة أصناف: عالم، ومتعلم، وغثاء، فنحن العلماء، وشيعتنا المتعلّمون، وسائر الناس غثاء»[٢٤].

٣ - ما رواه القدّاح، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى به، وإنّه يستغفر لطالب العلم من في السماء ومن في الأرض حتى الحوت في البحر، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر، وإنّ العلماء ورثة الأنبياء، إنّ الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً، ولكن ورّثوا العلم، فمن أخذ منه أخذ بحظٍ وافر»[٢٥].

هذه جملة من الأسباب التي يمكن أن تقف وراء تزلزل العقيدة المهدوية أو زوالها والعياذ بالله لدى بعضهم، وقد عرفت مناشئها، وكيفية التغلُّب عليها، لتحصين عقيدتك في الإمام المهدي صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين المعصومين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سادة خلقه محمد وآله الطاهرين.

الهوامش:

(١) الظاهر وجود سقط في سند الرواية وأنّ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام يرويها عن أبيه جعفر بن محمد عليه السلام، بقرينة ما سيأتي من قوله عليه السلام: «يا بنيّ»، ولو كان المخاطَب فيها علي بن جعفر لقال له: يا أخي، ويؤكّده أنّ

السابع هو نفسه الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، فلو كان الحديث حديثه لقال: الخامس من ولدي، وهذا بخلاف ما لو كان حديث أبيه عليه السلام، إذ له أن يعبّر بهذا التعبير، كما له أن يقول: الخامس من ولد ابني.

(٢) الكافي: ج١، ص٣٣٦، ح٢.

(٣) أبو عبد الله كنية المفضَّل بن عمر، فلا تغفل.

(٤) الكافي: ج١، ص٣٣٦، ح٣.

(٥) من وصايا شيخنا الأستاذ الشيخ الايرواني (دامت إفاضاته) التي يردّدها بين الفينة والأخرى كلّما دعت إليها مناسبة قوله: (علينا ـ دائماً ـ أن نلوذ بالله تعالى).

(٦) الكافي: ج٢، ص٤١٨، ح٢.

(٧) الكافي: ج٢، ص٥٢٢، ح٢.

(٨) تفسير العياشي: ج٢، ص٩، ح٧.

(٩) معاني الأخبار: ص١٦٠، (باب: معنى الجهاد الأكبر)، ح١.

(١٠) المصدر السابق، بلا ترقيم للحديث، وكان ينبغي إعطاؤه رقم٢.

(١١) كمال الدين: ج٢، ص٥٢٣، ب٤٦، ح١.

(١٢) كمال الدين: ج٢، ص٥٢٣، ب٤٦، ح٣.

(١٣) ضعفه من جهتين: الأولى: جهالة محمد بن يوسف التميمي الراوي عن الإمام الصادق عليه السلام. الثانية: استبعاد روايته عن الإمام الصادق عليه السلام بلا واسطة، إلّا أن يكون من المعمَّرين، فيحتمل احتمالاً معتدّاً به سقوط واسطة بينه وبين الإمام عليه السلام، فيكون ذلك موجباً لانقطاع السند.

(١٤) عمره الشريف في عامنا هذا – وهو سنة ١٤٤٣ للهجرة –: ألف سنة ومائة وثمانية وثمانون ١١٨٨ سنة بناء على أنّه عجل الله فرجه ولد سنة ٢٥٥هـ.

(١٥) كذا، ولعلّ الصحيح: بل.

(١٦) كمال الدين: ج٢، ص٣٥٢، ب٣٣، ح٥٠.

(١٧) في العدد ١١/جمادى الآخرة ١٤٤٢هـ ـ كانون الثاني ٢٠٢١م.

(١٨) كمال الدين: ج١، ص٣٢٤، ب٣١، ح٩.

(١٩) كمال الدين: ج٢، ص٣٥٢، ب٣٣، ح٥٠.

(٢٠) مصباح الزائر: ج١، ص٤٥٥.

(٢١) كمال الدين: ج٢، ص٥١٢، ب٤٥، ح٤٣.

(٢٢) نهج البلاغة ٤: ٨٨، من الخطبة ٣٧٢.

(٢٣) الكافي: ج١، ص٣٣، باب (أصناف الناس)، ح١.

(٢٤) الكافي: ج١، ص٣٤، باب (أصناف الناس)، ح٤.

(٢٥) الكافي: ج١، ص٣٤، باب (ثواب العالم والمتعلم)، ح١.

لطيف عبد النبيّ يونس

باحث وكاتب من العراق

العقيدة المهدويَّة في ضوء فلسفة التأريخ وحتميَّة السنن التاريخيَّة

تمهيد:

التاريخ يُمثِّل حركة الحياة الإنسانية، ويُمثِّل الحضارة البشرية بأجمعها، فالتعرّف عليه يُعَدُّ ضرورةً ملحَّةً لفهم الكثير من المصطلحات والمفاهيم الإنسانية، ومن خلاله تظهر أسئلة كثيرة ومهمَّة قد تصل لحدِّ الخطورة، لاسيّما في المعارف الضرورية والاعتقادات والمبادئ والقيم، ومن هنا تأتي التساؤلات:

هل أنَّ العقيدة المهدوية بذاتها مسألة تاريخية؟ وهل يمكن فهمها من خلال التأريخ؟ وهل التأريخ بسننه حاكم على العقيدة المهدوية، أم أنَّ العقيدة المهدوية هي الحاكمة على التأريخ وسننه؟ وكيف نفهم العقيدة المهدوية في ضوء علم التأريخ وفلسفته؟

ثمّ تصل بنا معارج البحث إلى محور معرفي مهمّ، وهو التأريخ التوحيدي وعلاقته بالعقيدة المهدوية، وذلك من خلال إلقاء الضوء على بعض الشخصيات

التوحيدية (الأنبياء عليهم السلام) لنحصل على تلك العلاقة الذاتية والموضوعية، وفي انعطافة معرفية معاصرة ندخل في بحث مقارن بين أهمِّ أربعة كتب صدرت في العقد الأخير أثارت نقاشاً حادّاً في المجال المعرفي المعاصر تناولت الحتمية التاريخية لنهاية العالم والتصدّع الاجتماعي للمجتمع الغربي، وهي: (نهاية التاريخ)، و(الرجل الأخير)، و(التصدّع العظيم) للمفكِّر والكاتب الأمريكي (فرانسيس فوكوياما)، و(صراع الحضارات) للكاتب الأمريكي (صموئيل هنتغتون)؛ وبين العقيدة المهدوية وبما تُمثِّله من حتمية تاريخية للمسيرة الإنسانية.

ونصل في خاتمية البحث إلى حتمية ختم التاريخ في ضوء علامات الظهور.

أوَّلاً: الفرق بين علم التاريخ وفلسفة التاريخ:

علم التاريخ:

التاريخ لغةً: هو معرفة الوقت أو الإعلام بالوقت.

قال الجوهري في صحاحه[1]: (التاريخ: تعريف الوقت، والتوريخ مثله، يقال: أرَّخت وورَّخت).

واصطلاحا - كما عبَّر ابن خلدون في مقدّمته[2]-: (التاريخ في ظاهره لا يزيد عن الأيّام والدول والسوابق من القرون الأُوَل، تنمو فيها الأقوال وتُضرَب فيها الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصَّها الاحتفال، وتؤدّي لنا شأن الخليقة كيف تقلَّبت بها الأحوال، واتَّسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتَّى نادى بهم الارتحال وحان منهم الزوال، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها).

وعُرِّف بأنَّه: (الإخبار عمَّا حدث في العالم في الزمان الماضي)[3].

أمَّا فلسفة التاريخ:

فعرَّفها (دوركهايم): (تبحث في تحديد الاتِّجاه العامّ لتطوّر الإنسانية

وإيجاد قانون لحركة الحياة البشرية في خطوط دائرية أو مستقيمة)[٤].

وعرَّفها الدكتور حسن سلمان[٥] بأنَّها معرفة التحوّلات والتطوّرات التي تنقل المجتمع من مرحلة إلى أُخرى، ومعرفة القوانين المحكمة في هذه التطوّرات والتحوّلات.

فعلم التاريخ بمفرده علم مستقلّ، وبمجموعه يدخل في نطاق الفلسفة، فالمؤرِّخ إنَّما يُؤرِّخ للذين دخلوا التاريخ ولعبوا فيه وحرَّكوا مساره، سواء دخلوا التاريخ للإفساد كفرعون وهتلر وستالين، أو دخلوا التاريخ للإصلاح كما فعل الأنبياء والمصلحون[٦].

علم التاريخ: هو سجّل الزمن للأحداث والشخصيات والأُمم.

وفلسفة التاريخ: هي معرفة الجامع للأحداث والحضارات وتحليلها، ومعرفة قوانينها وسننها.

ثانياً: الصراع التاريخي بين التوحيد والشرك:

منذ بدء الخليقة عاشت المسيرة الإنسانية صراعاً كبيراً بين التوحيد والشرك، فمنذ أوَّل خلقة بشرية لأبينا آدم وأُمِّنا حوّاء عليهما السلام دار الصراع مع إبليس الذي مثَّل رأس الشرك حيث أشرك بعبادته من خلال إطاعة هوى نفسه ولم يسجد لأبينا آدم عليه السلام حسداً وتكبّراً.

﴿وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى﴾ (طه: ١٢١)، وكانت تلك المحطَّة الثانية من الصراع بين هوى النفس وجهلها مع الأوامر الإلهية فكان الصراع الذاتي، فأُنزِل إلى الأرض لتبدأ مرحلة الشقاء، ﴿يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾ (الانشقاق: ٦).

وقتل قابيل هابيل فكانت محطَّة شرك ثالثة، واستمرَّ الصراع إلى مرحلة تطوّرية أكبر وهي مرحلة أبينا الثاني نوح عليه السلام الذي عاش دعوته بصريح القرآن ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً﴾

(العنكبوت: ١٤).

دعا قومه ليلاً ونهاراً فلم يزدهم إلَّا ابتعاداً وتكبّراً وعصياناً، وبعد يأس أبينا نوح عليه السلام من قومه جاءه القول من الباري (عزَّ وجلَّ): أنَّه لن يؤمن من قومك إلَّا من آمن، فاصنع الفلك بأعيننا فإنَّهم قوم مغرقون، وفار التنّور وسالت الأودية بالماء وارتفعت إلى أعلى من قمم الجبال، فغرق حتَّى ابن نوح لأنَّه كان مشركاً، وبعد ذاك استوت السفينة على الجودي.

ثمّ بدأت مرحلة الصراع مع الجبابرة والطواغيت، فكان خطّ التوحيد متمثِّلاً بأبينا إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل، اللذين خاضا امتحاناً كبيراً عندما رأى إبراهيم في المنام أنَّه يذبح ولده، فامتثل للامتحان ووضع السكّين على نحره ففدي بكبش عظيم، وأقاما البيت الحرام. وخاض إبراهيم عليه السلام الصراع مع النمرود الذي كان يُمثِّل الإله للقوم، وحطَّم أصنامهم، فأرادوا حرقه بنار عظيمة، فأطفأها الله تعالى فقال: (يا نارُ كُوني بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ) (الأنبياء: ٦٩).

وبدأت مرحلة أكثر تطوّراً في الصراع، حيث بدأ موسى عليه السلام بولادة مخفيَّة وغيبة أوَّلية، وكان بين بني إسرائيل وفي بيت فرعون، مخفيَّاً عنوانه، يناصر شيعته الذين ينتظرون ظهوره، حتَّى حدثت الغيبة الثانية، فخرج خائفاً يترقَّب، ووصل إلى شعيب عليه السلام، وعاش مرحلة التربية الروحية والخفاء التامّ عن بني إسرائيل، حتَّى إذا انتهت الغيبة بمدَّتها العشر حجج أذن الله تعالى له في الظهور والصدع بالأمر فقال تعالى: ﴿اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى * فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى﴾ (طه: ٤٣ و٤٤)، وأظهر الآيات العظمى، وانقلب السحرة صاغرين فآمنوا، وانتقم فرعون منهم لأنَّهم آمنوا بإله موسى عليه السلام، فانتقم الله (عزَّ وجلَّ) منه، فكما ألقى وليَّه في اليمِّ

ليُنجيه ألقى فرعون في اليمِّ ليهلكه.

والتقى موسى بالعبد الصالح الخضر عليه السلام وعلم منه ما علم، ليرينا القرآن أنَّ الغيبة سُنَّة من سنن التاريخ للحفاظ على أوليائه، وأيضاً ليعملوا بالخفاء ولينشروا التوحيد ويُعطِّلوا أعمال الظلمة وينصروا المستضعفين، وحتَّى لا تسيخ الأرض بأهلها.

وجاءت مرحلة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، وبدأت بمعجزة الولادة وخفائها، وظهر أمره ونشر التوحيد باسم السلام، وانتشرت المسيحية، ولكن الطواغيت لم يسمحوا للمسيرة أن تكتمل، فأرادوا به كيداً، فرفعه الله (عزَّ وجلَّ) إليه فقال: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران: ٥٥).

وليبقى عيسى عليه السلام منتظراً ذلك اليوم الموعود حيث ينزل إلى الأرض ليُصلّي خلف المهدي من آل محمّد عليهم السلام.

وانتهت مسيرة التوحيد إلى النبيِّ الأعظم محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله، فانتشر التوحيد، وأصبحت للإسلام دولة عدل وتوحيد، أذلَّت جبابرة الكفر وأرغمت أُنوفهم.

فكان سيف علي ومال خديجة وقيادة محمّد صلى الله عليه وآله هي أدوات التوحيد ضدّ الشرك.

ورحل النبيُّ الأعظم محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله بعد أن بذل كلَّ ما في وسعه لنقل الأُمَّة من الجاهلية الصنمية الشركية إلى الأُمَّة التوحيدية العادلة، موصيّاً لها بأن تتَّخذ من علي بن أبي طالب عليه السلام قائداً لها ليكمل المسيرة التوحيدية العادلة..

ولكن! بسبب السقيفة وصعود من لم يكن أهلاً لقيادة الأُمَّة، خسر الإسلام الحكومة التوحيدية العادلة..، وانحرفت الأُمَّة عن منهج التوحيد القرآني وسُنَّة النبيِّ المصطفى صلى الله عليه وآله، واستشهد وصيّ رسول

الله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بعد كلِّ المحاولات في إصلاح ما فسد من أمر أُمَّة رسول الله صلى الله عليه وآله.

وستجد أيّها القارئ العزيز تفصيلاً رائعاً لثلاثية الزمن التاريخي في دعاء الندبة الذي يختزل التاريخ الديني في أزمنته الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل بصورة عجيبة.

التوحيد بين علم التاريخ وفلسفته:

على ضوء علم التاريخ فإنَّ التاريخ الديني بقي يستذكر الشخصيات التوحيدية، فنجد في قصص الأنبياء مثلاً:

سليمان عليه السلام ودولته وما دار فيها من تسخير للجنِّ والطبيعة لأمر سليمان النبيِّ عليه السلام، وكيف أنَّه تحكَّم بكلِّ شيء بما فيها التصرّف في التكوينيات مثل حادثة نقل عرش بلقيس.

وذا القرنين وحكمه للعالم، وكيف أنَّه وصل إلى أماكن بعيدة المنال لغيره مثل المغرب والمشرق، وكيف أنَّه عزل قوم يأجوج ومأجوج عن العالم.

ومن ثَمَّ ذكر التاريخ الديني نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى والنبيَّ الخاتم محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله، وذكر الحوادث التي جرت في حياتهم، والمعارك التي حدثت أُرِّخت وللأسف بشكل محرَّف بسبب تولّي بعض الحكومات الفاسدة التي أرادت تحريف الحقائق وتزييفها، وأدخلت عليها الإسرائيليات فأصبحت في بعض الأحيان أُسطوريات أكثر ممَّا هي وقائع تاريخية، والأُمَّة الإسلاميَّة امتلكت هذا التاريخ الديني والذي هو علم التاريخ الإسلامي، وتعاملت معه على أنَّه حقائق مقدَّسة لا يجب مسّها بأيِّ صورة من الصور.

القرآن ومنهج فلسفة التاريخ:

أمَّا فلسفة التاريخ فنجدها واضحة في المنهج القرآني، من خلال قصصه وآياته الكريمة، والتي كانت صريحة

وواضحة لمن يتدبَّر القرآن.

وهذه جملة من الآيات التي تُبيِّن بعض السنن التاريخية:

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠).

﴿وَإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلاً * سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلاً﴾ (الإسراء: ٧٦ و٧٧).

﴿فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً * اسْتِكْباراً فِي الْأَرضِ وَمَكْرَ السَّيِّءِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾ (فاطر: ٤٢ و٤٣).

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرضِ فَانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٧).

﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ (المائدة: ٦٦).

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرضِ وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦).

أساليب القرآن في بيان سنن التاريخ:

١ - بيان الفكرة الكلّية لسنن التاريخ: وهنا يُبيِّن القرآن أنَّ هناك سنناً تتعلَّق بالفرد وهناك سنناً تتعلَّق بالمجموع، فكما أنَّ هناك أجلاً للفرد فهناك أجل للأُمَّة بمجموعها، كما في بعض الآيات الآنفة، وهذه السنن كما تشمل السيّئين كذلك تشمل الأخيار، بل حتَّى المعصوم عليه السلام، كما في قتل الإمام الحسين عليه السلام ويحيى عليه السلام من قِبَل الطواغيت.

٢ – بيان السنن من خلال المصاديق: فالآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللهِ وَلَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأنعام: ٣٤)، تعطي نموذجاً لما سبق من الأُمم وأنبيائهم وتربطه بحياة النبيِّ ﷺ.

٣ – الحثُّ على التأمّل في أحداث التاريخ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكافِرِينَ أَمْثالُها﴾ (محمّد: ١٠)، فنجد المنهج القرآني يحكي التوحيد عبر علم التاريخ وفلسفة التاريخ من خلال تعبيراته الرائعة، فيقول: ﴿لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ (يوسف: ١١١)، ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها﴾ (محمّد: ٢٤).

من خلال ما تقدَّم نجد القرآن طرح القصص ليُبيِّن التوحيد وصراعه مع الشرك، فبيَّن:

١ – شخصيات التوحيد وفي قبالها شخصيات الشرك.

٢ – حلَّل النفسية الواقعية للشخصيات التوحيدية وطريقة تعاملها مع الأُخر ومع الطبيعة وأخلاقياتها وأدواتها المعرفية والاستدلالية وأدلَّتها المنطقية.

٣ – حلَّل النفسية الواقعية للشخصيات الشركية وطريقة تعاملها مع الإنسان ومع الطبيعة وأخلاقياتها وأدواتها المعرفية.

٤ – حلَّل النفسية الواقعية للمجتمعات التي تخلَّلت الصراع، وعدَّد طبقات المجتمع، وقام بعرض كلَّ ما يمرُّ به المجتمع المؤمن بدقَّة وحكمة عالية، بحيث يجد المتتبّع نفسه متأثِّراً بالصورة الفنّية العالية لحدِّ الانفعال العاطفي الموصل إلى قضيَّة التولّي والتبرّي، وهو الهدف المنشود من القصص القرآني.

٥ – بيَّن المنهج القرآني أنَّ هناك سنناً تاريخية تحكم المجتمعات وتحكم

التاريخ، وهنا تكمن فلسفة التاريخ؛ فإنَّ فهم سنن التاريخ يعني فهم فلسفة التاريخ، وبالتالي الاستفادة من حوادث التاريخ بعد تحليلها، وأخذ العبر منها، وهذا ما عبَّر عنه القرآن: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ (يوسف: ١١١).

ولعلَّنا نشير إلى بعض السنن التاريخية التي تُعتَبر مدخلاً مهمَّاً لموضوعنا، وهي التالي:

أوَّلاً: سُنَّة حتمية الصراع، فمن خلال القصص القرآني نجد أنَّ الصراع قائم منذ بدء الخليقة إلى حين ظهور الإمام المهدي عليه السلام.

ثانياً: سُنَّة الجعل الإلهي للأنبياء والأوصياء والعباد الصالحين، والمعبَّر عنها بسُنَّة الاستخلاف الإلهي، فهؤلاء عَهَدَ الله إليهم بأدوار مهمَّة وخطيرة، ومنهم العباد الصالحون مثل العبد الصالح الخضر عليه السلام وذي القرنين وطالوت الملك في زمن النبيِّ داود عليه السلام، بل حتَّى النساء مثل الصدّيقة مريم عليها السلام، وليس كما يذهب البعض إلى أنَّ الأُمَّة هي التي تُعيِّن القادة للأُمَّة.

ثالثاً: إنَّ العصمة هي سُنَّة إلهية يهبها الله (عزَّ وجلَّ) لمن يشاء على أساس الحكمة الإلهية والعلم الإلهي.

رابعاً: إنَّ حتمية الصراع في نهايته مكفولة بالنصرة لأولياء الله (عزَّ وجلَّ) حتَّى وإنْ قُتِلوا في سبيل الله، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (غافر: ٥١).

خامساً: سُنَّة خفاء الولادة للأنبياء عليهم السلام، كما في خفاء ولادة النبيِّ موسى عليه السلام والنبيِّ عيسى عليه السلام.

سادساً: سُنَّة الغيبة، المعبَّر عنها بخفاء العنوان، وهذه واضحة في الكثير من القصص القرآني، ونذكر في ما يلي كنماذج واضحة ولا لبس فيها على الغيبة:

أوَّلاً: غيبة موسى عليه السلام، فقد كان في بيت فرعون وبين بني إسرائيل، ولكن

لم يُعرَف بأنَّه هو النبيُّ الموعود الذي سوف ينهي دولة فرعون، وكان فرعون يعلم بهذه النبوءة، فكان يقتل الذكور من بني إسرائيل ويستحيي النساء.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (الأعراف: ١٤١).

وكانت هذه غيبة صغرى، وكانت هناك غيبة كبرى تامَّة عندما هرب إلى النبيِّ شعيب عليه السلام فلم يرَه بنو إسرائيل ولا فرعون.

ثانياً: غيبة العبد الصالح الخضر عليه السلام حيث لم يكن يعلم بوجوده وأدواره حتَّى النبيّ موسى عليه السلام، فأخبره الله (عزَّ وجلَّ) من خلال علامتين وهما: السمكة وسريانها في البحر، ورجل نائم على الأرض في مجمع البحرين، وكان الخضر عليه السلام يعمل في الخفاء، ولولا القرآن لم يعلم أحد به أبداً.

ثالثاً: غيبة النبيِّ يوسف عليه السلام، فقد غاب لسنين في بلاد مصر حتَّى أنَّ أباه يعقوب عليه السلام لم يعرف بحاله، وإخوانه يرونه ولا يعرفونه، وقام بنشر التوحيد في بلاد مصر، ومن ثَمَّ أمره الله (عزَّ وجلَّ) بالظهور لإخوانه وأبيه عليه السلام.

رابعاً: هناك غيبات لأنبياء الله (عزَّ وجلَّ) ذكرتها النصوص المعصومية مثل غيبة نبيِّ الله نوح عليه السلام وإدريس عليه السلام وغيرهم.

العقيدة المهدوية بين علم التاريخ وفلسفته:

كما أنَّ التاريخ الديني يُنظَر إليه من خلال علم التاريخ وفلسفته، كذلك العقيدة المهدوية يُنظَر إليها من خلال علم التاريخ وفلسفته باعتبارها:

١ - الامتداد العقدي والروحي للإسلام، فهي منبثقة من التوحيد والعدل الإلهي والنبوَّة.

٢ - كونها متمِّمة للأدوار الإلهية

لقادة التوحيد في قيام دولة التوحيد والعدل الكبرى التي هي هدف البرنامج الإلهي، ﴿إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، لعمارة الأرض من خلال الحكومة الإلهية.

٣ – كونها مرتبطة بالمعاد من جهة الثواب والعقاب لمن عمل بها أو تركها متعمِّداً.

٤ – وكونها الحلُّ الأخير والنهائي للمشكلة البشرية بعد تهافت كلّ النظريات الوضعية، لأنَّه من غير الممكن أن تُترَك البشرية بدون حلٍّ إلهي، وهذا يُعتَبر خلاف الحكمة الإلهية وخلاف العدل الإلهي.

٥ – كونها الضمانة الحقيقية لإيصال البشرية إلى سعادتها وكمالاتها المعرفية والروحية والمادّية.

٦ – كونها مظهرة لكلِّ الأسماء والصفات الإلهية الجمالية والجلالية في عالم الوجود الإمكاني، والذي يُحقِّق الحديث القدسي: «كنت كنزاً مخفيّاً فأحببت أن أُعرَف فخلقت الخلق لكي أُعرَف)[٧].

أمَّا نظرتنا للعقيدة المهدوية من خلال علم التاريخ، فإنَّنا نجد أنَّ هناك كمَّاً هائلاً من الروايات والنصوص المهدوية، والتي بلغت المئات بل الآلاف من الروايات شرحت أبعادها.

فعلم التاريخ أوجد لدينا ما يلي:

١ – النصوص الدينية التوراتية والإنجيلية، والنصوص التابعة للشرائع الأرضية كالزرادشتية والهندوسية والبوذية وغيرها، ممَّا يخصُّ المنقذ ودولته العالمية.

٢ – النصوص المهدوية الصادرة عن النبيِّ الأعظم ﷺ.

٣ – النصوص المهدوية الصادرة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام.

٤ – النصوص الصادرة عن أصحاب النبيِّ الأعظم ﷺ.

٥ – النصوص الصادرة عن عامَّة المفكّرين والعلماء الإسلاميّين.

٦ – ولادة الإمام المهدي عليه السلام، وكلام النسّابة في ذلك.

٧ – النصوص الصادرة عن الإمام المهدي عليه السلام في زمان غيبته الصغرى، والتي تُسمّى بالتوقيعات المباركة، والتي وصل إلينا منها أكثر من سبعين توقيعاً في مختلف الموضوعات الفقهية والعقائدية.

٨ – القصص التي تُؤكِّد لقاءات الإمام المهدي عليه السلام بالمؤمنين من العلماء وعامَّة الناس وحتَّى غير المؤمنين.

هذا الكم الهائل من النصوص هو مدخل لدراسة العقيدة المهدوية من خلال فلسفة التاريخ من خلال التحليل والاستقراء والاستنتاج المنطقي والعقلي.

فلسفة التاريخ والعقيدة المهدوية:

قلنا سابقاً: إنَّ للتاريخ سنناً تحكمه، وبيَّنا تلك السنن من خلال المنهج القرآني، وهنا تكمن فلسفة التاريخ، ومن أهمِّ هذه السنن هي:

سُنَّة حتمية الصراع بين الحقِّ والباطل، بين العدل والظلم، بين الشرك والتوحيد.

وسُنَّة حتمية انتصار الحقِّ على الباطل، وانتصار العدل على الظلم، وانتصار التوحيد على الشرك بأنواعه.

وهذه السنن تقريباً هي عقلية إنسانية يشترك فيها الإنسان بشتّى أنواعه إذا رفعنا التوصيف الخاصّ بالوصف الديني وهو التوحيد.

الآن ننتقل إلى اتِّجاه آخر وتفسيره للتأريخ فلسفةً وتكاملاً.

الاتّجاه الديالكتيكي أو الآلي في تفسير تكامل التاريخ:

أوَّلاً: تكامل الطبيعة:

يفهم هذا الاتِّجاه التطوّر في الطبيعة على أنَّه نتاج الصراع بين المتناقضات، ويتمُّ وفق الخطوات الأربع التالية:

١ – إنَّ الطبيعة في حركة مستمرَّة دؤوبة، فهي لا تعرف السكون مطلقاً،

ولا تعيش الثبات.

٢ - تترابط أجزاء الطبيعة بشكل وثيق، فكلُّ جزءٍ منها يتأثَّر بالأجزاء الأُخرى ويُؤثِّر فيها، ولذلك عندما تُدرَس الطبيعة، فلا بدَّ أن تُدرَس أجزاؤها على أنَّها مترابطة غير مفكَّكة أو مجزَّأة.

٣ - تنشأ الحركة في الطبيعة بسبب صراع المتناقضات، ويُشكِّل هذا الصراع أساس كلّ تطوّر، ويتمُّ على الشكل التالي: تتَّجه كلُّ ظاهرة طبيعية تلقائياً نحو نقيضها، يأخذ النقيض في النموِّ شيئاً فشيئاً بحيث يصبح قادراً على مواجهة تلك الظاهرة، هكذا ينشب الصراع بينه وبينها؛ فالظاهرة تريد الحفاظ على نفسها والنقيض يريد أن يُبدِّلها.

٤ - يشتدُّ الصراع بين الظاهرة ونقيضها، ويستمرُّ إلى أن يبلغ ذروته، ثمّ تحدث ثورة تنتهي لصالح النقيض المتمثِّل بالقوى الجديدة على حساب الظاهرة والقوى القديمة. وهكذا تتبدَّل الظاهرة بنقيضها الذي كانت تتَّجه تلقائيَّاً نحوه، في المرحلة اللاحقة ينشب صراع جديد بين هذا النقيض ونقيض آخر فيتحوَّل إليه، ونفي النفي هذا نوع من التركيب، تتواصل به حركة المجتمع والتاريخ بشكل حتمي وجبري ويحصل التكامل، وهكذا...

والخلاصة أنَّه وفقاً لهذه النظرية هناك أصل، يمكن أن نُسمّيه (الأُطروحة)، ينقلب إلى نقيضه (الطباق)، فيما بعد يأتلف النقيضان ليشكّلا تركيباً واحداً (التركيب). ثمّ يصير هذا التركيب أصلاً و(أُطروحةً) جديدةً تطوي المراحل نفسها...، وثلاثي (الأُطروحة، والطباق، والتركيب) هو المسمّى بحسب أصحاب هذا الاتِّجاه بالمثلَّث الهيغلي[٨].

ثانياً: تكامل المجتمع والتاريخ:

يعتبر هذا الاتِّجاه أنَّ العامل الأساس الذي يُشيِّد المجتمع، والسبب الرئيس الذي يؤدّي إلى الحركة فيه وبالتالي إلى تكامله، هو العمل الإنتاجي وتطوّر آلات الإنتاج، فبحسب المنظِّرين لهذا الاتِّجاه أنَّ العامل الاقتصادي هو أساس حياة البشرية، هو الذي يخلق علاقةً بين الأفراد تنبثق عنها مجموعة العلاقات الأُخرى، كالعلاقات الاجتماعية والسياسية، ولذا قيل: إنَّ الاقتصاد هو الذي يُشكِّل البناء التحتي للمجتمع، الذي يؤدّي تغيّره إلى تغيّر كلّ الأبنية الفوقية.

ويتمُّ التطوّر والتكامل في المجتمع والتاريخ وفق الخطوات التالية:

- يُشكِّل التاريخ جزءاً من أجزاء الطبيعة، ولذا فإنَّه يطوي نفس مراحلها، لكن مع الأخذ بعين الاعتبار أنَّ عناصر المسألة التاريخية هم أفراد البشر، فهو حركة وصراع دائم بين مجموعات فتيَّة جديدة ومجموعات سابقة.

- إنَّ كلَّ جيل جديد من أفراد الإنسان يحمل أفكاراً أكثر تطوّراً تؤدّي إلى زيادة الإنتاج؛ إذ الإنسان مزوَّد بالقدرة على تطوير آلات الإنتاج.

- توجِد أفكارُ القوى الفتيَّة الحديثة علاقات اقتصادية جديدة تنبعث منها علاقات اجتماعية.

- تنمو هذه القوى وتصبح قادرة على الوقوف بوجه القوى القائمة. تنشب صراع بين الفريق الرجعي، وقوامه تلك القوى التي ترتبط مصالحها بالوضع الاقتصادي القديم، والتي ترى ضرورة بقاء الأوضاع على ما هي عليه، وبين الفريق التقدّمي الذي يتشكَّل من القوى الفتيَّة بوسائلها الإنتاجية المتطوّرة، وترتبط مصالحها بنظام اقتصادي جديد.

- يشتدُّ هذا الصراع ويحتدم ليبلغ ذروته، فتحدث ثورة يتبدَّل فيها المجتمع بزوال وفناء النظام القديم

وحلول النظام الجديد، وهكذا يكون هناك تأثير متبادل بين الإنسان والآلة، الإنسان يخلق الآلة، والآلة تخلق الإنسان الجديد، فيما بعد تطوي هذه المرحلة الجديدة المسيرة نفسها، لتتواصل مراحل التاريخ، وهكذا...

نتائج الاتّجاه الآلي في تفسير تكامل التاريخ:

١ - مفهوم القديم والجديد بحسب هذا التفسير:

أمَّا العلاقات الثقافية والاجتماعية وما شابه، فإنَّها تنبثق من العلاقات الاقتصادية، فإنَّ محتوى التفكير الاجتماعي للأفراد يتكوَّن من خلال مكانتهم الطبقية وظروفهم الاقتصادية.

٢ - التسلسل المنطقي للتاريخ:

تتسلسل المراحل التاريخية بشكل منطقي جبري، كأيِّ عنصر طبيعي آخر، فالتاريخ يَعبُر مراحلَه بالترتيب ولا يمكنه القفز فوق أيّ مرحلة؛ فكما أنَّ النطفة لا يمكن أن تصير مضغة دون أن تمرَّ بمرحلة تكوّنها علقة، كذلك الرأسمالية مثلاً مرحلة تاريخية تتوسَّط مرحلة الإقطاع ومرحلة الاشتراكية، فمن المستحيل أن ينتقل المجتمع من الإقطاع إلى الاشتراكية دون أن يمرَّ بالرأسمالية.

٣ - وصول كلّ مرحلة إلى ذروتها:

من الضروري أن تبلغ كلُّ مرحلة من المراحل ذروتها لتنتقل إلى مرحلة جديدة أُخرى. فانتظار مرحلة مقبلة دون أن تبلغ المرحلة الراهنة ذروتها يشبه انتظار الولادة قبل أن تطوي النطفة مراحل الجنينية، فهذه في الواقع محاولة إجهاض لا ولادة[٩]! وعلى هذا الأساس فإنَّ الديالكتيكية تؤمن بالتكامل الطبيعي أو التاريخي للبشرية.

يقول فرانسيس فوكوياما في كتابه (نهاية التاريخ والرجل الأخير)[١٠]:

(يبدو أنَّه قد ظهر توافق مدهش في السنوات الأخيرة يتعلَّق بالديمقراطية

الليبرالية كنظام حكم، لأنَّها اقتصرت على الإيديولجيات المنافسة – كالنظام الملكي الوراثي والفاشية وأخيراً الشيوعية –، لقد أشَّرت فضلاً عن ذلك إلى أنَّ الديمقراطية الليبرالية بإمكانها أن تُشكِّل فعلاً (منتهى التطوّر الإيديولوجي للإنسانية) و(الشكل النهائي لأيِّ حكم إنساني)، أي إنَّها من هذه الزاوية (نهاية التاريخ)، فبينما كانت أشكال الحكم القديمة تتميَّز بأخطاء خطيرة وتناقضات لا يقبلها العقل أدَّت إلى انهيارها، فإنَّه بالإمكان الادِّعاء أنَّ الديمقراطية الليبرالية كانت خالية من هذه التناقضات الأساسية، لا يعود ذلك لكون الديمقراطيات الثابتة اليوم كمثل فرنسا والولايات المتَّحدة وسويسرا لم تعرف المظالم ولا المشاكل الاجتماعية الخطيرة، ولكن لأنَّ هذه المشاكل كانت تنجم عن التطبيق غير الكامل لمبدئي الحرّية والمساواة اللذين هما الركيزتان لأيَّة ديمقراطية حديثة وليس من هذين المبدئين بالذات، وقد تفشل بعض البلدان الحديثة في إقامة الديمقراطية الليبرالية، وقد يقع بعضها في أشكال بدائية للحكم مثل الثيوقراطية أو الديكتاتورية العسكرية).

نستنتج من خلال ذلك أنَّ العقيدة الماركسية تؤمن بالجبرية التاريخية من خلال نظرية التضادّ الوجودي، بينما النظرية الغربية تؤمن بالنظرية الاختيارية للتاريخ، وأنَّ الإنسان وحده يصنع التاريخ ويصيغه وفق سننه الخاصَّة، نعم من الممكن أن توجد سنن تاريخية ولكن من الممكن جدَّاً تغيير تلك السنن، وبعيداً عن تدخّل البعد الغيبي، وهذا ما ترفضه العقيدة المهدوية كما سنُبيِّن ذلك.

الصيغة الثلاثية والصيغة الرباعية لعناصر المجتمع في حركة الصراع التاريخي:

يقول السيِّد الشهيد محمّد باقر الصدر في كتابه (المدرسة القرآنية)[11]:

ما هي مقوّمات المركَّب الاجتماعي؟ وكيف يتمُّ التركيب بين هذه العناصر والمقوّمات؟ وضمن أيّ إطار؟ وأيّة سنن؟ هذه الأسئلة نحصل على جوابها في النصِّ القرآني الذي تحدَّث عن خلق الإنسان الأوَّل: ﴿وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرضِ خَلِيفَةً قالُوا أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠).

هناك ثلاثة عناصر يمكن استخلاصها من العبارات القرآنية:

أوَّلاً: الإنسان، ثانياً: الطبيعة، ثالثاً: العلاقة المعنوية التي تربط الإنسان بالأرض (الطبيعة) وبالإنسان، وهي تُسمّى قرآنياً بالاستخلاف، وهي العنصر المرن والمتحرِّك في المعادلة الاجتماعية.

لهذه العلاقة صيغتان:

رباعية: وهي افتراض طرف رابع في المركَّب، وهذا الطريف ليس داخلاً في إطار المجتمع ولكنَّه مقوِّم لها وهو الله تعالى، وهذا هو الطرح القرآني المسمّى بالاستخلاف، فالله (عزَّ وجلَّ) هو المستخلِف (بكسر الخاء)، والإنسانية المستخلَفة (بفتح الخاء)، والمستخلَف عليه هو الأرض (الطبيعة) وما عليها، فالاستخلاف بمعنى أنَّ الطبيعة أمانة بيد الإنسانية وهو محاسب عليها، ولذلك قبلها الإنسان وهي في فطرته: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (الأحزاب: ٧٢).

إنَّ إضافة بعد رابع وهو الله (عزَّ

وجلَّ) ليس إضافة عددية، بل هو نوعية تُغيِّر من الحركة الجوهرية للإنسانية، وبالتالي تُغيِّر مجرى التاريخ.

وهناك الصيغة الثلاثية: وهي تجريد المركَّب النظري من البعد الرابع وهو الله (عزَّ وجلَّ)، ووجدت هذه العلاقة عبر التاريخ من خلال سيادة الإنسان على أخيه الإنسان وكذلك الملكية، هذه الصيغة الثلاثية تعني لا يوجد قيِّم على العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان وبين الإنسان والطبيعة إلَّا ضمير الإنسان نفسه. وقد جرَّبت الإنسانية في مسيرتها كيف كان ضمير الإنسان، وما جرَّ هذا الضمير من الويلات والحروب على البشرية، وكيف استغلَّ ثروات الطبيعة وكأنَّها ملك خاصّ له.

ومن هنا، فإنَّ المحتوى الداخلي للإنسان هو المحرِّك للتاريخ على ضوء السنن الإلهية، ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

فهذا المحتوى الداخلي للإنسانية والبناء الداخلي لها المتكوِّن من: الفكر والإرادة، وهما يُجسِّدان الغايات التي تُحرِّك التاريخ. وهذا المحتوى الداخلي مرتبط بالمثل الأعلى الذي تتمحور حوله الغايات، فبقدر ما يكون المثل الأعلى صالحاً وعالياً كلَّما تكون الغايات صالحة وممتدَّة، وبقدر ما يكون هذا المثل الأعلى محدوداً كلَّما تكون الغايات المنبثقة منه محدودة.

وعلى هذا الأساس المتقدِّم فإنَّ العقيدة المهدوية تعتمد على المركَّب النظري القرآني في إيجاد العدل من خلال استخدام السنن التاريخية التي تنسجم مع المثل الأعلى القرآني وهو الله (عزَّ وجلَّ)، فالعقيدة المهدوية تؤمن:

١ - بالله (عزَّ وجلَّ)، باعتباره الحيّ القيوم، والخالق والمدبِّر لجميع الأُمور.

٢ - الإنسان المتعلّق بالإله عبر نائبه الإمام المهدي عليه السلام، باعتباره المستخلف على الإنسان والطبيعة.

٣ - الإنسانية: وهي المجتمع الأرضي الذي هو موضوع الاستخلاف والمساعد في إرساء العدالة الإلهية.

٤ - الطبيعة (الأرض) وهي أمانة بيد الإنسان حتَّى تتوزَّع الموارد الطبيعية بالسويَّة.

الإمام المهدي عليه السلام هو وراث خطّ الأنبياء عليهم السلام:

نقرأ في زيارة الإمام الحسين عليه السلام المعبَّر عنها بزيارة وارث: «السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله...»، فالإمام الحسين عليه السلام هو وارث الأنبياء جميعاً، وكلُّ إمام من أئمَّة أهل البيت عليهم السلام هو وارث لخطِّ الأنبياء، فيكون الإمام المهدي عليه السلام الوارث للأنبياء جميعاً، وهو الخاتم للأوصياء، وبيده مواريث الأنبياء.

والوراثة تعني: امتلاك كلّ الخصائص الإلهية التي تمتَّع بها الأنبياء والأوصياء من معارف وطاقات روحية لإدارة الصراع مع الباطل، إنَّه يعمل وفق السنن التاريخية الإلهية ليقوم بتوجيه التاريخ وتعديل مساره نحو تحقيق العدالة الاجتماعية.

المحتوى الداخلي للإنسان المهدوي وتأثيره في المسار التاريخي:

في هذه الكلمات سوف نجيب عن سؤال مهمّ، وهو: هل أنَّ العقيدة المهدوية جزء من فلسفة التاريخ أم هي عامل مؤثِّر في فلسفة التاريخ؟

بدأ الرسول صلى الله عليه وآله في صناعة الإنسان والمجتمع المهدوي منذ بداية دولته المباركة، ومنذ أن عرف أنَّ هناك انحرافاً سيصيب الأُمَّة يُبعِدها عن الخطِّ الرسالي والإلهي، فلا بدَّ من التأسيس لإنشاء إنسان المجتمع المهدوي. وهذه جملة من الأحاديث النبوية الشريفة في هذا المجال:

ورد في صحيح أبي داود[١٢] عن عبد الله، عن النبيِّ صلى الله عليه وآله، قال: «لو لم يبقَ من الدنيا إلَّا يوم لطوَّل الله ذلك

اليوم حتَّى يبعث فيه رجلاً منّي...».

وفي حديث سفيان: «لا تذهب أو لا تنقضي الدنيا حتَّى يملك العرب رجل من أهل بيتي».

وفي نفس المصدر عن علي عليه السلام، عن النبيِّ صلى الله عليه وآله، قال: «لو لم يبقَ من الدهر إلَّا يوم لبعث الله رجلاً من أهل بيتي».

هذه جملة من الأحاديث المرويَّة عن النبيِّ محمّد صلى الله عليه وآله، تُبيِّن أنَّ هناك صناعة للشخصية الإسلاميَّة المهدوية، والتي أصبحت في كلِّ مرحلة تنتظر المهدي وتسأل عنه وتُمهِّد لظهوره الشريف.

وهكذا نشأ المجتمع الذي يعتقد ويؤمن بعقيدة الإمام المهدي عليه السلام، وتطوَّر هذا المجتمع وسط ألوان من العذاب السلطوي الأُموي والعبّاسي وغيرهم، وحتَّى ضحّى برجالاته العظام بما فيهم قادته الأئمَّة الأطهار عليهم السلام، ولكنَّه في كلِّ مرحلة يقوى ويشتدُّ وينتظم، حتَّى أصبح في زمن الولادة الشريفة للإمام المهدي عليه السلام مجتمعاً منظَّماً من خلال قائد ونوّاب ووكلاء منتشرين في أصقاع الأرض، ولهذا المجتمع إداريات خاصَّة وأنظمة خاصَّة واقتصاد خاصّ وأهداف كبيرة. ومرَّ بمرحلة الغيبة الصغرى والكبرى، والتي فيها أصبح هذا المجتمع كياناً كبيراً وعريضاً يديره النائب العامّ الفقيه الجامع للشرائط، من خلال رسالته العملية كدستور عملي يُنظِّم حياة الفرد مع ربِّه في العبادات، ومع الآخر في المعاملات. وأصبحت له خصائص فكرية واقتصادية واجتماعية مميِّزة له عن غيره.

وأخيراً استطاع أن يوجِد له حكومات سياسية، وفي كلِّ يوم يزداد هذا المجتمع المهدوي بريقاً وارتفاعاً وانتصاراً، رغم هدوءه ورغم شعاره المسالم، ورغم كلّ ما يتعرَّض له من اضطهاد وقتل وتشريد، لكنَّه يوماً بعد

يـوم يـزداد علـوّاً وإيمانـاً وازدهـاراً وتوسّعاً.

وبهـذا الإنجـاز المعـرفي والعمـلي والإداري والسـياسي اسـتطاعت العقيـدة المهدويـة أن تركـب السـنن التاريخيـة وتـؤثّر في فلسـفة التـاريخ وتوجّهه بالاتّجاه الـذي يـؤمّن تحقيـق الأهـداف الإلهيـة وفـق البرنـامج الاستخلافي.

وعلى هـذا الأسـاس فـإنَّ العقيـدة المهدوية هـي روح البرنـامج الإلهـي، وبـدونها يكـون العبـث في البرنـامج الإلهي، وهذا محـال، ولهـذا فهـي وإن كانـت خاضـعة للسـنن التاريخيـة باعتبارها موجـودة ضـمن الأسـباب والمسبَّبات الإمكانية، وهو قانون سـار على الجميع، ولكنَّها في نفـس الوقـت حاكمة على التاريخ وموجِّهـة لـه مـن خلال سيرها مـع السـنن الإلهيـة، وفي نهاية المطـاف هـي المنتـصرة والمحقِّقـة للغاية من خلق الإنسان.

العقيدة المهدوية والسـنن الإلهيـة التاريخية:

هناك سنن تاريخية عرضها القـرآن في منهجـه، ومـن تلـك السـنن هـي: خفـاء الـولادة، وخفـاء العنـوان (الغيبة)، والعمل بالتقيَّة.

لقد أكَّدت النصـوص المعصـومية على أنَّ هنـاك وجـه شـبه بـين الإمـام المهدي عليه السلام وبين بعض الأنبياء علـيهم السـلام، فهنـاك وجـه شـبه بمـوسى وعيـسى ويوسـف ونـوح وإبـراهيم وغيرهم عليهم السلام.

هذا الشبه ليس اعتباطاً، وإنَّما جـاء بسبب وجود: الخطّ الوراثي الممتدّ من آدم عليه السلام، مروراً بنوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السـلام، ووصـولاً إلى نبيِّنـا الخـاتم صلى الله عليه وآله، وانتهـاءً بالأئمَّـة المعصومين عليهم السلام. هذا الخـطّ الوراثي الإلهي يعيش صراعـاً تاريخيـاً وحتمياً مع الخطّ الشركي.

إنَّ هناك سنناً تاريخيـة لا بـدَّ منهـا،

حاكمة على الخطِّ الوراثي الإلهي، يتَّخذها الجميع للحفاظ على هذا الخطّ.

روى الصدوق في (علل الشرائع)[١٣]: عن عبد الله بن الفضل الهاشمي، قال: سمعت الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام يقول: «إنَّ لصاحب هذا الأمر غيبة لا بدَّ منها يرتاب فيها كلّ مبطل»، فقلت له: ولِمَ جُعلت فداك؟ قال: «لأمر لم يُؤذَن لنا في كشفه لكم»، قلت: فما وجه الحكمة في غيبته؟ قال: «وجه الحكمة في غيبته وجه الحكمة في غيبات من تقدَّمه من حجج الله تعالى ذكره، إنَّ وجه الحكمة في ذلك لا ينكشف إلَّا بعد ظهوره كما لا ينكشف وجه الحكمة لما أتاه الخضر عليه السلام من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار لموسى إلَّا وقت افتراقهما. يا بن الفضل، إنَّ هذا الأمر أمر من أمر الله وسرٌّ من سرِّ الله وغيب من غيب الله، ومتى علمنا أنَّ الله (عزَّ وجلَّ) حكيم صدَّقنا بأنَّ أفعاله كلّها حكمة وإن كان وجهها غير منكشف لنا».

وفي (إكمال الدين وتمام النعمة)[١٤] في حديث طويل:

قال: «إنَّ الله تبارك وتعالى أدار للقائم منّا ثلاثة أدارها في ثلاثة من الرسل عليهم السلام: قدَّر مولده تقدير مولد موسى عليه السلام، وقدَّر غيبته تقدير غيبة عيسى عليه السلام، وقدَّر إبطاءه تقدير إبطاء نوح عليه السلام، وجعل له من بعد ذلك عمر العبد الصالح - أعني الخضر عليه السلام دليلاً على عمره».

فقلنا له: اكشف لنا يا ابن رسول الله عن وجوه هذه المعاني.

قال عليه السلام: «أمَّا مولد موسى عليه السلام، فإنَّ فرعون لمَّا وقف على أنَّ زوال ملكه على يده أمر بإحضار الكهنة، فدلّوه على نسبه وأنَّه يكون من بني إسرائيل، ولم يزل يأمر أصحابه بشقِّ بطون الحوامل من نساء بني إسرائيل حتَّى قتل في طلبه نيفاً وعشرين ألف مولود، وتعذَّر عليه الوصول إلى قتل

موسى عليه السلام بحفظ الله تبارك وتعالى إيّاه. وكذلك بنو أُميَّة وبنو العبّاس لمَّا وقفوا على أنَّ زوال ملكهم وملك الأُمراء والجبابرة منهم على يد القائم منّا ناصبونا العداوة، ووضعوا سيوفهم في قتل آل الرسول صلى الله عليه وآله، وإبادة نسله طمعاً منهم في الوصول إلى قتل القائم، ويأبى الله (عزَّ وجلَّ) أن يكشف أمره لواحد من الظلمة إلَّا أن يتمَّ نوره ولو كره المشركون.

وأمَّا غيبة عيسى عليه السلام، فإنَّ اليهود والنصارى اتَّفقت على أنَّه قُتِلَ، فكذَّبهم الله (جلَّ ذكره) بقوله: ﴿وَما قَتَلُوهُ وَما صَلَبُوهُ وَلكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ (النساء: ١٥٧). كذلك غيبة القائم، فإنَّ الأُمَّة ستنكرها لطولها، فمن قائل يهذي بأنَّه لم يلد، وقائل يقول: إنَّه يتعدّى إلى ثلاثة عشر وصاعداً، وقائل يعصي الله (عزَّ وجلَّ) بقوله: إنَّ روح القائم ينطق في هيكل غيره.

وأمَّا إبطاء نوح عليه السلام، فإنَّه لمَّا استنزلت العقوبة على قومه من السماء بعث الله (عزَّ وجلَّ) الروح الأمين عليه السلام بسبع نويات، فقال: يا نبيَّ الله، إنَّ الله تبارك وتعالى يقول لك: إنَّ هؤلاء خلائقي وعبادي، ولست أبيدهم بصاعقة من صواعقي إلَّا بعد تأكيد الدعوة وإلزام الحجَّة، فعاود اجتهادك في الدعوة لقومك فإنّي مثيبك عليه، وأغرس هذه النوى فإنَّ لك في نباتها وبلوغها وإدراكها إذا أثمرت الفرج والخلاص، فبشِّر بذلك من تبعك من المؤمنين. فلمَّا نبتت الأشجار وتأزَّرت وتسوَّقت وتغصَّنت وأثمرت وزها التمر عليها بعد زمان طويل استنجز من الله سبحانه وتعالى العدة، فأمره الله تبارك وتعالى أن يغرس من نوى تلك الأشجار ويعاود الصبر والاجتهاد، ويؤكِّد الحجَّة على قومه، فأخبر بذلك الطوائف التي آمنت به فارتدَّ منهم ثلاثمائة رجل وقالوا: لو كان ما يدَّعيه نوح حقّاً لما وقع في وعد ربِّه خلف. ثمّ إنَّ الله تبارك وتعالى لم يزل يأمره عند كلّ مرَّة بأن يغرسها

مرَّة بعد أُخرى إلى أن غرسها سبع مرّات، فما زالت تلك الطوائف من المؤمنين ترتدُّ منه طائفة بعد طائفة إلى أن عاد إلى نيف وسبعين رجلاً...».

قال الصادق عليه السلام: «وكذلك القائم فإنَّه تمتدُّ أيّام غيبته ليصرح الحقُّ عن محضه، ويصفو الإيمان من الكدر بارتداد كلّ من كانت طينته خبيثة من الشيعة الذين يُخشى عليهم النفاق إذا أحسّوا بالاستخاف والتمكين والأمن المنتشر في عهد القائم عليه السلام...».

«وأمَّا العبد الصالح - أعني الخضر عليه السلام -، فإنَّ الله تبارك وتعالى ما طوَّل عمره لنبوَّة قدَّرها له، ولا لكتاب يُنزِله عليه، ولا لشريعة ينسخ بها شريعة من كان قبله من الأنبياء، ولا لإمامة يلزم عباده الاقتداء بها، ولا لطاعة يفرضها له. بلى، إنَّ الله تبارك وتعالى لمَّا كان في سابق علمه أن يُقدِّر من عمر القائم عليه السلام في أيّام غيبته ما يُقدِّر، وعلم ما يكون من إنكار عباده بمقدار ذلك العمر في الطول، طوَّل عمر العبد الصالح في غير سبب يوجب ذلك إلَّا لعلَّة الاستدلال به على عمر القائم عليه السلام، وليقطع بذلك حجَّة المعاندين، لئلَّا يكون للناس على الله حجَّة».

لعمري، لو لم يكن إلَّا هذا الحديث الصادقي عن الإمام المهدي عليه السلام لكفى في بيان أبعاد القضيَّة المهدوية، فهو يربط الإمام المهدي بسنن من قبله من الأنبياء عليهم السلام وهم نوح وموسى وعيسى عليهم السلام، وهذا يلفت النظر إلى: خفاء الولادة، الغيبة، طول العمر، العمل بالتقيَّة. وهذه سنن إلهية تاريخية تجري في الإمام المهدي عليه السلام، ويركبها الإمام عليه السلام للوصول إلى الهدف الأكبر، وهو إقامة الحكومة الإلهية في الأرض.

مع فرانسس فوكوياما في كتابه (التصدّع العظيم):

يُعتَبر (فرانسس فوكوياما) من أكثر

المفكّرين الأمريكان أصالةً وذكاءً، وممَّن فتحت أعماله آفاقاً جديدة وواسعة على العالم المحيط بنا في كتابه نهاية التاريخ (the end of history)، وكتابه (the last man) الرجل الأخير، كان أوَّل من لمح إلى التكوين الجديد لعالم ما بعد الحرب الباردة. وفي كتابه (the trust) فإنَّه حلَّل العوامل الاجتماعية التي تخلق الثروة ويسبر أفضل الطرق لتسخير هذه العوامل. ولكنَّه يوجِّه اهتماماً إلى قضايا وأسئلة أكثر عمقاً وأهمّيةً حول طبيعة المجتمع الحديث في كتابه هذا (the great distuption التصدّع العظيم)، والذي يُشكِّل العمل الأبعد أثراً والأكثر إثارةً.

فبعد أن يكشف أنَّ هناك تحوّلات كبيرة في المجتمع الأمريكي والأُوربي خلال العقود الثلاثة انتقلت من مجتمعات صناعية إلى مجتمعات معلوماتية، احتلَّت فيها المعرفة دور الإنتاج الواسع النطاق، لتصبح المعرفة أساس الثروة والنفوذ والتفاعل الاجتماعي، وفي نفس الوقت واجهت المجتمعات الغربية معدّلات متصاعدة من الجريمة وتغيّرات هائلة في الهيكل الأُسري ومعدّلات الخصوبة، بالإضافة إلى انخفاض مستمرّ في مستويات الثقة، يرافق ذلك انتصار النزعة الفردية على الجماعة، وكما جاءت الثورة الصناعية بتغيّرات عميقة في القيم الأخلاقية للمجتمع فإنَّ تصدعاً مماثلاً حدث في زماننا هذا وخلق تغيّرات عميقة في البناء الاجتماعي.

يكشف (فوكوياما) من خلال أحدث المعلومات الاجتماعية والنظريات الجديدة في حقول متعدِّدة تمتدُّ من الاقتصاد إلى البيولوجي أنَّه على الرغم من تحطّم وتفكّك النظام القديم، فإنَّ نظاماً اجتماعياً جديداً قد بدأ يتشكَّل. ويُبيِّن جانباً من فطرتنا البشرية هو حاجتنا إلى إقامة الروابط

الاجتماعية مع بعضنا البعض، لخلق نسيج اجتماعي بإطار جديد يتناسب مع المتغيّرات، ليس مع جيراننا فقط، بل في مؤسّسات العمل، وفي داخل الأُسرة، بل إنَّ (فوكوياما) يرى تصدّع الستّينات والسبعينات يمكن أن يفتح الطريق لإعادة بناء عظيم يتماهى مع النسيج الاجتماعي الجديد الذي ينسجه المجتمع الغربي ليستوعب قيماً اجتماعية وأخلاقية تتناسب مع الواقع المتغيّر لعالم ما بعد عصر الصناعة[١٥].

من الواضح أنَّ هناك اعترافاً صارخاً على فشل النظرية الوضعية في إدارة المجتمع وانتشار الفساد والظلم في المجتمع الغربي، وهذا ما أشارت إليه النصوص المهدوية الآنفة الذكر المعبَّر عنه بـ (انتشار الجور والظلم في الأرض). وهذا مصدره التطبيقات للأنظمة الوضعية والتي تضاءل قسم منها كالنظام الملكي الديكتاتوري الحقيقي، والنظام الاشتراكي الماركسي الشيوعي، وآخر نظام تراهن عليه الأنظمة الوضعية هو النظام الليبرالي بتجديداته، والذي أنتج ما يُسمّى اليوم بالحداثة.

واليوم هذا المفكّر الأمريكي بعد استعراضه بالأرقام والاستبيانات التصدّع العظيم لبنية المجتمع الغربي والأمريكي يراهن على نظريات جديدة في إعادة البنية الاجتماعية إلى فطرتها البشرية، وهذا من وجهة نظر العقيدة الإسلاميَّة هو خيال وسراب يراه الظمئان ماءً، لأنَّ القضيَّة مرتبطة كما أوضحناه سابقاً بالبعد الرباعي في المركَّب الاجتماعي الذي طرحه السيِّد الشهيد قدس سره في المدرسة القرآنية، فأيُّ إصلاح يقوم على أساس المركَّب النظري الثلاثي للمجتمع والذي يعني إخراج البعد الرابع وهو الله (عزَّ وجلَّ)، فهو يُعتَبر سراباً وسيؤدي إلى كوارث أكبر وأكثر.

نعم من الممكن أن نقول: إنَّ هذا العطش الإنساني للرجوع إلى الفطرة

يؤدّي إلى زيادة الوعي الذاتي، وبالتالي من الممكن جدّاً أن يتصالح الإنسان الغربي في نهاية المطاف مع العقيدة المهدوية، وبالتالي ينسجم معها عندما لا يرى مخرجاً من مأزقه السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وعندها يلتجئ مجبوراً أو مختاراً إلى البعد الرابع في المركَّب النظري الاجتماعي وهو الله (عزَّ وجلَّ).

وهذا ما أكَّدته الفلسفة المهدوية في بعد فلسفة الغيبة بأنَّ الإنسانية عندما تستنفد كلّ تطبيقاتها وتصل لمرحلة الفساد والظلم الذي لا يطاق عندها تلجأ إلى الله تعالى، لكون الفطرة الإنسانية تلجأ إلى بارئها عند تقطّع الأسباب والمسبَّبات الدنيوية أو المادّية.

وبهذا لا ملجأ للإصلاح الاجتماعي بمعزل عن النظرية الإسلاميَّة بقيادة الإمام المهدي عليه السلام.

حتمية الختم المهدوي:

كلُّ حكيم في فعله لا بدَّ له من نهاية حكيمة تظهر كمال فعله وإلَّا لما كان حكيماً، والله تعالى بما أنَّه حكيم في فعله فلا بدَّ أن تكون نهاية البرنامج الإلهي الذي هو نهاية التاريخ الإنساني بتحقّق الكمال الفعلي من خلال تحقّق الختم الإلهي.

وهنا جملة من النصوص تدلُّ على الحتمية المهدوية:

في تفسير القمّي[١٦]: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣٣)، إنَّها نزلت في القائم من آل محمّد عليه السلام، وهو الإمام الذي يُظهِره الله على الدين كلّه، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً.

وفي (كنز الفوائد)[١٧]: عن عباية بن ربعي، قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول - وذكر الآية -:

«والذي نفسي بيده لا تبقى قرية إلَّا نودي فيها بلا إله إلَّا الله محمّد رسول الله بكرةً وعشياً».

(كمال الدين)[١٨]: عن ابن محبوب، عن مؤمن الطاق، عن سلام بن المستنير، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: (اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) (الحديد: ١٧)، قال: «يُحييها (عزَّ وجلَّ) بالقائم، (بَعْدَ مَوْتِها) كفر أهلها، والكافر ميّت».

في تفسير العيّاشي[١٩]: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾ (الإسراء: ٦)، قال عليه السلام: «والذي فلق الحبَّة وبرأ النسمة ليعيش إذ ذاك ملوك ناعمين، ولا يخرج الرجل منهم من الدنيا حتَّى يُولَد لصلبه ألف ذكر، آمنين من كلِّ بدعة وآفة، عاملين بكتاب الله وسُنَّة رسوله، قد اضمحلَّت عليهم الآفات والشبهات».

وفي رواية (الغيبة) للشيخ الطوسي[٢٠]: قال النبيُّ صلى الله عليه وآله: «أُبشِّركم بالمهدي يُبعَث في أُمَّتي على اختلاف من الناس وزلزال، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً، يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض، يُقسِّم المال صحاحاً»، فقال الرجل: وما صحاحاً؟ قال: «السويَّة بين الناس».

وفي رواية (الغيبة) للشيخ الطوسي[٢١]: عن أبي سعيد الخدري، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول على المنبر: «المهدي من عترتي من أهل بيتي يخرج في آخر الزمان، تنزل السماء قطرها وتخرج الأرض بذرها، فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً».

وعن أبي سعيد الخدري، عن النبيِّ صلى الله عليه وآله: «... يكون في أُمَّتي المهدي إن قصر فسبع وإلَّا فتسع، فتنعم فيه أُمَّتي نعمة لم يُنعِموا مثلها قطّ، تؤتي [الأرض] أُكُلها ولا تدَّخر منهم شيئاً،

والمال يومئذٍ كدوس، فيقوم الرجل فيقول: يا مهدي، أعطني. فيقول [له]: خذ»[٢٢].

من خلال ما تقدَّم نجد ما يلي:

- تكرُّرُ عبارة (يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً) المبيِّنة لنتائج الأنظمة الوضعية.

- لا تبقى قرية في الأرض إلَّا وينادى فيها بلا إله إلَّا الله محمّد رسول الله، وتبيّن المنهج التوحيدي.

- يُحيي الأرض بعد موتها، المبيِّنة لنتائج المشروع المهدوي.

- الرجل لا يخرج من الدنيا حتَّى يُولَد لصلبه ألف ذكر آمنين من كلِّ آفة وبدعة، وتُبيِّن تفاصيل جزئية من تلك النتائج والآثار العظيمة.

- العمل بالقرآن وسُنَّة رسول الله ﷺ تُبيِّن الأساس العملي لمنهج التوحيد.

- يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض، تُبيِّن الآثار الوضعية لنتائج المنهج التوحيدي.

- يُقسِّم المال صحاحاً (بالسويَّة)، تُبيِّن التطبيق العملي للمشروع المهدوي.

- تُنزِل السماء قطرها (ماءها) وتُخرِج الأرض بذرها، وهذه تُبيِّن النتيجة الحتمية للموجودات التكوينية للمنهج التوحيدي.

- المال كدوس واحدة من آثار العمل بالمنهج التوحيدي.

هذه هي حقيقة الختم المهدوي الذي يظهر الأسماء والصفات الإلهية في الأرض والوجود.

وعلى هذا الأساس فلمن تكون نهاية التاريخ؟ هل هي لمن ذكره (فرانسس فوكوياما) في كتابه نهاية التاريخ والرجل الأخير للنظام الليبرالي الديمقراطي الرأسمالي، ويكون الرجل الأُوربي هو الرجل الأخير، أم للنظام الإسلامي من خلال العقيدة المهدوية، ويكون الرجل الأخير هو الرجل المهدوي؟

الهوامش:

(١) صحاح الجوهري ١: ٤١٨.

(٢) مقدّمة ابن خلدون: ٦/ دار الفكر.

(٣) المقريزي عن فلسفة التاريخ للسيِّد محمّد الحسيني الشيرازي: ١٤.

(٤) فلسفة التاريخ: ٢١.

(٥) المصدر السابق.

(٦) فلسفة التاريخ: ٢٦.

(٧) بحار الأنوار ٨٧: ١٩٩/ باب ١٢/ ح ٦.

(٨) فلسفة التاريخ ونهضة المهدي للشهيد مرتضى مطهَّري: ١٠ و١١.

(٩) فلسفة التاريخ ونهضة المهدي للشهيد مرتضى مطهَّري: ١٣ – ١٥.

(١٠) نهاية التاريخ والرجل الأخير لفرانسيس فوكوياما: ٢٣.

(١١) المدرسة القرآنية للسيِّد محمّد باقر الصدر: ١٠٥ – ١٠٧.

(١٢) صحيح أبي داود ٤: ٨٧.

(١٣) علل الشرائع: ٢٤٥ و٢٤٦.

(١٤) إكمال الدين: ٣٥٢ – ٣٥٧.

(١٥) التصدّع العظيم: ٥/ ترجمة عزَّة حسين كبه.

(١٦) تفسير القمّي ٢: ٢٨٩.

(١٧) كنز الفوائد تأويل الآيات الظاهرة: ٦٦٣.

(١٨) كمال الدين ٢: ٦٦٨/ باب النوادر/ ح ١٣.

(١٩) تفسير العيّاشي ٢: ٢٨٢/ ح ٢٢/ تفسير آية (٦١) من سورة الإسراء.

(٢٠) الغيبة للطوسي: ١٧٨/ ح ١٣٦.

(٢١) الغيبة للطوسي: ١٧٩/ ح ١٣٧.

(٢٢) سنن ابن ماجة ٢: ١٣٦٦ و١٣٦٧/ ح ٤٠٨٣.

الباحث مهند مضر رؤوف الحبّوبي

أستاذ - جامعة الكوفة - كلية الآداب

دور العقيدة المهدويَّة في تفكيك ظاهرة الإلحاد

المقدّمة:

شغلت القضيَّة المهدويَّة مساحة واسعة من ميدان العقيدة الإسلاميَّة، ذلك لما لها من ثقل كبير رسَّخته النصوص الشريفة من كتاب وسُنَّة.

وجاء الاهتمام بها من قِبَل المسلمين بمختلف درجاتهم المعرفية انسجاماً مع هذا الاهتمام التشريعي.

ويُضاف إلى ذلك، ما تمتَّعت به القضيَّة من ارتباط عاطفي وزخم معنوي باعتبارها أمل جميع الأحرار والمستضعفين في بلوغ وتحقُّق وعد الله تعالى، والخلاص من رِبْقَة الظلم، وطلب دولة يملؤها المنقذ العالمي قسطاً وعدلاً بعدما مُلِئَت ظلماً وجوراً.

لذا فمن نافلة القول: إنَّ الكتب والدراسات والنشرات والدوريات البحثية كانت ولم تزل، تهتمُّ بالقضيَّة المهدويَّة حتَّى صارت تربو على الخمسة آلاف

كتاب[1]. وكان لكلِّ كاتب فيها اهتمامه الخاصّ، فمنهم (ونحن هنا لسنا بصدد جمع أصناف المؤلِّفين) من اهتمَّ باستشراف المستقبل ودفعه حبُّ الفضول الفطري إلى البحث في الكتب عن أخبار الفتن وأشراط الساعة.

ومنهم من أُعجب بشخصية المنقذ الموعود، فدعاه تعلُّقه إلى تقصّي أخباره والتعرُّف على شمائله وأحواله.

ومنهم من عرف المنقذ بمهديته وعرفه بإمامته فأحبَّه واعتقد به وصار يكتب دفاعاً عن عقيدته فيه وتعريفاً للناس بمقامه القدسي.

ولا شكَّ، أنَّ هذا الصنف الأخير من الكُتّاب المهدويين، المهتمّين بالبعد العقائدي، قد أفادوا القضيَّة المهدويَّة وساعدوا على توسعة دائرتها المعرفية لدى الناس، فكان للمواضيع المطروحة في الكتابات والأبحاث المختصَّة في غَيبة الإمام، وفي تعليلها، وبحث مسألة طول عمره عليه السلام، وإثبات ولادته، وجمع الأحاديث المستفيضة الواردة بشأنه، الأهمّية الكبيرة في تعزيز المعرفة والثقافة المهدويَّة، حتَّى لو تكرَّرت عناوينها ومضامينها. وفي هذا دليل على أنَّ القضيَّة المهدويَّة نابضة بالحياة والسؤال عنها لم يفتر ساعة واحدة.

وفي ما يخصُّ هذا البحث، فإنَّ موضوعه لا يخرج أيضاً عن البعد العقدي، لكن من زاوية أُخرى قد تبدو غير مألوفة بالنسبة للأبحاث المهدويَّة السابقة، فقد تناول البحث موضوعاً من المواضيع الشائكة والحسّاسة على الصعيد العقدي، ألَا وهو موضوع ظاهرة (الإلحاد)، فقد حاول البحث أن يُضيف جديداً إلى المكتبة المهدويَّة، ويُؤكِّد توضيحاً مهمّاً مفاده أنَّ القضيَّة المهدويَّة ليست فكرة جامدة تبرز فقط عند زمن ظهور الإمام عليه السلام، بل هي من

الحيوية والقوَّة والتأثير ما يتناسب ومعالجة مشاكل العصر وتحدِّياته، وظاهرة الإلحاد واحدةٌ من تلك المشاكل التي لا يستطيع استيعابها وامتصاصها إلَّا العقيدة الربّانية المتمثِّلة بالعقيدة المهدويَّة.

وجاء البحث ليُقدِّم الموضوع بصورة أوَّلية لطبيعة المواجهة بين العقيدة المهدويَّة والظاهرة المذكورة، فتناول الموضوع في عمومياته من دون الدخول في التفاصيل، وذلك لسببين:

السبب الأوَّل: أنَّ موضوع البحث من العناوين البِكر التي تُطرَح من أجل وضع لبنة أُولى في قضيَّة مهمَّة يُؤسَّس عليها فيما بعد.

السبب الثاني: الاهتمام بعرض المشكلة كظاهرة سلبية من باب التذكير بخطورتها والتحذير منها وإيجاد الحلول لها، ومثل هذا الأمر يتطلَّب التبسيط في المقال بالشكل المناسب.

لهذا ابتعد البحث قدر المستطاع عن استخدام المصطلحات العلمية والتعابير المعقَّدة، تاركاً الباب مفتوحاً للتعمُّق والدراسة للمتخصِّصين في هذا الشأن، لأهمّية الموضوع وخطورته الملحَّة على الأجيال.

وقد اقتصر البحث على الإلحاد بمفهومه الاصطلاحي المتداول، وجاءت هيكليته في ذلك مقسَّمة على ثلاثة فصول، بتسلسل متتابع، اهتمَّ الأوَّل بالتعريف بالظاهرة، والثاني بعرض العقيدة ومحوريتها مع التقديم للعقيدة المهدويَّة ومقارنة عامَّة بين الظاهرة الإلحادية والعقيدة الإلهيَّة، وجاء الفصل الثالث بتصوّر عام لآلية مواجهة العقيدة المهدويَّة للظاهرة ودوره في تفكيكها.

وأخيراً نشكر الله على كلِّ نعمة، ونسأله الإقالة من كلِّ تقصير، وأن يجعلنا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ

السَّماواتِ وَالْأَرضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩١).

الفصل الأوَّل: ظاهرة الإلحاد- تعريف بالهويَّة

توطئة:

تُعتَبر ظاهرة الإلحاد في حدِّ ذاتها ظاهرة تستحقُّ المتابعة والدراسة، مع أنَّها ظاهرة شاذَّة وغريبة في مجتمعنا الإسلامي، ولا ترتقي إلى أن تتَّخذ شكل وطبيعة الظاهرة الاجتماعية بخصائصها التي وضعها علماء الاجتماع من (جماعية، والتزام، وتلقائية، وترابطية).

فقد ظلَّت عبر تاريخها في الإسلام في نطاقٍ فردي وضيِّق؛ بينما استكملت أدوار نضجها حتَّى تضخَّمت كظاهرة اجتماعية خطيرة في مجتمعات أُخرى، ويرجع الفضل في منعها وتحجيمها إسلاميّاً، إلى شغل العقيدة الإسلاميَّة المساحة الكبيرة في وجدان المسلمين.

وكونها تقع ضمن الإطار العقائدي، كانت ظاهرةً عقديةً بامتياز. وهو ما دعا إلى اعتماد العقيدة عاملاً رئيساً في مواجهتها والتصدّي لها.

وسيتمُّ في هذا الفصل محاولة لإلقاء نظرة للتعرُّف على ملامح هذه الظاهرة بتحديدها، وعرضٍ موجز لتأريخها وروّادها، مع التحليل لمضمونها الفكري ونتائجها، والتعرُّض لأهمّ أسبابها[٢].

الفصل الثاني: العقيدة المهدويَّة- امتداداً للدين الإلهي

توطئة:

تُعتَبر العقيدة الدينية روح أيِّ دين وسنده. ولمَّا كان الدين نقيضاً لفكرة التحرُّر منه وعدم قبوله، كان للعقيدة الموقع الخاصّ في موقعة التحرّي عنه وإثبات وجهة نظره. وإذا كانت

المواجهة بين الدين السماوي والإلحاد حتميةً - وهي كذلك -، فلا بدَّ أن يُمثِّل الطرفين الأُنموذجُ الكاملُ فيهما لإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، وليستطيع الباحث عن المعرفة والحقيقة الوصول إلى القناعة والاطمئنان قبل الاختيار، ولتحقيق هذا الغرض كان لزاماً أن يُعقَد هذا الفصل في طلب العقيدة الأقرب في تمثيل الدين الإلهي.

فموضوعية الطرح تُحتِّم التعرُّف على الدين السماوي من مظانِّه وإبداء الحكم على أثره، فسجل المناظرات عبر التاريخ بما فيها المناقشات والحوارات العلمية، حافلٌ بالوقوع في الفهم السلبي وإصدار الكثير من الأحكام المسبقة التي بُنيت عليها نظريات ورُؤى ناقصة، وهو الذي وقع من أساطين الفكر الإلحادي في فهم وتعليل ومحاكمة الدين كما سيأتي تباعاً[٣].

العقيدة المهدويَّة:

يُمثِّل الاعتقاد بالإمام المهدي عليه السلام الامتداد الطبيعي للعقيدة الإسلاميَّة الحقَّة بركيزتيها: الكتاب والعترة، فهي القناة نفسها التي توصل إلى توحيد الله تعالى بالمعرفة والعبادة، وتمثيله قائم لكِلا القناتين لحجّيته كإمام.

وترجع ميزة اعتقاد المكلَّف به عليه السلام إلى أنَّ العقيدة المهدويَّة تُمثِّل الاعتقاد بالكتاب والعترة والتذكير بالعهد المأخوذ من الناس، وبالتالي تأمين الوصول إلى التوحيد الأصيل من دون الوقوع في ملابسات الشرك والانحراف (الإلحاد).

والذي سيعني بقاء دين الإسلام منذ عهد آدم إلى عهد الخاتِم صلى الله عليه وآله كما هو، ليكفل قطف ثمار الاعتقاد ودخول النعيم لمن يشاء الوفاء بعهده الإلهي.

لهذا، ليس غريباً أن ترافق البشارات صاحبها عليه السلام. ويكون بشارة

العهدين[٤] وبشارة القرآن[٥] وبشارة النبيِّ ﷺ[٦]، ونقطة التقاء بين جمهور المسلمين[٧]، ووعد الله، بدلالة قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ﴾ (النور: ٥٥).

والذي في ذكره عليه السلام ورَد الحديث القدسي: «وبالقائم منكم أُعمر أرضي...، وبه أجعل كلمة الذين كفروا بي السفلى وكلمتي العليا...»[٨].

والأثر التكويني بادٍ بشهادة أحاديث الاثني عشر.

فوجود الإمام المهدي عليه السلام هو الجواب الشافي لإدراك حديث الاثني عشر عند الفريقين، والحصول على ثمرته بعد إنجاز الوعد الإلهي المرجوِّ بقيام دولته العادلة، فعن الباقر عليه السلام، عنه ﷺ: «مِنْ وُلْدِيَ اثْنَا عَشَرَ نَقِيباً نُجَبَاءُ مُحَدَّثُونَ مُفَهَّمُونَ، آخِرُهُمُ الْقَائِمُ بِالْحَقِّ يَمْلأُهَا عَدْلاً كَمَا مُلِئَتْ جَوْراً»[٩].

وهو ما يُلقي بظلاله على ضرورة معرفة الإمام خوفاً من وقوع ميتة الجاهلية بشهادة النبيِّ ﷺ: «مَنْ مَاتَ ولَيْسَ عَلَيْهِ إِمَامٌ فَمِيتَتُهُ مِيتَةُ جَاهِلِيَّةٍ»[١٠].

وقد ذكر الشيخ الصدوق في وجوب معرفته عليه السلام: (ولا يكون الإيمان صحيحاً من مؤمن إلَّا من بعد علمه بحال من يؤمن به، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (الزخرف: ٨٦)، فلم يوجب لهم صحَّة ما يشهدون به إلَّا من بعد علمهم، ثمّ كذلك لن ينفع إيمان من آمن بالمهديِّ القائم عليه السلام حتَّى يكون عارفاً بشأنه في حال غيبته،

وذلك أنَّ الأئمَّة عليهم السلام قد أخبروا بغيبته عليه السلام، ووصفوا كونها لشيعتهم فيما نُقِلَ عنهم واستُحفِظَ في الصُّحُف ودُوِّن في الكتب المؤلَّفة من قبل أن تقع الغَيبة بمائتي سنة أو أقلّ أو أكثر)[١١].

وبضمِّ ما بيَّنه المعصومون إلى ما أعلنه الرسول صلى الله عليه وآله عن الإمام المهدي عليه السلام ونهضته، فلا عُذر بعد هذا لمن أنكره عليه السلام، ومن أنكره فقد حكم عليه الكثير من ابناء العامة بالكفر، فعن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَنْ أنكر خروج المهديِّ فقد كفر بما أُنزل على محمّد...»[١٢]. وعن الإمام المهدي عليه السلام نفسه في إحدى توقيعاته: «ومن أنكرني فليس منّي وسبيله سبيل ابن نوح»[١٣].

وبالعودة إلى كلمات المعصومين عليهم السلام الواردة في إعظام شأنه وخاصَّةً ما كان منها في الاستنكار على منكره عليه السلام كما في الحديثين المتقدِّمين، يمكن القول: إنَّ إنكار المهدي عليه السلام مماثلٌ في المقدّمة والنتيجة لإنكار الله تعالى، بمعنى أنَّ منكر الإمام والملحد بالله تعالى هما على حدٍّ سواء. فمن الناحية العامَّة يكون هذا الإنكار إنكاراً لجميع الأديان، فـ(المهدويَّة بالمعنى العامّ ضرورية بجميع الأديان، ومن أنكر هذا الأمر...، سيكون بمثابة الخروج عن جميع الأديان، أي يصبح مثل هذا المدَّعي كمن لا دين له)[١٤]. والمهدويَّة بالمعنى الخاصّ، عقيدة إسلاميَّة بما سبق من النصِّ عليها. وقد ربط الحديثان المتقدِّمان مسألة الإنكار بالكفر، وجاء الحديث النبوي صريحاً بأنَّه بمثابة الكفر بخاتم الرسالات، وفي حديث الإمام عليه السلام تشبيه له بكفر ابن نوح، وكِلا التمثيلين صورة لواحدٍ من أشدّ أنواع الكفر، وهو كفر الجحود الذي ذكره الإمام الصادق عليه السلام[١٥].

كما أنَّ تحقُّق هذه النتيجة لا يستثني المسلم، بل هي في المسلم أشدُّ منها من

غيره، بحكم كثرة ما تردَّد عن القضيَّة المهدويَّة في سمعه، فالقضيَّة المهدويَّة هي المعيار الذي يُميِّز الخبيث من الطيِّب.

وهذا التشابه العضوي بين إنكار الإمام والإلحاد بالله تعالى ينجرُّ أيضاً إلى حالَتي الإلحاد في الشكِّ والجحود، فالشكُّ في وجود الإمام شكٌّ في وجود الله تعالى، وإنكار وجود الإمام إنكار لوجود الله تعالى، لأنَّ الإمام عليه السلام مظهر لفيض الله تعالى، وهو الدالُّ عليه.

فمن الواجب على كلِّ مسلم مهما كان توجُّهه الفكري والمذهبي أن يراجع ما يعتقده، فإن لم يكن فيه القبول بالمهدي عليه السلام فكرةً ومضموناً فليُصحِّح مساره، لأنَّ الاعتقاد بالمهدي عليه السلام اعتقادٌ بالتوحيد.

يُوضِّح القرآن الكريم هذه المسألة كحقيقة من الأصل التكويني بإرسال الباري أئمَّته الهداة من غير انقطاع، وهو قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (الرعد: ٧)، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ (الإسراء: ٧١). وسيتبع ذلك لزوماً اعتماد غيبته والاعتقاد بها، فصارت الغَيبة هنا من صلب العقيدة الإلهيَّة. وشاءت الإرادة الإلهيَّة أن تكون الغَيبة واقعة في صلب العقيدة بالله تعالى والاختبار بها، وكأنَّها تذكيرٌ مع الفارق في احتجاب الخالق عن الخلق، وهي من المسائل التي طالما تمسَّك بها الملحدون لدحض الدين بعد أن رفضوا الاعتراف إلَّا بالمادَّة دليلاً عدمياً على عدم وجود الخالق.

وهنا مظهر آخر للارتباط بين المهدويَّة وبين العقيدة يقابله تنافرٌ بين المهدويَّة والإلحاد، من حيث أنَّ غَيبة المهدي عليه السلام هي محلُّ ابتلاء وشكٍّ حقيقي في اختبار عقيدة المؤمن بالله تعالى. فهل يثبت على عقيدته ويكون قد ثبت على صدق إخلاصه لمبدأ الإيمان بخالقٍ لا يراه؛ أو يُنكِر الغَيبة

فيكون بذلك ملحداً لا يؤمن إلَّا بوجود المادَّة؟

وخطورة هذا المشهد أوضحته كلمات العصمة محذِّرةً من إنكار المهدي عليه السلام، كما وردت أحاديث أُخرى تُشجِّع على الثبات وإعلان الولاء بالإيمان بفرج الظهور وذكر ثواب الانتظار، ليكون انتظار الفرج عنصراً آخر في العقيدة مكمِّلاً للاعتقاد بالغَيبة.

فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أفضل أعمال أُمَّتي انتظار الفرج من الله (عزَّ وجلَّ)»[16]، وعن الصادق عليه السلام: «من مات منكم على هذا الأمر منتظِراً له كان كمن كان في فسطاط القائم عليه السلام»[17].

وحتَّى قرن الله سبحانه بانتظار الفرج، فعن الرضا عليه السلام وقد سُئِلَ عن الفرج: «إنَّ الله (عزَّ وجلَّ) يقول: ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١؛ يونس: ٢٠ و١٠٢]»[18]. وفي ذلك خَتم صاحب الأمر عليه السلام في المنقول عنه: «وأمَّا وجه الانتفاع بي في غيبتي فكالانتفاع بالشمس إذا غيَّبتها عن الأبصار السحاب، وإنّي لأمان لأهل الأرض كما أنَّ النجوم أمان لأهل السماء»[19].

مقارنة بين نقيضين:

بعدما تقدَّم عرضه، من المهمِّ التطرُّق للصفات والملاحظات المسجَّلة والمستنتجة على الإلحاد كظاهرة تستحقُّ الدرس، ويمكن اختزالها في موضوعين رئيسين، هما: المحدودية والعجز.

١ – محدودية الظاهرة:

اعتمدت ظاهرة الإلحاد منذ البداية على (المادّية) في استخلاص المعرفة، وانعزل الفكر الإلحادي من البداية بجدار المادّية، وكان مطلوباً منه البحث عن إجابات خارج نطاق المألوف لديه، وكان من الصعب أن

يخرج من نطاق المادّية إلى ما وراءها وفهم إمكانية وجود (اللامادّية). ومع الانجرار في موجة (العقلانية) والانغلاق على ما هو ملموس من دون فتح المجال للتفكير بما هو أبعد من ذلك. فكانت النتيجة اقتصارها على المحدود، وهو الذي أدّى إلى ظهور الكثير من العيوب والإشكالات فيها، في حين أغفلت عن قصد مجرَّد القبول في البحث عمَّا وراء هذه المادَّة.

وبقي المضمون الفكري لهذه الظاهرة محافظاً على نزعة صِدامية ضدّ الدين في الغالب، مع أحكام مسبقة، من دون دراسة مستفيضة للتعرُّف على هوية الدين وتمييز الصحيح منه، ومثاله موجود في كلمات منظِّريهم من قبيل كلمة الفيلسوف البريطاني برتراند راسل: (إنَّني أظنُّ أنَّ كلَّ الأديان الكبرى في العالم -البوذية، الهندوسية، المسيحية، الإسلام، والشيوعية- هي غير صحيحة ومؤذية على حدٍّ سواء)[٢٠].

وهذه النظرة المستعجلة تُسجِّل نقطة ضعف ونقص في فكر الظاهرة وأدبياتها انعكست سلباً على دوافعها. وقد تُصيب العقلية الإلحادية في بعض حججها وإشكالاتها على أديان معيَّنة، وهي تتبع لإشكالية التطبيق في الدين. لكنَّ هذا لا ينطبق على الدين الأمثل، ومثل هذه القراءة تغييب للقراءة الفاحصة بشكل تؤاخذ عليه لاسيّما وأنَّها صادرة من عقلية يُعْتَدُّ بها في المجال العلمي، تتبنّى العلم والطريقة التجريبية في تحليل المعطيات. ولا يُعقَل أن يُلحَق دين كبير مثل الإسلام إلى جانب أديان ومذاهب وثنية ومادّية منحرفة إلَّا أن يكون من باب التعميم في النظر وإضمار المغالطات.

فهذه النظرة أسيرة المادَّة ومحدودية التفكير السليم. وألقت بظلالها على التصوّر العامِّ للدين من المنظور الإلحادي، وهو ما قد عكسه

الملحدون بما وضعوه من تفسيرات مختلفة للدين منشؤها اتِّجاهاتهم ومنطلقاتهم الخاصَّة. فتفسيراتهم: النفسية والفجائية والظرفية والاقتصادية والسلطوية والبراغماتية[٢١]، واضحة التأثُّر بتلك الإرهاصات. ولم يصلوا فيها إلى فهم عميق يجيبوا بواسطته - ولو تقريبياً - عن العلَّة الكامنة في تواجد الدين داخل وجدان الإنسان منذ تأريخ ظهوره على الأرض. ولهذا إن كانت التوجُّهات الفكرية للملحدين مقبولة في مجالات اختصاصهم، إلَّا أنَّها كارثية في ما خصَّ الدين.

والفارق الواضح أنَّ الدين ظاهرة لكنَّها أكثر عمقاً وضاربة في الأصالة، لارتباطها بخالق المادَّة وما وراءها[٢٢]، وهو ما يكشفه عمقها العقائدي. ولهذا يُلاحَظ أنَّ محدودية المادَّة جعلت المادِّيين يعملون للدنيا باحتمالية الفشل، وعدم التزام الدين بالمحدود، أتاح العمل فيه للدنيا والآخرة. وهذا فرقٌ جليٌّ على مستوى النتيجة. فقد حاكى الدين الوجدان الإنساني كما حاكى متطلَّبات المادَّة وظفر بالاثنين معاً. وهذا من منشأ قوَّته واتِّساعه، ففي الوقت الذي لا يرفض الدين المادَّة كوسيلة مخلوقة من الباري وُضِعَت لأجل خدمة الإنسان يرفض الإلحاد الدين ويتمسَّك بالمادَّة.

ولهذا عند الاستماع لقوله تعالى: ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، يستطيع المتلقّي أن يُدرك حقيقةً أنَّ الدين الإلهي ليس كما تُصوِّره العقلية الإلحادية من التسلطية والتقييد، بل الحقيقة أنَّ اتِّصاله بالفاعل الحقيقي (الله سبحانه) منحه الاستقلالية والقوَّة. ولذا فـ (الدين شيء لا يمكن الإكراه عليه، فهو من الأُمور الوجدانية لا من الأُمور الخارجية، فالصلاة مظهر للدين، والحجّ مظهر للدين، وليس هذا هو الدين، لأنَّ

الـدين أمـر وجـداني موطنـه القلـب، والقلب لا يمكن السـيطرة عليـه مـن أيِّ قوَّة في العـالم، فهـو المنطقـة الحـرَّة الوحيدة في العالم كلِّـه، لأنَّـه مجموعـة مـــن الوجـــدانيات والخـــواطر والمعتقدات، ولا يمكن لأحد التحكُّم فيها)[٢٣].

ولهذا السبب (كان يـراود ثُلَّة مـن المفكِّـرين -منـذ عقـود قريبـة- حلـم اضمحلال الأديان، ولكن هذا الحلـم لم يتحقَّق على أرض الواقـع قـطُّ، بـل على العكس فقد ظهر موج من الإقبال المتزايد للشـعوب نحـو المعنويـات في العالم المعاصر، وقـد تجـلّى هـذا المـوج بأنحاء مختلفـة في شرق العـالم وغربـه، ففـي الغـرب ظهـرت ميـول نحـو المعنويـــة والعرفـــان، وفي الـــشرق تبلورت اتِّجاهات نحو إحيـاء الأديـان المحلِّية كـما بـرزت بـوادر التعصُّـب، الذي يلعب دوراً هامّاً في الحفاظ عـلى هوية الأديان والشعوب)[٢٤].

٢ - عجز الظاهرة:

سبَّب اعتماد الإلحاد عـلى الفلسـفة في مضـمونه الفكـري، عـلى مسـتوى التنظير والاستدلال، أزمة هُويـة بعـد سلسـلة مـن الوقـوع في التخمينـات والظنّيات، وفي كثير من الأحيان عدم المقدرة على الإجابة (اللاأدريـة). مـع وجـود المـدارس الفكريـة المختلفـة الاتِّجاهات، وكثـرة الرمـوز في الفكـر والعلـم فيهـا دون الثبـات عـلى اتِّجـاه واحـد منهـا. والاعـتماد عـلى الحـسِّ والتجربة على أساس المشاهدات. وفي هـــذا الســـياق، أجـــاب (ج. ب. ســتَرن)[٢٥]، حـــول ســـؤال بشـــأن الإجابات الإيجابية لحياة تخلو مـن الله، في فكـر نيتشـه، قـائلاً: (أخـشى أنَّ الإجابات عن ذلك السؤال من فلسفة نيتشـه غـير مُرضـية بـالمرَّة. فتناولـه للأسئلة الاجتماعية في مجمله لا يصـل للعمق...، واقتراحـات نيتشـه تجعـل عيش الناس معاً في تناغم أمـراً شـديد

الصعوبة)[٢٦].

وفشلت كلُّ محاولات العلم لتقديم الإجابات على كثير من التساؤلات الإنسانية المتكرِّرة والملحَّة، وأعلن عجزه في تفسيرها. فاهتزَّت الثقة في ما اعتمده المادّيون من نظريات مادّية مثل نظرية دارون الذي صرَّح صاحبها قائلاً: (أنا مقتنع بأنَّ الانتقاء الطبيعي قد كان الوسيلة الأكثر أهمّية، ولكنَّه ليس الوسيلة الوحيدة للتعديل)[٢٧]، حتَّى أنَّ أحد العلماء التطويريين صرَّح قائلاً: (إنَّ نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علمياً، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان، ونحن لا نؤمن بها إلَّا لأنَّ الخيار الوحيد بعد ذلك هو (الإيمان بالخلق الخاصّ المباشر)، وهذا ما لا يمكن حتَّى التفكير فيه)[٢٨]، وتكلَّم إسحاق نيوتن في إحدى رسائله: (إنَّه لأمر غير مفهوم أن نجد مادَّة لا حياة فيها ولا إحساس وهي تُؤثِّر على مادَّة أُخرى، مع أنَّه لا توجد أيَّة علاقة بينهما)[٢٩].

وفي مقابل ذلك، قدَّمت العقيدة في الإسلام الحلول لتساؤلات الإنسان الفطرية بما اعتمدته من المصادر رصينة للوصول إلى المعرفة عبر طَريقَي الكتاب الكريم والنبوَّة، وما تفرَّع عنهما من المعاجز الحسِّية، والتي اتَّصلت كلُّها بمسبِّب الأسباب. وأتاح الدينُ التأمُّلَ في الطبيعة (ملكوت الله)، والاستفادة من منافعها.

ذكر الشيخ المظفَّر في عقيدة شيعة أهل البيت في أصل المعرفة، وهي ما استفاده شيعة أهل البيت عنهم عليهم السلام، ما مفاده: (نعتقد أنَّ الله تعالى لمَّا منحنا قوَّة التفكير ووهب لنا العقل أمرنا أن نتفكَّر في خلقه وننظر بالتأمُّل في آثار صنعه، ونتدبَّر في حكمته وإتقان تدبيره في آياته في الآفاق وفي أنفسنا، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فُصِّلت: ٥٣). وقد ذمَّ

المقلِّدين لآبائهم بقوله تعالى: ﴿قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً﴾ (البقرة: ١٧٠). كما ذمَّ من يتَّبع ظنونه ورجمه بالغيب، فقال: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ (الأنعام: ١١٦ و١٤٨؛ يونس: ٦٦؛ النجم: ٢٨). وفي الحقيقة أنَّ الذي نعتقده أنَّ عقولنا هي التي فرضت علينا النظر في الخلق ومعرفة خالق الكون، كما فرضت علينا النظر في دعوى من يدَّعي النبوَّة وفي معجزته)[٣٠].

وفي هذا تناقضٌ جليٌّ بين الدين والإلحاد، فالفكر الإلحادي الذي يدَّعي العقلانية وحرّية التفكير، يتمسَّك بالعلم لكن في إطار المنظور ويمنع عن البحث فيما وراءه؛ بينما الدين على عكس ذلك يُبيِّن انفتاحه ويدعو للتفكُّر في المادَّة كما يدعو إلى التفكُّر في ما خلفها، فنسبة العقلانية إلى الدين الحنيف أولى. قال (سالمون ريناك): (ليس أمام الديانات مستقبل غير محدود فحسب؛ بل لنا أن نكون على يقين من أنَّه سيبقى في الكون دائماً أسرار ومجاهيل، ولأنَّ العلم لن يُحقِّق أبداً مهمَّته على وجه الكمال)[٣١]. وقال الدكتور (ماكس نوردوه): (وستبقى الديانات ما بقيت الإنسانية، وستتطوَّر بتطوّرها، وستتجاوب دائماً مع درجة الثقافة العقلية التي تبلغها الجماعة)[٣٢].

الفصل الثالث: العقيدة المهدويَّة والإلحاد- بين المواجهة والتفكيك

بعدما تقدَّم في الفصلين السابقين من عرضٍ لطبيعة مِحْوَرَي الضدِّ والنقيض: محور الإيمان بالخالق العظيم ومحور ظاهرة الإنكار، حَلَّ في هذا الفصل بحث وتدبُّر شكل المواجهة التي سيخوضها وريث الدين الإلهي المهدي عليه السلام في فكِّ طِلَسم الظاهرة العصيَّة وتفكيك حُزَمها.

مرحلتان في المواجهة:

إنَّ طبيعة الاعتقاد بأصل الإمامة في الإسلام وتحديداً الالتزام بالإمام الثاني عشر عليه السلام في فكر مدرسة أهل البيت عليهم السلام، تفرض أخذ عامل الزمن في الحسبان عند دراسة آلية المواجهة مع الإلحاد في منظور العقيدة المهدويَّة. ويمكن عندها التقسيم إلى المرحلتين المعروفتين: مرحلة زمن الغَيبة ومرحلة عصر الظهور المبارك. ويسري هذا التقسيم أيضاً على أيِّ شكل من أشكال المواجهة العقائدية الأُخرى في منظور العقيدة المهدويَّة، بطبيعة الحال.

١ – مرحلة زمن الغَيبة:

إنَّ من وُفِّق لمعرفة أهل البيت عليهم السلام، لا يخطر في باله أن يترك المعصومون رعيَّتهم هَمَلاً. ولهم في ذلك أُسوة حسنة من كتاب الله تعالى ونهج جدِّهم المصطفى صلى الله عليه وآله الذي صدح بقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً﴾ (المائدة: ٣)، مُصدِّقاً ذلك في يوم الغدير، بفعله وقوله وتقريره. وكذلك كان منهم وقد نصبوا للأُمَّة من تلامذتهم أعلاماً في الفقه والعقيدة يرجعون إليهم وهم بعدُ بين ظهرانيهم. ولم يكن ذلك منهم عليهم السلام إلَّا استشعاراً بضرورة هذا العمل، واستدراراً للطف الإلهي في هداية الناس ودرء المفاسد عنهم. وليس زمن الغَيبة بِبدعٍ من ذلك ولا شكٍّ، فالقضيَّة هنا أخطر، وبالأخصّ في الجانب العقائدي.

فما كان منهم عليهم السلام إلَّا أن جاهدوا في إيصال العقيدة والشريعة الحقَّة وأودعوها المجتهدين من أتباعهم ليوصلوها إلى الناس تحت كلِّ ظرف. فصارت العقيدة والفقه من المعهود لديهم عن أئمَّتهم، وفي مقدّمة ما يفتحونه من رسائل مجتهديهم العملية. وهو ما أقرَّه الأُصوليون في الأُصول،

ومثاله ما صرَّح به الشيخ المظفَّر بالقول: (وعقيدتنا في المجتهد الجامع للشرائط أنَّه نائب للإمام عليه السلام في حال غيبته، وهو الحاكم والرئيس المطلق، له ما للإمام في الفصل في القضايا والحكومة بين الناس، والرادُّ عليه رادٌّ على الإمام والرادُّ على الإمام رادٌّ على الله تعالى، وهو على حدِّ الشرك بالله كما جاء في الحديث عن صادق آل البيت عليهم السلام)[٣٣]. وتبع هذا اعتماد الاجتهاد مكفولاً بالوجوب الكفائي[٣٤].

والأصل في ذلك مأخوذ ممَّا وَرَدَ عن المعصومين عليهم السلام قبل زمن الغَيبة، فعن الإمام الصادق عليه السلام من جوابه على حكم المتخاصِمَين: «ينظران إلى من كان منكم ممَّن قد روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا، فليرضيا به حكماً، فإنِّي قد جعلته عليكم حاكماً، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبله منه، فإنَّما استخفَّ بحكم الله وعلينا ردَّ، والرادُّ علينا كالرادِّ على الله، وهو على حدِّ الشرك بالله»[٣٥]. وعن الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «فأمَّا من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه مخالفاً على هواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوامِّ أن يُقلِّدوه»[٣٦]. وعن الامام المهدي عليه السلام: «وأمَّا الحوادث الواقعة، فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنَّهم حجَّتي عليكم وأنا حجَّة الله»[٣٧].

وقد كان العلماء في زمن الغَيبة مدركين لطبيعة مهمَّتهم وثقل مسؤوليتهم، فهم نوّاب الإمام، والواجب عليهم التصدّي لكلِّ معضلة كانت سيتصدّى لها الإمام المعصوم. وقد أُحيطوا علماً بكلمات المعصومين عليهم السلام المهيِّأة والموجِّهة لهم نفسياً وتربوياً لتحقيق ثقل هذه النيابة.

وبعد هذا كلِّه، فإنَّ صورة المواجهة في زمن الغَيبة مرسومة أمامهم وشدَّتها معلومة لديهم بتأكيد الإمام الهادي عليه السلام في المنقول: «لولا من يبقى بعد غَيبة

قائمكم من العلماء الداعين إليه، والدالِّين عليه، والذابِّين عن دينه بحجج الله والمنقذين لضعفاء عباد الله من شباك إبليس ومردته، ومن فخاخ النواصب، لما بقي أحد إلَّا ارتدَّ عن دين الله، ولكنَّهم الذين يُمسِكون أزمَّة قلوب ضعفاء الشيعة كما يمسك صاحب السفينة سُكّانها، أُولئك هم الأفضلون عند الله (عزَّ وجلَّ)»[٣٨].

ففي كلمة الإمام الهادي عليه السلام ما يُستفاد منه الإشارة لاستمرار خطِّ المواجهة المتوارث من الامام المنتظر عليه السلام إلى خلفائه من العلماء الجامعين للشرائط. وإشارة أُخرى إلى قوَّة العقيدة ورسوخها في قلوب العلماء الواعين، ومدحاً لثباتهم وقوَّتهم في الذود عنها رغم ما يعانونه في سبيل ذلك من شتّى صنوف المَشاقِّ والمصائب؛ كما أنَّ فيها إلفاتاً إلى أنَّ الخوف ليس على العقيدة بحدِّ ذاتها، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيْمانِ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً﴾ (آل عمران: ١٧٧). وإنَّما الخوف على الفرد المسلم المعرَّض للبدع وانحرافات مُضلِّليها بما يُسبِّبونه من إضعافٍ لعقيدته. فالقيمة الأسمى عند المعصومين عليهم السلام هي قيمة الإنسان، غاية الإرشاد والهداية. وفي هذا المعنى، رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وآله في تعظيم وظيفة تنوير الناس واستنقاذهم من الضلالة قوله لعليٍّ عليه السلام: «وايْمَ الله لأن يهدي الله على يديك رجلاً خير لك ممَّا طلعت عليه الشمس وغربت»[٣٩].

ولو لم يكن العلماء في زمن الغَيبة معتقدين بالعقيدة المهدويَّة ومتفاعلين معها ومتشبِّعين بمضامينها وغاياتها، بما انعكس على تربيتهم وانصهارهم في بوتقتها، لما أمكنهم البقاء متيقِّظين للقيام بواجباتهم تجاه الفرد والأُمَّة، وإنتاج التأثير المرجوِّ. فكانت علميتُهم مرتكزة على علم المعصوم والاستقاء من النصوص الواردة عنه، لاستنباط الحكم وإبداء الفتوى.

وعليه، كان من الطبيعي أن يحيط الإمام المهدي عليه السلام نوّابه المتصدِّين لدفع البدع والانحرافات برعايته وعنايته. وهذا ما تجلّى بوضوح في توقيعه الملفت الصادر إلى الشيخ المفيد(٤٠).

وقد كشف الكتاب عناية الإمام الخاصَّة بالعالم المتفرِّغ لإبراز علم أهل البيت والمتصدّي لشؤون الأُمَّة، فقد عُرِفَ الشيخ المفيد بمناظراته ومحاججاته المتينة المكلَّلة بالظفر. كما وبيَّن الكتاب تلك العناية الخاصَّة من الإمام لشيعته في زمن الغَيبة بلا فرق عن رعايته في حضوره.

وهكذا وفي مثل هذه الأجواء المشحونة، انبرى حملة فكر أهل البيت عليهم السلام من علماء وخطباء ومحدِّثين ومن معهم من المؤمنين في زمن الغَيبة، بحملة متواصلة لتوعية الناس وإرشادهم. فكانت أشكال التصدّي مختلفة باختلاف طبيعة الشخص ومهمَّته، فمنها ما كان بالمناظرة والنقاش العلمي الهادئ، ومنها ما كان بتصنيف الكتب المختصَّة في نقض الإلحاد والردِّ على الملاحدة أو تلك المقترنة بمعالجة مواضيع أُخرى متعلِّقة في تعزيز العقيدة الصحيحة مثل مواضيع التوحيد والنبوَّة والمعاد وغيرها. ومنها ما اتَّجه إلى التصنيف في التفسير وإعجاز القرآن وعلومه – دفعاً للتشكيك فيه(٤١) لضرب الدين – واللغة وتدوين الحديث ونحوها، فكلُّ هذه الجوانب تخدم قضيَّة تعزيز العقيدة ودفع الشبهات والضلالات والزندقة والإلحاد.

إنَّ مجرَّد قيام العالم بالتصدّي لأعباء المرجعية الدينية يُعتَبر الحلقة الأُولى في النهوض بمشروع مكافحة ظاهرة الإلحاد، فوجود العالم ضمان للناس وفقده ثلمة، وما مضيّه قُدُماً وشروعه في فضح ظاهرة الانحراف وردِّها بالكلمة أو التدوين إلَّا بمثابة الحلقة الثانية في دائرة التصدّي والقيام. وإذا

كانت كلتا الحلقتين على قدر المسؤولية فإنَّ الثمرة ستؤتي أُكُلها في النهاية.

ولو اقتصرنا على ما كتبه العلماء في نقض الظاهرة من دون ما عرضوا له وفصَّلوا من المواضيع الساندة والمتداخلة من: إثبات الربوبية والتوحيد والصفات إلى آخره من المباحث، فستأتي النتيجة في هذه العيِّنة المعبِّرة عن اهتمام العلماء قديمهم وحديثهم بمتابعة الظاهرة ومحاولة تفكيكها ولو فكرياً. فمن القدماء:

أبو سهل النوبختي[٤٢]، المعاصر لزمن الغَيبة الصغرى وله: (كتاب الإنسان والردّ على ابن الراوندي[٤٣]، كتاب التوحيد، كتاب نقض على مسألة أبي عيسى الورّاق[٤٤] في قِدَم الأجسام مع إثباته الأعراض)[٤٥]، (كتاب نقض عبث الحكمة لابن الراوندي، كتاب نقض التاج على ابن الراوندي، ويُعرَف بكتاب السبك، كتاب نقض اجتهاد الرأي على ابن الراوندي، كتاب حَدَث العالم)[٤٦].

الشريف المرتضى[٤٧]، له: (الردّ على يحيى بن عديّ، كتاب الردّ على يحيى أيضاً في اعتراضه دليل الموحِّدين في حَدَث الأجسام، الردّ عليه في مسألة سمّاها طبيعة المسلمين)[٤٨].

ومن المحدَثين:

السيِّد جمال الدين الأفغاني[٤٩]، له: (الردّ على الدهريين).

الشيخ محمّد جواد البلاغي[٥٠]، له: (الردّ على الطبيعيين).

الشيخ محمّد الجواد الجزائري[٥١]، له: قصيدة (حلّ الطلاسم) عارض بها قصيدة الشاعر اللبناني إيليا أبو ماضي[٥٢] (الطلاسم).

الشيخ مرتضى المطهَّري[٥٣]، له: (نقد الماركسية، الدوافع نحو المادّية، الرؤية التوحيدية والرؤية المادّية، أسباب التوجُّهات المادّية). وأخيراً:

السيِّد محمّد باقر الصدر[٥٤]، له: (فلسفتنا، اقتصادنا).

وبالإضافة إلى هذه النخبة من

العلماء الذين كتبوا في الردِّ على الملحدين أو في دحض الأفكار المادّية التي استندوا عليها، كان هناك ولم يزل الكثير من العلماء والمفكِّرين والأُدباء والباحثين غيرهم، الذين عنوا بالتصدّي والمواجهة للظاهرة أفراداً ومؤسَّسات وبمختلف الوسائل المسموعة والمقروءة والمرئية.

٢ - مرحلة عصر الظهور:

تُمثِّل مرحلة عصر الظهور البلورة الحقيقية للعقيدة المهدويَّة والميدان العملي لقطف ثمار مشروع الإصلاح العالمي الذي نادى به جميع الأنبياء عليهم السلام، والذي ارتبط باسم الإمام صاحب العصر عليه السلام. وعند استقراء النصوص الخاصَّة بشأن الإمام عليه السلام للتعرُّف على ملامح هذا المشروع يُطالعنا عنوان بشارته المعروف: (يملأ الأرض قِسطاً وعدلاً)، ولا بدَّ للتعرُّف على منهجية الإمام وخطَّته في القضاء على ظاهرة الإلحاد من اعتماد هذه البشارة، ففيها الإشارة إلى وجود نهضة وخطَّة عمل للإمام من أجل القضاء على الكفر والظلم العالميين، وظاهرة الإلحاد لا تخرج عن هذه الرؤية. ومن الواضح أنَّ نجاح المشروع المهدوي سيمضي بالاعتماد على المقوِّمَين التاليين:

المقوِّم الأوَّل: القضاء على دولة الكفر والظلم العالميتين.

المقوِّم الثاني: نشر القسط والعدل لتحقيق حالة السلم والأمان على مستوى العالم.

فلا مناص لتحقيق المطلب المنشود من الانطلاق في حملة القضاء على الظلم والجور.

وهي مهمَّة طبيعية ومنطقية للقائد المصلح، حيث تبتدئ أوَّلاً بالتخلُّص من الجذور الفاسدة، ومن ثَمَّ الشروع بالبناء على قواعد سليمة، وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ عملية التصدّي لظاهرة الإلحاد

وإنهائها تندرج ضمن المقوِّم الأوَّل.

وللتعرُّف على منهج الإمام المهدي عليه السلام وآلية مواجهته لظاهرة الإلحاد وتفكيكها نهائياً، يمكن استخلاص نقاط أربعة، وتُمثِّل أوَّلها القاعدة الاستراتيجية والعمق المعرفي الذي تنطلق منه بقيَّة النقاط الثلاث، باعتبارها الأدوات اللازمة للتنفيذ، وسيكون ترتيبها في العرض على نحو ترتيبها المنطقي المستفاد من تسلسل أحداث الظهور في الروايات الشريفة، وهي بإيجاز على النحو الآتي:

النقطة أ: الفكر المتقدِّم والمقاوم للإمام عليه السلام، وهي بمثابة خطِّ الشروع الذي ينطلق منه المصلحون بمشروعهم الإصلاحي إلى الناس.

النقطة ب: سيرته العملية وسلوكه الحضاري والأخلاقي في دعوة أهل العالم بمختلف أديانهم ومذاهبهم وألوانهم عبر فتح باب الحوار والإقناع أمام الجميع بكلِّ حرّية.

النقطة ج: استخدام القوَّة والتصدّي للعناصر التي لا تفهم أو لا تريد أن تفهم إلَّا منطق القوَّة باستعمال السلاح، والتي تعمل بإصرار على إجهاض المولود العالمي الجديد (مشروع الدولة العالمية العادلة).

النقطة د: إنجازاته عليه السلام في فتح آفاق معرفية وعلمية جديدة يخترق فيها المتعارف والمعقول لدى أصحاب الحضارة المادّية بكلِّ مراحل تاريخها المعلومة والمجهولة.

ومن المهمِّ ملاحظة: أنَّ منهج المواجهة المرسوم لن يبدأه الإمام عليه السلام كلَّه في المستقبل، فقد هيَّأت له أحاديث آبائه المعصومين عليهم السلام قبل ولادته، وعمله المخفي في حركته الغيبية، ما لا ينقصه إلَّا اللمسة الأخيرة بإعمال الأدوات الثلاث ووضعها موضع التنفيذ بمجرَّد تلقّيه الإذن الإلهي بالنهوض، لتكون بداية النهاية لكلِّ انحراف عن معرفة الله تعالى منذ بدء الخليقة.

أ: فكر الإمام عليه السلام:

لم يخرج فكر الإمام المهدي عليه السلام في طبيعته عن المحيط الطبيعي لفكر أهل البيت عليهم السلام، وهذه ميزة قائمة في دائرتهم المعرفية ومن مختصّاتهم الاحتجاجية، لذا فإنَّ لغة التخاطب والمناظرة أمست تقليداً راكزاً في منهج العترة التبليغي والإرشادي، فعن الصادق عليه السلام: «الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْأَئِمَّةُ مِنْ بَعْدِهِ عليهم السلام»(٥٥).

وعنه عليه السلام أيضاً: «إِنِّي لأعلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَأَعْلَمُ مَا فِي الْجَنَّةِ، وَأَعْلَمُ مَا فِي النَّارِ، وَأَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ...، عَلِمْتُ ذَلِكَ مِنْ كِتَابِ الله (عزَّ وجلَّ)، إِنَّ الله (عزَّ وجلَّ) يَقُولُ: فِيهِ تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ»(٥٦).

وليس غريباً أن يكون الإمام عليه السلام متصدّياً للإلحاد وقادراً على تفكيكه ومعالجة أسبابه ونتائجه.

ففكر الإمام عليه السلام بما امتاز من خصائص العلم الربّاني لمدرسة أهل البيت عليهم السلام في مختلف دقائق العلوم الإلهيَّة، يُعَدُّ الحلُّ الأنسب لجميع مشاكل الاشتباه والخلط والشكِّ الذي تُعاني منه العقلية الإلحادية. وفيه الإجابة عن جميع الإشكالات والتساؤلات التي تخطر في الأذهان مهما كانت خلفيتها ومبلغ تعقيدها. وهو العلم الحضوري الذي سيتواجد في عصر ظهوره عليه السلام ويبسطه للناس بالطريق الكسبي الذي يناسب مداركهم، لذا سيملأ علم الإمام عليه السلام الفراغ النفسي والروحي الذي ضرب أطناب الوجدان الإلحادي المتأزِّم وقاسى منه إيمان الإنسان ما قاسى.

وتبقى الخصوصية في ذلك للإمام صاحب العصر عليه السلام في كسر شوكة الكفر والإلحاد (الجحود) وقطع دابرهما تماماً من الأرض، فعن الباقر عليه السلام: «إنَّ الدنيا لا تذهب حتَّى يبعث الله (عزَّ وجلَّ) رجلاً منّا أهل البيت يعمل بكتاب الله لا يرى منكراً

إلَّا أنكره»[٥٧].

وسأل عبد العظيم بن عبد الله الحسني الإمامَ الجواد عليه السلام: يا مولاي، انّي لأرجو أن تكون القائم من أهل بيت محمّد الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلِئَت ظلماً وجوراً، فقال عليه السلام: «ما منّا إلَّا قائم بأمر الله، وهادٍ إلى دين الله، ولكن القائم الذي يُطهِّر الله به الأرض من أهل الكفر والجحود ويملأها قسطاً وعدلاً هو الذي يخفى على الناس ولادته، ويغيب عنهم شخصه، ويحرم عليهم تسميته، وهو سميُّ رسول الله وكنيِّه...»[٥٨].

ومن ذلك ما ورد عن الحجَّة عليه السلام في إحدى توقيعاته: «وإذا أذن الله لنا في القول ظهر الحقُّ واضمحلَّ الباطل وانحسر عنكم»[٥٩].

ومن جملة علومه الرائدة، علمه بالتوحيد ودقائقه المعرفية، بما يُميِّز بين الكفر والإيمان ويُفرِّق بينهما، وهما في كلمة واحدة: لا إله إلَّا الله، (أوَّلها كفر وآخرها إيمان). وهو ما أمَّنَه الحديث المروي عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «إِنَّ عِنْدَ كُلِّ بِدْعَةٍ تَكُونُ مِنْ بَعْدِي يُكَادُ بِهَا الإِيمَانُ، وَلِيّاً مِنْ أَهْلِ بَيْتِي مُوَكَّلاً بِهِ يَذُبُّ عَنْهُ، يَنْطِقُ بِإِلْهَامٍ مِنَ الله وَيُعْلِنُ الْحَقَّ وَيُنَوِّرُهُ، وَيَرُدُّ كَيْدَ الْكَائِدِينَ يُعَبِّرُ عَنِ الضُّعَفَاءِ»[٦٠].

وفيما يلي عرضٌ لجانب من كلمات الإمام المُستفادة في موضوع الردِّ على الإلحاد والشكِّ ونحوهما من الانحرافات، بدأها الإمام عليه السلام بتعريف مجملٍ عن التوحيد: «إنَّ الله تعالى هو الذي خلق الأجسام وقسَّم الأرزاق، لأنَّه ليس بجسم ولا حالٌّ في جسم، ليس كمثله شيء وهو السميع العليم»[٦١].

ومن رسالة له عليه السلام في الردِّ على المرتابين في الدين والمتشكِّكين بوجوده الشريف، بدأها عليه السلام بحرصه في التصدّي لهداية الناس وحفظهم عقائدياً لما فيه صلاحهم:

«بسم الله الرحمن الرحيم، عافانا الله وإيّاكم من الفتن، ووهب لنا ولكم روح اليقين، وأجارنا وإيّاكم من سوء المنقلب، إنَّه أُنهي إليَّ ارتياب جماعة منكم في الدِّين، وما دخلهم من الشكِّ والحيرة في ولاة أمرهم، فغمَّنا ذلك لكم لا لنا، وساءنا فيكم لا فينا، لأنَّ الله معنا فلا فاقة بنا إلى غيره، والحقُّ معنا فلن يوحشنا من قعد عنّا، ونحن صنايع ربِّنا والخلق بعد صنائعنا»(٦٢).

ومن الرسالة أيضاً ردُّه على المتشكّكين بوجوده بعد أبيه (عليهما السلام)، ظنّاً منهم بغياب الحُجَّة وانصرام حبل الدِّين: «يا هؤلاء، ما لكم في الريب تتردَّدون، وفي الحيرة تنعكسون، أوَما سمعتم الله يقول: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء: ٥٩)؟ أوَما علمتم ما جاءت به الآثار ممَّا يكون ويحدث في أئمَّتكم، على الماضين والباقين منهم عليهم السلام؟ أوَما رأيتم كيف جعل الله لكم معاقل تأوون إليها، وأعلاماً تهتدون بها، من لدن آدم عليه السلام إلى أن ظهر الماضي عليه السلام، كلَّما غاب علم بدا علم، وإذا أفل نجم طلع نجم؟ فلمَّا قبضه الله إليه ظننتم أنَّ الله أبطل دينه، وقطع السبب بينه وبين خلقه، كلَّا ما كان ولا يكون، حتَّى تقوم الساعة ويظهر أمر الله وهم كارهون»(٦٣).

وفي هذا القدر من كلماته عليه السلام كفاية في استخلاص منهجية للإمام عليه السلام في التعامل مع التيّارات المنحرفة وتأثيرها على الفرد والمجتمع، وقابلية الردِّ انطلاقاً من بُنية معرفية لا يكاد يفصلها السامع عن جملة المنظومة المعرفية التي أورثها آل البيت عليهم السلام لأتباعهم وتناقلته موسوعات الحديث. منظومةٌ سمتها الارتباط بالقرآن والاستشهاد به، مع تملُّك الحُجَّة والدليل وبلاغة البيان وفصاحة اللسان وقوَّة إدارة الكلام وتوجيه الخِطاب نحو السامع والقارئ. بما يردع النفس عن الوقوع

في الشكِّ أو يُلزمها بالحُجَّة مع الإيقان.

ب - سيرته في الحوار (نظرة استشرافية):

في هذا المقام يتَّجه الإمام إلى لغة الحوار والمحاججة، وإذا أدّى هذا الطريق إلى إقناع أصحاب كِلا الاتِّجاهين في الإلحاد (اللاأدرية) و(المتشدِّدة)، فإنَّ تفكيك الظاهرة وإفراغها قد وَقَعَ، ويتمُّ استبدالها بالتعريف بالعقيدة الحقِّ وتبليغها، وإن حصل شيء من التردُّد والتريُّث، أعطى الإمام الفرصة لهؤلاء المتردِّدين للتفكُّر أو التدبُّر؛ أو إن كان هناك امتناعٌ ورفضٌ فإنَّ آلية المقاطعة هي المقدَّمة، وما يعكس هذا التصوّر هو مطالعة أحد توقيعات الإمام المهدي عليه السلام التي جاء فيها: «وأمَّا ندامة قوم شكُّوا في دين الله على ما وصلونا به، فقد أقلنا من استقال ولا حاجة إلى صلة الشاكّين»[٦٤].

ويكون أوَّل إيذان لفتح الإمام عليه السلام باب الحوار، هو بعد إعلان نهضته في أوَّل خطبة له في مكَّة، وقد أسند ظهره إلى البيت الحرام فينادي: «يا أيّها الناس إنّا نستنصر الله ومن أجابنا من الناس فإنّا أهل بيت نبيّكم ونحن أولى الناس بالله تعالى وبمحمّد صلى الله عليه وآله، فمن حاجَّني في آدم فأنا أولى الناس بآدم، ومن حاجَّني في نوح فأنا أولى الناس بنوح، ومن حاجَّني في إبراهيم فأنا أولى الناس بإبراهيم عليه السلام، ومن حاجَّني في محمّد صلى الله عليه وآله فأنا أولى الناس بمحمّد صلى الله عليه وآله...»[٦٥].

فالإمام يُصرِّح عن هويَّته ويُعلِن استعداده للحوار والمحاججة، ومن الواضح أنَّ عامَّة الخطاب خُصِّص لأصحاب الأديان في البداية أدبياً، لكنَّه لا يعني إغفال غيرهم من مشركين وملحدين. ولا بُدَّ بهذا الترتيب، أن يستكمل الإمام حواره مع الملحدين وأشباههم بعد انتهائه من أصحاب الشرائع السماوية[٦٦].

وذلك انطلاقاً من عالمية دعوته وحرصه على عمومية التبليغ حتَّى يعيد الإسلام جديداً. فعن الصادق عليه السلام: «إذا قام القائم دعا الناس إلى الإسلام جديداً، وهداهم إلى أمر قد دُثِرَ...»[٦٧].

وما يُعزِّز التواصل مع طائفة اللاأدريين هي المساحة المشتركة بينهم وبين الإمام عليه السلام إذا ما كان القصد طلب الحقيقة، فهم في طور الشكِّ وعنوانهم مبدئياً يشير إلى عدم ميلهم إلى طرف على حساب آخر وعدم عنادهم، وهو ما توصَّل إليه أحد الباحثين في بحثه عن الإلحاد: (إنَّ الشخص الملحد لا يُنكِر الله في حدِّ ذاته وإنَّما يُنكِر مصداقية ما تُقدِّمه له النصوص الدينية، وإنَّ نفيه يقع أساساً على أسباب أو عناصر المصداقية[٦٨].

يُضاف إلى ذلك، أنَّ ما سيتعرَّف عليه المشكِّكون وغيرهم من سيرة الإمام ومصداقيته سيكون كفيلاً ببعث الفطرة الإنسانية فيهم من جديد، فأخلاق الصادقين مجلبة لقلوب المجافين، فعن الصادق عليه السلام: «المهديُ محبوبٌ في الخلائق، يُطفئ الله به الفتنة الصمّاء»[٦٩].

ومثل ذلك في أخلاقه ومروءته، فعنه عليه السلام أيضاً: «أوَّل ما يبتدئ المهدي أن ينادي في جميع العالم: ألَا من له عند أحد من شيعتنا دَين فليذكره حتَّى يردُّ الثومة والخردلة فضلاً عن القناطير المقنطرة من الذهب والفضَّة والأملاك فيُوفّيه إيّاه»[٧٠].

ويُضاف إلى مقوِّمات النجاح على مائدة الحوار، وجود طاقمٍ خاصٍّ مع الإمام وهو بمستوى الحدث، مكوَّن من أنصار الإمام وخُلَّص أصحابه، وهم على مستوى العلماء وفيهم الخضر عليه السلام، وعلى رأسهم عيسى عليه السلام، ستكون مهمَّتهم تكافلية مع الإمام في كشف الحُجُب عن بصائر الملحدين، ولاسيّما المسيح عليه السلام الذي سيُؤدّي دوراً مهمّاً مع الملحدين الغربيين كما أدّاه مع

معتنقي التثليث، وخصوصاً في معالجة الأسباب التي أودت بانحراف أوائل الملحدين في المسيحية، وكشف تبرئة المسيح من أخطاء وتحريفات الكنيسة التي كانت السبب الرئيس في انضاج ظاهرة الإلحاد.

والحوار مع الإلحاد[٧١] من هذا المنطلق ليس مستحيلاً ولا عجيباً، فقد قدَّم الإمام الصادق عليه السلام مشهداً موثَّقاً مع ملحدٍ (جاءه من مصر)، وغيَّر قناعته في حوارٍ هادئٍ وأدلَّةٍ عقلانية، أزالت من قلبه كلَّ شكٍّ وريب حتَّى اهتدى، وكان من دهشته أن قال للإمام: «ما كلَّمني بهذا أحدٌ غيرك!»[٧٢]. فإن كان الإمام الصادق قد هدى الملحد الذي لم يسمع كلاماً مثل كلام الإمام، وإذا لم يكن إلحاد عصر الصادق عليه السلام بمثل تعقيد إلحاد زمن الغَيبة فضلاً عن زمن الظهور؛ فمن باب أولى أن يكون الإمام المهدي عليه السلام قادراً على تفكيك الإلحاد المعاصر لزمانه وهداية الملحدين مع كلِّ التعقيدات والتشعُّبات الموجودة آنذاك. ومن المؤكَّد أنَّ أعلمية الإمام وإمكانياته الحِجاجية، وعلمه بأسباب نشوء الظاهرة وطرق معالجتها، ستكون حاضرة في حلحلة وتفكيك العُقَد.

ومن دون إغفال أنَّ حجج الملحد إزاء الإمام لن تكون بأقوى من تهافت حججه أمام آيات الفطرة الكفيلة بقطع شكِّه وإنهاء إنكاره، فضلاً عن تدبُّر الفكر في آيات الكتاب الكريم، كما أعلن (د. جفري لانغ) باهتدائه إلى الإسلام بعد سنوات من الإلحاد: (وبعد عشر سنوات من الإلحاد، فقد وضعت الصليب ورائي بعيداً عنّي؛ وعندما وجدت الجواب في الإسلام لم يكن هناك شيء في القرآن يجعلني أُؤمن بالصليب ثانيةً، بل في الحقيقة كان الأمر على العكس)[٧٣].

ج – استعمال القوَّة:

قد يَتبادر إلى الأذهان أنَّ استخدام القوَّة عند الإمام هو من أولويات النهضة المهدويَّة، وأنَّه أمر ضروريٌّ لا مناص منه. وليكون هذا الاستنتاج دقيقاً، لا بدَّ من عدم تقديمه كخَيار للإمام فوق سياقه الزمني، فالمبدأ المتوافق مع نهج الرسول والعترة الطاهرة عليهم السلام يثبت أنَّ الدعوة الطيِّبة ولغة الحوار هما من ديدنهم وأولوياتهم عليهم السلام. وكون الإمام ممثِّلاً لهذا المنهج فلا مجال للظنِّ باجتنابه أو تأخيره. وخطابه المكّي خير شاهد على الابتداء بتعريف نفسه وإعلان دعوته إلى جميع الناس، بل إنَّ بعض الروايات تشير إلى حواره مع السفياني عدوّه اللدود[٧٤]، وأنَّه لا يبدأ عدوّه بقتال ويسير بسيرة الرسول صلى الله عليه وآله والإمام عليٍّ عليه السلام في حروبهما[٧٥].

ولهذا فالروايات الخاصَّة بقيام الإمام بالسيف، مثال: «إذا خرج القائم عليه السلام لم يكن بينه وبين العرب والفرس إلَّا السيف لا يأخذها إلَّا بالسيف ولا يعطيها إلَّا به»[٧٦]، يُفتَرض اختصاصها بالنفر المستحقِّ لهذا الخيار كعقاب رادع، وهو ما يُوضِّحه المروي عن الباقر عليه السلام: «يقضي القائم بقضايا يُنكِرها بعض أصحابه ممَّن قد ضرب قدّامه بالسيف، وهو قضاء آدم، فيُقدِّمهم فيضرب أعناقهم، ثمّ يقضي الثانية فيُنكِرها قوم آخرون ممَّن قد ضرب قدّامه بالسيف، وهو قضاء داود، فيُقدِّمهم فيضرب أعناقهم، ثمّ يقضي الثالثة، فيُنكِرها قوم آخرون ممَّن قد ضرب قدّامه بالسيف، وهو قضاء إبراهيم، فيُقدِّمهم فيضرب أعناقهم، ثمّ يقضي الرابعة، وهو قضاء محمّد، فلا يُنكِرها أحد عليه»[٧٧].

والإمام يضع الأُمور في نِصابها الصحيح، ومن نِصابها التعامل مع أعداء النهضة المهدويَّة داخلياً وخارجياً بما يردعهم ويزيل خطرهم. وبالرجوع إلى ظاهرة الإلحاد المتشدِّد

فإنَّ آلية التعامل معه تفرض بعد عدم الاستجابة إلى وضعه في الزاوية التي وضع كيانه فيها، مع أُولئك الجاحدين المتطرِّفين الذين جمعوا جحود الربوبية والجحود عن معرفة. هذا الصنف من الجحود الذي أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام بالقول: «الْجُحُودِ عَلَى مَعْرِفَةٍ، وَهُوَ أَنْ يَجْحَدَ الْجَاحِدُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ حَقٌّ قَدِ اسْتَقَرَّ عِنْدَهُ، وَقَدْ قَالَ الله (عزَّ وجلَّ): ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وقَالَ الله (عزَّ وجلَّ): ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]»[٧٨].

وهذا الصنف من الجاحدين يكونون متجذِّرين في الإلحاد إلى الحدِّ الذي نقلوه من مستوى الفكرة والنظرية إلى المستوى العملي والتطبيقي، وليسوا من ذلك الصنف الجاهل الذي عادى الدين عن جهل وخديعة. فصنف الموقنة نفوسهم لا مشكلة عندهم مع الدين إذا كان شكلياً وربَّما كانوا من المتلبِّسين بمثل هذه الشكلية؛ وإنَّما أزمتهم مع الدين الحقيقي الذي يصطدم مع مقاصدهم وأفعالهم. ولذا يكون هذا الصنف متطبِّعاً على الكفر والظلم، ولا مكان للحوار عنده، ولا يعرف إلَّا الرضوخ للقوَّة لتحكُّم النزعة المادّية والمصلحية فيه. ومثل هؤلاء لن يقبلوا بمصلح مثل المهدي عليه السلام باعتباره ممثِّلاً حقيقياً وصِرفاً للدين الحقِّ.

وبنظرة تأمُّلية عن هذا الصنف، يمكن القول: إنَّ هذا الصنف بالذات سيكون هو المتحكِّم في مصير العالم في زمن الظهور وبشكل شبه مطلق، وهنا مكمن الصراع بين الإلحاد المادّي المتسلِّط الذي لا يعترف بالله تعالى ولا يسمح بأن يُعبَد على أرضه، فبقليل من التأمُّل يتأكَّد القول بأنَّ الإلحاد في عصر الظهور سيكون في أوج قوَّته

وسطوته، وسيتمثَّل بهيمنة القوى الغربية والحليفة لها، بقرينة ما تزاحمت الروايات بشأنه حول انعدام العدل والأمان وشيوع الكفر والطغيان، واقتران كلِّ ذلك في الختام بخطر الدجّال وكونه رأس الطاغوت والذي لا يكون بطبيعة الحال مقتصراً على شخص واحد، بل منظومة يشترك فيها جميع الفاسدين.

وشواهد تلك السيطرة أضحت بادية منذ الحقبة الاستعمارية، وفي ذلك ما ورد في سبب تأليف (الردّ على الدهريين) للسيِّد جمال الدين الأفغاني من تدخُّل حكومة الهند الإنكليزية في نشر الإلحاد هناك[٧٩]. ومن ذلك نشوء المحافل الماسونية المنضوية تحت جناح الماسونية العالمية الداعية إلى إغفال الأديان بدواعي إنسانية[٨٠]. كما أنَّ ظهور المذهب العلماني في السياسة وطلبه بفصل الدين عن الدولة وتضييقه في حدود الفرد الواحد، له خلفية وثيقة بالظاهرة الإلحاد[٨١].

فليس من الغريب معرفة تغلغل الإلحاد في الزمن المعاصر في مراكز صنع القرار بمختلف الميادين السياسية والعسكرية والاقتصادية والمالية والصناعية والثقافية إلى غير ذلك من الجوانب التي ترتكز عليها الحياة الضرورية وتحكُّمها في مصائر الشعوب المستضعفة التي طالما نُسِبَت إلى الجهل والتخلُّف بحجَّة ارتباطها بالدين. بل ويُشاهَد علناً وصول ملحدين إلى سدَّة القرار في دول ذات صبغة دينية[٨٢]، وهي دلالة واضحة على تلبُّس الإلحاد المتشدِّد بالدين في سبيل التشبُّث بالسلطة. وهذا النوع الخفيِّ من الإلحاد أخطر على المجتمع من نظيره العلني، لامتلاكه زمام الانحراف النظري والعملي.

ومثل هؤلاء لا يُؤمَن جانبهم على مستقبل الدولة المهدويَّة العادلة. وتاريخ دعوات الأنبياء يجهر بأنَّ

طبيعة الصراع بين الحقِّ والباطل كانت ولم تزل ذات بُعدٍ عقائدي في الصميم. ولهذا نبَّه الإمام الصادق إلى افتراق الطريقين وتباينهما عند ظهور المصلح العالمي، والرفض العالمي من قِبَل كلِّ طواغيت العالم لظهور الموعود عليه السلام: «إذا ظهرت راية الحقِّ لعنها أهل المشرق وأهل المغرب»(٨٣). ومثله عنه عليه السلام: «إذا خرج القائم لم يبقَ مشرك بالله العظيم ولا كافر إلَّا كره خروجه»(٨٤).

ومع مثل هذا الافتراق وبإزاء هذا الخطر، يُصبح من الضروري التصدّي المباشر وبالسلاح للقضاء على المناوئين، وهي آخر الدواء للقضاء على ظاهرة الفساد والانحراف من جميع الفعّاليات المشاركة في مسلسل الجور والظلم العالمي، بما فيه التيّار الإلحادي، وكلٌّ بحسب طبيعة عمله. فعن الباقر عليه السلام: «إِذَا قَامَ الْقَائِمُ عَرَضَ الإِيمَانَ عَلَى كُلِّ نَاصِبٍ فَإِنْ دَخَلَ فِيهِ بِحَقِيقَةٍ وَإِلَّا ضَرَبَ عُنُقَهُ أَوْ يُؤَدِّيَ الْجِزْيَةَ كَمَا يُؤَدِّيهَا الْيَوْمَ أَهْلُ الذِّمَّةِ، وَيَشُدُّ عَلَى وَسَطِهِ الْهِمْيَانَ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الأَمْصَارِ إِلَى السَّوَادِ»(٨٥).

وفي حديث آخر يتَّضح حسم الإمام بشمولية التعامل مع آخر المفسدين في الأرض بذكر أصناف المفسدين بما فيهم الملحدين (الزنادقة)، الذين لا يُرتجى منهم الإنابة ولا إنهاء غيِّهم، حيث جاءت الرواية عن الإمام الرضا عليه السلام وقد سُئِلَ بيان قوله تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ [آل عمران: ٨٣]، فقال: «أُنزلت في القائم، إذا خرج باليهود والنصارى والصابئين والزنادقة وأهل الردّة والكفّار في شرق الأرض وغربها، فعرض عليهم الإسلام، فمن أسلم طوعاً أمره بالصلاة والزكاة وما يُؤمَر به المسلم ويجب لله عليه، ومن لم يسلم ضرب عنقه حتَّى لا يبقى في المشارق والمغارب أحد إلَّا وحَّد الله»(٨٦).

وبربط الحديث الأخير بحديث لعنة أهل الشرق وأهل الغرب المتقدِّم، يتمُّ المعنى بالدلالة على أنَّ استخدام القوَّة في هذا الموقف، هو بخصوص أُولئك المردة في تعصُّبهم وكفرهم حتَّى لعنوا ظهور الإمام. وفي ذكر جمعهم ولعنهم إشارة إلى كونهم من مختلف الفئات المذكورة في الحديث الأخير. وأنَّهم بالغوا في كراهيتهم وعنادهم أن بلغ بهم هذا المبلغ من الاستئصال الذي عنى في النتيجة انتهاء بدعتهم وأُحدوثتهم وظاهرتهم.

د - إنجازاته عليه السلام المعرفية والمادّية:

تأتي أهمّية منجز الرقيِّ الذي سيقوم به الإمام، والذي هو حتمي في مشروعه بمثل حتمية ظهوره عليه السلام، (ولو لم يكن من مهمَّته عليه السلام إلَّا إنهاء الظلم، وبعث الإسلام النبوي الأصيل، وإقامة حضارته الربّانية العادلة، وتعميم نوره على العالم، لكفى)[٨٧]. بل إنَّ مجرَّد ظهور شخص المهدي عليه السلام بشخصية الإمامة الربّانية ووصول صورته الناصعة كممثِّل حقيقي للإسلام كفيلٌ بإحداث انقلابٍ في العقول والضمائر ليُرجِعها إلى فطرتها الأُولى ويُعالج أيَّ مرض في النفوس الفقيرة، ومنها نفوس من غاب عنهم الإحساس بالنعيم الإلهي، وهذه أوَّل خطوة في كسر ظاهرة سطحية مثل الإلحاد.

والأحاديث مستفيضة في باب ما سيُحدِثه الإمام من ثورة علمية، معرفية، حضارية، شاملة وعميقة على مستوى لم يعهده العالم جميعاً. والواضح أيضاً من خلاصة الأحاديث أنَّه لن يعهده أبداً إلَّا بحضوره وبعد قيام دولته الموعودة. والمهمُّ هنا هو أهمّية هذه المنجزات وتأثيرها في صلب ظاهرة الإلحاد. ولتبيين ذلك يمكن تتبُّع مسار التأثير في اتِّجاهين: اتِّجاه معرفي واتِّجاه مادي، ويكفي في المقام الاستشهاد بحديثٍ

واحدٍ على كلٍّ منهما.

ففي الاتِّجاه المعرفي، هناك الثورة العلمية التي تحدَّثت عنها جملة من الروايات، منها ما نُقِلَ عن الصادق عليه السلام: «العلم سبعة وعشرون حرفاً فجميع ما جاءت به الرُّسُل حرفان، فلم يعرف الناس حتَّى اليوم غير الحرفين، فإذا قام قائمنا أخرج الخمسة والعشرين حرفاً فبثَّها في الناس، وضمَّ إليها الحرفين، حتَّى يبثَّها سبعة وعشرين حرفاً»(٨٨). وليس خافياً، أنَّ مضمون هذا الحديث فيه من الصدمة على المتلقّي الشيء الكثير، لمحدودية التفكير الإنساني حتَّى على مستوى التخمين، فالبون كبير بين ما عند الناس ممَّا يُسمّى علماً وبين علم الإمام، ثمّ القابلية التي يمتاز بها الإمام لاستخراج العلوم ومقدرته على أخذ المدارك إلى مستوى تقبُّل هذه القفزة في المعرفة، تُعتَبر بحدِّ ذاتها قفزة أُخرى ستزيد من حيرة الناس بإمامهم ومقاماته، يُضاف إليه ما رُوي عن الإمام الباقر عليه السلام: «إِذَا قَامَ قَائِمُنَا وَضَعَ الله يَدَهُ عَلَى رُؤوسِ الْعِبَادِ فَجَمَعَ بِهَا عُقُولَهُمْ وَكَمَلَتْ بِهِ أَحْلامُهُمْ»(٨٩).

وهذه الاستثنائية الفريدة، ستقلب نمط تفكير الملحدين، وستكشف لهم ضعف وهشاشة معرفتهم الدنيوية ومحدوديتها بمجموع علمائهم على مرِّ الأجيال والعصور، خصوصاً وأنَّ للعلم في الذهنية الإلحادية قدسية خاصَّة، فلطالما تعبَّدوا بالقوانين العلمية، بل والنظريات وتسلَّحوا بها واستنصروها في سبيل إثبات نظرتهم القاصرة. وسيتَّضح لهم ولغيرهم في النتيجة، زيف الأُطروحة الإلحادية وبُنيتها المعرفية الخاوية. وفي الوقت نفسه، سيحصل لديهم اليقين بوجود الفيض الإلهي من وراء امداد ممثِّل الدين والعلاقة الوثيقة بين العبد المخلَص وربِّه، وصدق الاعتقاد بالخالق وبأحقّية الرسالات السماوية.

وفي الاتِّجاه المادّي، ورد عن

المعصومين عليهم السلام: «إذا قام القائم حكم بالعدل، وارتفع في أيّامه الجور، وأَمنتْ به السُّبُل، وأخرجت الأرض بركاتها، ورُدَّ كلُّ حقٍّ إلى أهله، ولم يبقَ أهل دينٍ حتَّى يُظهِروا الإسلام ويعترفوا بالإيمان...»[٩٠].

والنتيجة هنا تفرض واقعاً مفاجئاً ومُزلزلاً للذهنية الملحدة التي لم تجاوز سقف المادَّة وحديثها، إذ كيف يمكن لشخصٍ عاديٍ في صورته البشرية يُدعى المهدي، أن يأتي بما لم يسبقه الأوائل من جهابذة البشر وعلمائهم وإن اجتمعوا بقضِّهم وقضيضهم؟ وكيف له أن يكون مُلمّاً بدقائق المادَّة وقوانينها وأسرارها والتفاصيل في شتّى العلوم والفنون ثمّ يأخذ بتطويرها، وهو لم يختلف إلى أكاديمية علمية ولا عُهِدَ منه بذلك؟ ما لم يكن يمتلك قوى غيبية وارتباطاً إعجازياً بقدرة كلّية هي الواهبة للحياة والمتحكِّمة بالعالم الطبيعي المعروف، حتَّى «يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض»[٩١].

وستكون جميع هذه المنجزات وغيرها تتويجاً لجهود الإمام عليه السلام في انتشال البشرية من واقع تخلُّفها العقائدي وابتعادها عن معنى التوحيد ومعرفة الله تعالى بعدما كانت الأجواء المادّية قد استنفذتهم، وهي الحالة التي عبَّر عنها الإمام الباقر عليه السلام في المأثور عنه: «سيأتي على الناس زمان لا يعرفون الله ما هو والتوحيد...»[٩٢]. وبفعل منهجية الإمام في تطبيق فكره وتنفيذ آلية دعوته يرجع الإسلام جديداً والتوحيد مألوفاً لجميع الناس بلا شكٍّ أو جحود، وكما ذكرت الأحاديث: «حتَّى لا يبقى في المشارق والمغارب أحد إلَّا وحَّد الله»[٩٣]، و«يكون أن لا يبقى أحد إلَّا أقرَّ بمحمّد صلى الله عليه وآله»[٩٤]. وختاماً عن الرسول صلى الله عليه وآله: «يردُّ الله به الدين ويفتح له فتوحاً، فلا يبقى على وجه الأرض إلَّا من يقول: لا إله إلَّا الله»[٩٥].

الخاتمة:

بعد أن عرض البحث للقضيَّة المهدويَّة من منظور عقائدي وبلحاظ المعالجة في تفكيك الظاهرة المنافية للعقيدة الصحيحة، يمكن إجمال نتائج البحث في جملة النقاط التالية:

١ - الإلحاد مفهوم عدمي صِيرَ إلى بلورته وتأطيره بالإطار الفلسفي، وعدميته تؤدّي إلى عبثيته، ونتائجه كارثية على الفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة بما يريده من نفي الدين والغائه وتفريغ البعد العقائدي بما يتركه من فراغٍ واسعٍ بين الإنسان وخالقه وبما يُؤدِّيه من تنفيذ لمشاريع دخيلة تخدم أعداء الدين والدنيا، وهو يُؤدّي إلى سوء العاقبة والمنقلب يوم يلقى الإنسان ربَّه فرداً.

٢ - اتَّضحت أهمّية العقيدة في الإسلام الحنيف، وما شكَّلته من محورية في تعزيز الرابط بين العبد وربِّه. مدعمة بقناتَي الكتاب والعترة المهمَّتين في التذكير بالفطرة والدعوة إلى التوحيد، وأنَّ الحفاظ على هذه المحورية ضروري لدى كلِّ مكلَّف صوناً لإيمانه من الضياع الذي يُحدِثه التخلّي أو الفتور عن العقيدة.

٣ - برز دور العقيدة المهدويَّة وريثاً للعقيدة الإلهية على مسرح المواجهة مع الظواهر السلبية ومنها ظاهرة الإلحاد، وأهمّية ردعها وقوَّة نفاذها في زمن الغَيبة في تفكيك الظاهرة وإبطالها نهائياً في عصر الظهور على يد المهدي المنتظر عليه السلام، وهو المروي عن الصادق عليه السلام: «إِنَّ الأَرْضَ لا تَخْلُو إِلَّا وفِيهَا إِمَامٌ كَيْمَا إِنْ زَادَ المُؤْمِنُونَ شَيْئاً رَدَّهُمْ، وإِنْ نَقَصُوا شَيْئاً أَتَمَّهُ لَهُمْ»(٩٦).

هذا ويُؤكِّد البحث على ضرورة التمسُّك بالعقيدة الحقَّة والثبات عليها، وإحياء فضيلة انتظار الفرج، والتفاعل مع القضيَّة المهدويَّة بكلِّ معطياتها بما يُحصِن من الوقوع في الفتن؛ كما ويُنبِّه إلى ضرورة التوخّي

والحذر من الظاهرة السلبية سواءً كانت قريبة أو بعيدة، والاستمرار في التصدّي لها فكرياً وتثقيفياً على مستوى الأفراد أو الجماعات.

الهوامش:

(١) يُنظر: أبحاث حول المهدويَّة / الشيخ نجم الدين الطبسي: ٧ / إلى وقت طبع المرجع المذكور/ عام ٢٠١١م.

(٢) تمَّ حذف الفصل الأوَّل والمباحث العامَّة من الفصل الثاني لاقتضاء النشر ذلك، من يرغب من القرّاء الكرام بالحصول عليها التواصل مع موقع المجلَّة.

(٣) تمَّ حذف البحوث العامَّة في الفصل الثاني، لما تقدَّم في الهامش السابق.

(٤) يُنظَر: بحوث مسيحية متعلِّقة بالحسين والمهدي (عليهما السلام) / (من مقالة العلَّامة المنار): ٢٢؛ الحقيقة المهدويَّة (دراسة وتحليل) / السيِّد منير الخبّاز: ٧٣.

(٥) ذكر الشيخ نجم الدين الطبسي (وهو من المشاركين في تأليف: معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام): ورود ما لا يقلُّ عن ثلاثمائة آية تفسيراً وتأويلاً ترتبط بالمهدويَّة، جمعناها في الجزء السابع من معجم الإمام المهدي عليه السلام. أبحاث حول المهدويَّة: ١١؛ يُنظَر أيضاً: معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام / مؤسَّسة المعارف الإسلاميَّة / الجزء السابع.

(٦) حتَّى وصلت الأحاديث من التواتر والشهرة ما قُطِعَ بصحَّتها وصيرورتها من الواضحات، وفي هذا يُنظَر: أبحاث حول المهدويَّة: ٤٥ – ٥٠.

(٧) يُنظَر: المرجع نفسه: ١١ – ١٣.

(٨) أمالي الصدوق / أبو جعفر محمّد بن عليٍّ بن الحسين بن بابويه القمّي (الصدوق) (ت٣٨١هـ): ٤٥٠/ المجلس٩٢/ ح ٤.

(٩) أُصول الكافي / كتاب الحجَّة / باب ما جاء في الاثني عشر والنصِّ عليهم عليهم السلام: ٣٢٢ / ح ١٨.

(١٠) المصدر نفسه / باب من مات وليس له إمام: ٢٢٣/ ح ١.

(١١) كمال الدين وتمام النعمة / الشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ) ١: ٣٠ و٣١.

(١٢) فرائد السمطين / إبراهيم بن محمّد الجويني (ت٧٢٢هـ) ٢: ٣٣٤ / ح ٥٨٥.

(١٣) الاحتجاج / أبو منصور أحمد بن عليٍّ بن أبي طالب الطبرسي / (ق ٦هـ) ٢: ٥٤٢.

(١٤) المهدي المنتظر عليه السلام (دراسة في المستجدّات) / السيِّد محمّد الرئيسي: ٣٤.

(١٥) يُنظَر: الفصل الأوَّل من البحث.

(١٦) كمال الدين وتمام النعمة / الشيخ الصدوق ٢: ٥٨٤/ ب ٥٥/ ح ٣.

(١٧) المصدر نفسه: ح ١.

(١٨) كمال الدين وتمام النعمة ٢: ٥٨٤/ ب ٥٥/ ح ٤.

(١٩) كتاب الغَيبة/ الشيخ أبو جعفر محمّد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ): ١٨٥.

(٢٠) لماذا لست مسيحياً/ برتراند راسل: ١١.

(٢١) يُنظَر: عقيدتنا/ الشيخ عبد الله نعمة: ١٩ ـ ٣٠.

(٢٢) يُنظَر: رحلة عقل (هكذا يقود العلم أشرس الملاحدة للإيمان): ١٧٣ و١٧٦.

(٢٣) الحقيقة المهدويَّة (دراسة وتحليل)/ السيِّد منير الخبّاز: ٢١٧.

(٢٤) دروس في تاريخ الأديان: ٢٨.

(٢٥) أشار إليه الكاتب باعتباره أحد أساتذة اللغة الألمانية في جامعة لندن.

(٢٦) الوجه الحقيقي للإلحاد/ رافي زكرارياس: ٧٧.

(٢٧) أصل الأنواع/ تشارلس دارون: ٦٠.

(٢٨) نقلاً عن: الإسلام يتحدّى مدخل علمي إلى الإيمان/ وحيد الدين خان: ٣٦.

(٢٩) نقلاً عن الإسلام يتحدّى: ٤٣.

(٣٠) بداية المعارف الإلهيَّة ١: ٩.

(٣١) الدين (بحوث ممهِّدة لدراسة الأديان): ٨٧. عن: (Salomon Reinach/ Orpheus).

(٣٢) المرجع نفسه، عن: (Max Nordau/ Reponse au Mercure de France/ Paris/).

(٣٣) بداية المعارف الإلهيَّة في شرح عقائد الإماميَّة ١: ٢١.

(٣٤) المرجع نفسه: ١٩.

(٣٥) أُصول الكافي/ كتاب فضل العلم/ باب اختلاف الحديث: ٤٣/ ح ١٠؛ الاحتجاج ٢: ٢٦١/ باختلاف يسير.

(٣٦) الاحتجاج ٢: ٥١١؛ وعنه الحرّ العاملي (ت١١٠٤هـ) في: وسائل الشيعة ٢٧: ١٣١/ ب ١٠/ ح ٢٠.

(٣٧) الغَيبة/ الطوسي: ١٨٤؛ الاحتجاج ٢: ٥٤٣.

(٣٨) الاحتجاج ٢: ٥٠٢.

(٣٩) تهذيب الأحكام/ الشيخ أبو جعفر محمّد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ) ٦: ١١١/ ب ٦٢/ ح ٢.

(٤٠) هو محمّد بن محمّد بن النعمان، الشهير بالشيخ المفيد وابن المعلِّم (ت٤١٣هـ)، يُنظَر: الفهرست/ الشيخ الطوسي: ٢٣٨/ الرقم ٧١١.

(٤١) مثالهم في ذلك الإمام العسكري عليه السلام في إفشال التشكيك بالقرآن. يُنظَر: مناقب آل أبي طالب/ أبو جعفر محمّد بن علي بن شهر آشوب السروي المازندراني (ت٥٨٨هـ) ٤: ٤٥٧.

(٤٢) أبو سهل إسماعيل بن عليّ بن إسحاق بن أبي سهل بن نوبخت، يُنظَر: الفهرست/ الشيخ الطوسي: ٤٩/ الرقم ٣٦.

(٤٣) من أعلام الإلحاد (ت٢٤٥هـ).

(٤٤) من اللاأدرية، صاحب ابن الراوندي.

(٤٥) الفهرست / الشيخ الطوسي: ٤٩.

(٤٦) الفهرست / ابن النديم: ٢٥١.

(٤٧) يُنظَر: رجال النجاشي / أبو العبّاس أحمد بن عليٍّ بن أحمد بن العبّاس النجاشي الأسدي الكوفي (ت٤٥٠هـ): ٢٧٠ / الرقم ٧٠٨.

(٤٨) المصدر نفسه.

(٤٩) (١٨٣٨ - ١٨٩٧).

(٥٠) (١٨٦٥ - ١٩٣٣).

(٥١) (١٨٨١ - ١٩٥٩).

(٥٢) (١٨٨٩ - ١٩٥٧)، من شعراء المهجر، وقصيدته تُشعِر بأنَّه من اللاأدريين.

(٥٣) (١٩١٩ - ١٩٧٩).

(٥٤) (١٩٣٥ - ١٩٨٠).

(٥٥) أُصول الكافي / كتاب الحجَّة / باب أنَّ الراسخين في العلم هم الأئمَّة عليهم السلام: ١٢٢ / ح ٣.

(٥٦) المصدر نفسه / باب أنَّ الأئمَّة عليهم السلام يعلمون علم ما كان وما يكون وأنَّه لا يخفى عليهم الشيء (صلوات الله عليهم): ١٤٩ / ح ٢.

(٥٧) بحار الأنوار الجامعة لدُرَر أخبار الأئمَّة الأطهار / الشيخ محمّد باقر المجلسي. (ت١١١١هـ) ٥٢: ٣٧٨ / ح ١٨١.

(٥٨) الاحتجاج ٢: ٤٨١.

(٥٩) كتاب الغَيبة / الشيخ الطوسي: ١٨٣؛ الاحتجاج ٢: ٥٤١.

(٦٠) أُصول الكافي / كتاب فضل العلم / باب البدع والرأي والقياس: ٣٦ / ح ٥.

(٦١) كتاب الغَيبة / الشيخ الطوسي: ١٨٥.

(٦٢) المصدر نفسه: ١٧٩؛ الاحتجاج ٢: ٥٣٦.

(٦٣) كتاب الغَيبة / الشيخ الطوسي: ١٨٠؛ الاحتجاج ٢: ٥٣٦ و٥٣٧.

(٦٤) المصدر نفسه: ١٨٤؛ الاحتجاج ٢: ٥٤٤.

(٦٥) الاختصاص / الشيخ المفيد محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري البغدادي (ت٤١٣هـ): ٢٤٩.

(٦٦) يُنظَر: كتاب الفتن / أبو عبد الله نعيم بن حمّاد المروزي / (ت٢٨٨هـ): ٣٥٥ / ح ١٠٢٢، ٣٥٧ و٣٥٨ / ح ١٠٣٥.

(٦٧) الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد / الشيخ المفيد ٢: ٣٨٣. وفي الحديث دلالة واضحة على التشويه الذي ألحقه أعداء الإسلام / وأصحاب الأهواء به.

(٦٨) الإلحاد وأسبابه: ٨.

(٦٩) بشارة الإسلام في علامات المهدي عليه السلام / السيِّد مصطفى آل السيِّد حيدر الكاظمي (ت١٣٣٦هـ): ١٨٥.

(٧٠) بحار الأنوار الجامعة لدُرَر أخبار الأئمَّة الأطهار ٥٣: ٣٤ / ضمن الحديث ١.

(٧١) فرقٌ بيْنَ ما يُسمّى حواراً في أروقة اليوم بكلِّ الميادين، والحوار الذي يُجريه المعصوم عليه السلام، في طبيعته الهادئة الخالية من المغالطة والمراء ولغة التشهير والتسقيط (المعروفة اليوم)، ولا يبعد أن يكون نوعياً مدعماً بأدلَّة إعجازية أو حسِّية على شهود الأعيان.

(٧٢) أُصول الكافي / كتاب التوحيد / باب حدوث العالم / ح ١.

(٧٣) الصراع من أجل الإيمان (انطباعات أمريكي اعتنق الإسلام) / د. جفري لانغ: ٣٦٠ و٣٦١.

(٧٤) يُنظَر: كتاب الفتن: ٣٥١ / ح ١٠١٣.

(٧٥) يُنظَر: بحار الأنوار ٥٢: ٣٨٧ و٣٨٨ / ح ٢٠٥.

(٧٦) المصدر نفسه: ٣٨٩ / ح ٢١٠.

(٧٧) المصدر نفسه: ح ٢٠٧.

(٧٨) أُصول الكافي / كتاب الإيمان والكفر / باب وجوه الكفر: ٥٢٩ / ح ١.

(٧٩) يُنظَر: الردُّ على الدهريين / السيِّد جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ – ١٨٩٧م): ٢.

(٨٠) يُنظَر: الموسوعة العربية العالمية ٢٢: ٨٨.

(٨١) يُنظَر: المرجع نفسه ٢: ٥٢٨؛ ويُنظَر: رحلة عقل (هكذا يقود العلم أشرس الملاحدة للإيمان): ١٦٤.

(٨٢) مثال ذلك إلحاد هرتزل (١٨٦٠ – ١٩٠٤م) مؤسِّس الحركة الصهيونية؛ وإلحاد جولدا مائير (١٨٩٨ – ١٩٧٨م) رئيسة الوزراء الصهيونية (١٩٦٩ – ١٩٧٤م).

(٨٣) الغَيبة / الشيخ أبو عبد الله محمّد بن إبراهيم بن جعفر الكاتب (ابن أبي زينب النعماني) (ت حدود ٣٦٠ هـ): ٣٠٨ / ب ١٧ / ح ٤.

(٨٤) تفسير العيّاشي / محمّد بن مسعود العيّاشي (أواخر القرن ٣هـ) ٢: ٩٣ / ح ٥٢.

(٨٥) أُصول الكافي / كتاب الروضة: ٧٧٩ / ح ٢٨٨.

(٨٦) تفسير العيّاشي ١: ٢٠٧ / تفسير سورة آل عمران / ح ٨٢.

(٨٧) عصر الظهور / الشيخ عليّ الكوراني: ٢٦٣.

(٨٨) بحار الأنوار ٥٢: ٣٣٦ / ح ٧٣.

(٨٩) أُصول الكافي / كتاب العقل والجهل: ١٨ / ح ٢١.

(٩٠) الإرشاد ٢: ٣٨٤.

(٩١) عقد الدُّرَر في أخبار المنتظر وهو المهدي عليه السلام / الشيخ يوسف بن يحيى بن عليّ بن عبد العزيز المقدسي الشافعي السلمي (ت حدود ٦٨٥هـ): ٢٠٧، عن أبي سعيد الخُدري، عن النبي صلى الله عليه وآله.

(٩٢) بحار الأنوار ١٤: ٣٤٩ / ب ٢٤ / ح ١٠، عن الإمام الرضا عليه السلام.

(٩٣) تفسير العيّاشي ١: ٢٠٧ / تفسير سورة آل عمران / ح ٨٢.

(٩٤) تفسير العيّاشي ٢: ٩٣ / تفسير سورة براءة / ح ٥٠، عن الإمام الباقر عليه السلام.

(٩٥) عقد الدُّرر: ٢٨٣ / ح ٣٣٣.

(٩٦) أُصول الكافي / كتاب الحجَّة / باب أنَّ الأرض لا تخلو من حجَّة: ١٠٠ / ح ٢.

الشيخ حبيب عبد الواحد الساعدي
أستاذ في الحوزة العلمية / النجف الاشرف

التنمية الاقتصادية في دولة الإمام المهدي عليه السلام

تمهيد:

١ - المراد من التنمية الاقتصادية المهدوية:

لا نقصد بالتنمية الاقتصادية المفهوم الدارج لها المتمثل بالتنمية والتقدم الاقتصادي في بلد معين فحسب، بل المقصود من التنمية الاقتصادية في بحثنا ازدياد الثروة وتحقيق الرفاه الاجتماعي والعدالة الاقتصادية في العالم البشري بأسره، وأمَّا تحقق التنمية الاقتصادية في بلد دون بلد فلا تسمى تنمية اقتصادية بالمعنى الحقيقي لها، لأنها تنمية على حساب تردّي الاقتصاد في البلدان الأخرى. وهذا ما يميز الدولة المهدوية عن غيرها، فإنَّها جاءت لتحقيق العدالة الاقتصادية والرفاه الاجتماعي في جميع العالم البشري لا يستثنى منه شيء، وهذا يدل على عالمية الشريعة الإسلامية وعلى كونها لا تخص فئة معينة، وبناء على هذا فمفهوم التنمية الاقتصادية في الإسلام أوسع بكثير من المفهوم الدارج الذي يختص ببلد معين، حيث يتم تعيين التنمية الاقتصادية على أساس مقدار الدخل القومي والتوزيع العادل وإخفاض معدل البطالة في ذلك البلد[1].

٢ - أسباب تحقق التنمية الاقتصادية في الدولة المهدوية:

إنَّ التنمية الاقتصادية العالمية التي تستتبع العدالة الاقتصادية والرفاه الاجتماعي والسعادة الحقيقية هو حلم العالم البشري الذي لم يتحقق منذ العصور القديمة، بل وحتى في عصر النبي ﷺ وحكومة أمير المؤمنين عليه السلام وإلى الآن، ولكن هذا الحلم سيتحقق في عصر الظهور، والسر في عدم تحققه حتى الآن هو عدم توفر الأسباب التي توجب التنمية الاقتصادية، وفيما يلي إشارة إجمالية لهذه الأسباب.

يمكن تقسيم هذه الأسباب طبقاً لما يستفاد من التعاليم الإسلامية إلى قسمين:

القسم الأوَّل: الأسباب الطبيعية: وهي منظومة كبيرة مستفادة أيضاً من النصوص.

فأوَّلها: التخطيط: وقد ورد في القرآن الكريم ونصوص أهل البيت عليهم السلام الحث الشديد على التفكر، فهناك نصوص قرآنية كثيرة تحث على التفكر كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأنعام: ٥٠)، وتوجد آيات كثيرة على هذه الشاكلة[٢].

بتقريب: أنَّ البصير هو الذي يعتمد على تفكيره في التخطيط، فالتخطيط من مصاديق البصيرة والتفكير، وقد ورد في الروايات: «فكر ساعة خير من عبادة سنة»[٣]، بتقريب أنَّ التخطيط قبل العمل أفضل من العمل وإن كثر.

وثانيها: العمل الدؤوب والمستمر: وقد ورد الحث عليه في القرآن والروايات أيضاً، قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة: ١٠٥).

بتقريب: أنَّ قوله: ﴿اعْمَلُوا﴾ دال على مطلوبية العمل ومحبوبيته، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «لما مات إبراهيم

ابن رسول الله ﷺ رأى النبي ﷺ في قبره خللاً فسواه بيده، ثم قال: إذا عمل أحدكم عملاً فليتقن...»[٤]. ودلالة الحديث على الاستمرار لا تخفى فإنَّه رغم كونه في مصيبة إلَّا أنَّه بادر إلى الإتقان.

القسم الثاني: الأسباب الغيبية: وهي أيضاً منظومة كبيرة مستفادة من النصوص، كالدعاء والعمل بالأحكام وترك المعاصي وطاعة الباري (عزَّ وجلَّ) وامتثال أوامره. كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرضِ وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦).

بتقريب: أن هناك علاقة بين الإيمان والتقوى ونزول البركات من السماء والارض وكذلك توجد علاقة بين التكذيب وبين نزول البلاء والقحط والجدب، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ﴾ (هود: ٥٢)، وقال (عزَّ وجلَّ): ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً﴾ (نوح: ١٠-١٢). وهذه الآيات دالة بوضوح على أن التوبة والاستغفار لهما دور كبير في التنمية الاقتصادية وزيادة الأمطار والأموال والبنين والجنات والأنهار والرفاهية.

وهذان القسمان من الأسباب أحدهما مكمِّل للآخر، ولا يمكن الاستغناء عن أحدهما في تحقيق التنمية الاقتصادية، والعدالة الاقتصادية، والرفاه الاجتماعي، والمشكلة التي يعيشها العالم اليوم هو التبعيض في هذه الأسباب، فنجد المسلمين يتقنون الثاني ويعملون به، ولكنهم تناسوا أو نسوا القسم

الأول، في حين نجد غير المسلمين من الدول المتطورة قد عملت بالأوَّل وتناست أو نسيت الثاني، ولذا لا نجد التنمية الاقتصادية بالمعنى الحقيقي لها لا في العالم الإسلامي ولا في العالم غير الإسلامي، وهذان القسمان -أي الأسباب الطبيعية والأسباب الغيبية - يتحققان في عصر الظهور، وبذلك تحصل التنمية الاقتصادية في العالم البشري بأسره تبعاً لتحقق أسبابها.

وبفقدان أحد هذه الأسباب أو بعضها يمتنع الوصول إلى هذا الهدف، فالدولة الإسلامية لم تتحقق إلَّا في عصر النبي الأكرم ﷺ والإمام علي عليه السلام، وبالرغم من الصفات الكمالية التي كان يمتاز بها كل من رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام إلّا أن المجتمع آنذاك لم يكن مؤهلاً لتحقيق العدالة، ولذا كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول لهم: «ألا أنكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفة وسداد»[٥].

والقرآن الكريم ينص على أنَّ الهدف لا يتحقق إلّا من خلال التغيير الجذري لنفوس أفراد المجتمع، ولذا قال: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١)، ويقول في آية أخرى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرضِ﴾ (الأعراف: ٩٧).

إذن طبقاً للآيات المتقدمة يخضع نزول بركات السماوات والأرض لعوامل نشير إلى بعضها:

الأوَّل: التغيير الداخلي لأفراد المجتمع وصلاحهم.

الثاني: الإيمان والتقوى.

الثالث: أن تتصف جميع المجتمعات بهذه الصفة وهي الإيمان والتقوى وبناء النفس، ولذا لم يعبر القرآن الكريم (ولو أنَّ بعض أهل القرى)، بل قال: ﴿أَهْلَ الْقُرَى﴾،

فالكل ينبغي أن يتصف بهذه الصفة.

ومن هنا لا تَرِد الشبهة القائلة: إنَّ هناك أُناساً لا إيمان لهم ولا تقوى، ولكنهم يعيشون أعلى مستويات التنمية الاقتصادية.

إذ يجاب عنها: أنَّ هؤلاء إنما تمتعوا بذلك لأجل غصب حقوق الآخرين، ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ما متِّع غني إلّا بما جاع فقير»[٦]. نعم لو استطاعت الدول القضاء على الفقر في جميع العالم من دون الإيمان بالله تعالى واتقائه، فسيكون هذا نقضاً علينا، ولكن هذا مستحيل؛ لأنَّ عدم الإيمان بالله تعالى يقتضي - حسب الطبيعة البشرية غير الملتزمة بتعاليم السماء - سلب حقوق الآخرين. إذن التنمية الاقتصادية التي تسبب سعادة جميع البشرية وتحقق الرفاه الاجتماعي والعدالة الاقتصادية إنما تحصل في عصر دولة الإمام المهدي عجل الله فرجه.

والهدف من هذا المقال هو تبيين أبعاد هذه التنمية الاقتصادية على ضوء النصوص الدينية، ودراسة أسباب ازدياد الثروة وحصول التنمية، ثم نحاول بيان دور الحكومة المهدوية في تحقيق العدالة الاقتصادية والرفاه الاجتماعي.

والبحث يقع في ثلاثة محاور:

المحور الأول: معالم التنمية في الثروات الطبيعية:

عند ظهور الإمام المهدي عجل الله فرجه واستتباب الحكومة المهدوية يرتفع معدل التنمية في الثورة والمصادر الطبيعية إلى أعلى مستوياته، طبقاً لما وردنا من النصوص والروايات بشأن الوضع الاقتصادي في الحكومة المهدوية، فتخرج الأرض بركاتها بسبب وفرة الأمطار والأنهار والأودية والغدران، وتقدم الزراعة وازدياد محاصيلها وحصول التنمية في الثروة الحيوانية، وحصول التنمية في السكان واستخراج المعادن وكنوز الأرض والطاقة الكهربائية. ولأجل

التعرف على مقدار هذه التنمية الاقتصادية لابد من دراسة ذلك على ضوء ما بأيدينا من النصوص التي تعنى بذلك، ويتم الاقتصار على بيانها ومقدار هذه التنمية من دون الإلماع لسبب هذه التنمية الاقتصادية، كما يتم ترتيبها حسب أهمية المصدر الطبيعي ودوره الأساسي في تقدم الاقتصاد.

١ - تنمية المياه والأمطار النافعة:

المياه والأمطار هي أساس الحياة، ولولا المياه لم نجد كائناً حياً على وجه الأرض، كما أن للمياه والأمطار دوراً محورياً في تنمية الاقتصاد، فقلة المياه تنبئ عن تردّي الاقتصاد، كما أن وفرتها بشكل مناسب يؤول إلى تقدم الاقتصاد وتنميته ورُقيِّه، ولا ريب أن أحد الأسباب المهمة في تردِّي الاقتصاد في العصر الحاضر هو قلة الموارد المائية، ويرتفع مستوى المياه ووفرة الأمطار في عصر الحكومة المهدوية ويكون سبباً للتنمية الاقتصادية في هذه الدولة الكريمة، وقد دلت الروايات الشريفة على هذه الحقيقة.

فقد ورد عن رسول الله ﷺ: «... وتمطر السماء مطرها، وتخرج الأرض بركاتها، وتعيش أمتي في زمانه عيشاً لم تعشه قبل ذلك»[٧].

وقد روي عنه ﷺ: «يكون في أمتي المهدي عجل الله فرجه يملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، وتمطر السماء مطراً كعهد آدم عليه السلام وتخرج الأرض بركتها، وتعيش أمتي في زمانه عيشاً لم تعشه قبل ذلك في زمان قط»[٨].

وروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «وإذا آن قيامه مطر الناس جمادى الآخرة وعشرة أيام من رجب مطراً لم ير الخلائق مثله»[٩].

وعن سعيد بن جبير، قال: «إنّ السنة التي يقوم فيها القائم المهدي تمطر الأرض أربعاً وعشرين مطرة ترى آثارها وبركتها إن شاء الله»[١٠].

وفي رواية عن النبي الأكرم ﷺ: «... يرسل الماء عليهم مدراراً، ولا تدع الأرض شيئاً من نباتها إلّا أخرجته»[١١].

وعنه ﷺ أنّه قال: «... وتزيد المياه في دولته، وتمدُّ الأنهار، وتضعف الأرض أكلها وتستخرج الكنوز كلّها»[١٢].

وفي رواية عنه ﷺ: «... تمدّ الأنهار، وتفيض العيون، وتنبت الأرض ضعف أكلها»[١٣].

ووردت رواية تنص على أنّ الله تعالى يسقيه - أي المهدي عليه السلام - الغيث، وهي كالتالي:

عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «يخرج في آخر أمتي المهدي، يسقيه الله الغيث، وتخرج الأرض نباتها...»[١٤].

وزيادة المياه ناجمة عن زيادة المطر، وينجم عنها زيادة الأنهار وتوسعها طبيعياً.

٢ - التنمية الزراعية:

الزراعة من المصادر الطبيعية والثروات المهمة في تقدم عجلة الاقتصاد، فكلما ازداد المنتوج الزراعي أدى ذلك إلى حالة من التحسن ورفع مستوى الفقر، وبما أن الإنتاج الزراعي له ارتباط وثيق بطعام الإنسان الذي يحتاجه في كل يوم عدة مرات، فهذا يعني أن الإنتاج الزراعي له ارتباط بحياة الإنسان ومعيشته، وهذا الارتباط مصيري، ومع انعدام الإنتاج الزراعي أو تردّيه قد يؤدي إلى هلاك الإنسان على الأرض.

ويرتفع الإنتاج الزراعي في عصر الحكومة المهدوية ويصل إلى قمته، وتحصل تنمية في الإنتاج الزراعي، وهذه التنمية متفرعة على التنمية على مستوى المياه والأمطار التي تقدمت قبل قليل، فإنه إذا ازدادت الأمطار والمياه، سيساهم ذلك في تقدم الزراعة بجميع ألوانها، فيساهم في إصلاح الأراضي الزراعية، ونمو النباتات

الطبيعية.

ومن هنا نجد أن الروايات السابقة كانت تفرع النعمة الزراعية على وفرة الأمطار، مثل:

قوله ﷺ: «يرسل الماء عليهم مدراراً، ولا تدع الأرض شيئاً من نباتها إلّا أخرجته».

وقوله ﷺ: «يخرج في آخر أمتي المهدي، يسقيه الله الغيث، وتخرج الأرض نباتها...».

وفي الرواية التي تقدمت عن النبي ﷺ: «... تمدّ الأنهار، وتفيض العيون، وتنبت الأرض ضعف أكلها».

٣ - التنمية الحيوانية:

توفير المياه والنبات يؤدي إلى نمو الثروة الحيوانية، فمن الطبيعي أن تكثر الحيوانات الأليفة والصالحة للأكل، وقد دلت الروايات على ذلك:

قال رسول الله ﷺ: «يخرج المهدي في أمتي يبعثه الله غياثاً للناس، تنعم الأُمة وتعيش الماشية وتخرج الأرض نباتها ويعطي المال صحاحاً»[١٥].

وقال ﷺ: «يخرج في آخر أمتي المهدي، يسقيه الغيث، وتخرج الأرض نباتها، ويعطي المال صحاحاً، وتكثر الماشية وتعظم الأُمة»[١٦].

ويستفاد من هذه الروايات - لاسيما من التعبير و«تعظم الأُمة» - أن للتنمية الاقتصادية وازدياد الثروات الطبيعية دوراً كبيراً في تطور الأُمة وقدرتها الاقتصادية وعظمتها وعزتها، ومن هذا يُعلم أن أحد أهم مقومات الأُمة العزيزة والعظيمة هو التقدم الاقتصادي.

٤ - تنمية المعادن وكنوز الأرض:

المقصود بكنوز الأرض هي المعادن الباطنة في الأرض، كالذهب والفضة والحديد والنحاس والنفط وغيرها من المعادن، ولعل هناك كنوزاً موجودة في الأرض لم يتم العثور عليها حتى الآن، ولكن عند الظهور يتم العثور

عليها وزيادة هذه الموارد التي عبرت عنها الرواية الآتية بالكنوز ستؤثر على التنمية الاقتصادية مما يؤدي إلى وفرة الأموال وكثرتها ويحصل الرفاه الاجتماعي، وهذا ما تشير إليه الروايات التالية:

عن المفضل عن الإمام الصادق عليه السلام: «... تظهر الأرض كنوزها حتى يراها الناس على وجهها...»[١٧].

جاء عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنّه قال: «القائم منّا منصور بالرعب مؤيد بالنصر... وتظهر له الكنوز»[١٨].

عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «... وتزيد المياه في دولته، وتمدُّ الأنهار، وتضعف الأرض أكلها وتستخرج الكنوز كلّها»[١٩].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «المهدي من ولدي... يستخرج الكنوز...»[٢٠].

وفي رواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «... ويظهر الله له كنوز الأرض ومعادنها»[٢١].

ونلاحظ في هذه الروايات أن استخراج الكنوز تارة ينسب إلى نفس الأرض، أي أن الأرض تقوم بعملية إظهار الكنوز إلى الخارج فيراها الناس، وأخرى ينسب إلى نفس الإمام المهدي عجل الله فرجه حيث ورد في الرواية يستخرج الكنوز، وثالثة ينسب إلى الكنوز نفسها أي أن الكنوز هي التي تخرج نفسها، ورابعة ينسب إلى الفاعل المجهول، وخامسة ينسب إلى الله تعالى.

ولا ريب أن هذا التنوع في التعبير يكشف عن أنَّ جميع هذه الأمور دخيلة في استخراج الكنوز والمعدن فتجتمع الأسباب الطبيعية والغيبية على استخراج هذه الكنوز كما سنشير إلى ذلك فيما يأتي إن شاء الله تعالى.

٥ ـ التنمية السكانية:

من مصادر الطبيعة هو الإنسان نفسه، فإن الإنسان يعد أحد أهم المصادر الطبيعية في الأرض، بل من أفضلها، حيث إنه يمثل عنصراً منتجاً،

ولولا الإنسان لما وجد أي إنتاج على الأرض ولبقيت الثروة على حالها من دون فائدة، فهو في حد ذاته ثروة منتجة وليس ثروة راكدة. ولذا فزيادة السكان في حد ذاتها تنمية اقتصادية.

ويرى (توماس مالتوس) أن زيادة السكان تنافي التنمية الاقتصادية، لأن ازدياد السكان يكون على أساس متوالية هندسية، بينما يزيد الإنتاج الزراعي وفق متوالية حسابية، وهذا ما يؤدي حتماً إلى نقص الغذاء والسكن. والمفروض أن مصادر الثروة لا يمكنها تلبية كمٍّ هائلٍ من احتياجات السكان ويتسبب ذلك بزيادة معدل الفقر[٢٢]. ولكنه غفل عن أنَّ زيادة السكان عاملٌ مهمٌ في زيادة الإنتاج والدخل القومي، لأنَّ كل فرد من الإنسانية يُعدّ قوة منتجة، كما أنَّ التقدم التقني في وسائل الإنتاج له تأثير كبير على زيادة المحاصيل الزراعية والحيوانية بالنحو الذي يلبي حاجة البشرية بل أكثر، ولذا فازدياد السكان لا ينافي التنمية الاقتصادية، بل هو عاملٌ مهمٌ فيها.

وتشير بعض الروايات إلى زيادة السكان في عصر دولة الإمام المهدي عليه السلام حيث ورد فيها: «...ويعمر الرجل في ملكه حتى يولد له ألف ولد ذكر لا يولد له فيهم أنثى...»[٢٣].

بتقريب: أنَّ تعمير الإنسان أكثر مع بقاء قوته يؤدي إلى زيادة إنتاجه وتضاعف خدماته، وهذا من المعاني الكنائيّة التي يحتملها هذا النص.

٦ - التنمية على المستوى النوري والضوئي:

النور من المصادر الطبيعية التي نحصل عليها من الشمس، فإن ضياء الشمس له فوائد كثيرة من أهمها القدرة على رؤية الأشياء وإبصار الطريق، ودورها في إنتاج المحاصيل الزراعية، ولكن نور الشمس هذا فائدته وقتية، لأنه مختص بالنهار فقط،

أمّا في الليل فلا ضياء ولا نور، ومن هنا يحتاج الناس إلى النور البديل في الليل، بل في بعض الأماكن في النهار، فجاءت الاختراعات الكبيرة التي ساهمت في الحصول على الضياء في عصر الظهور وحكومة الإمام المهدي عجل الله فرجه، فإن هذا النور سيستمر حتى في الليل ويمكن للناس الرؤية ويتصل النهار بالليل، لكن لا بمعنى أن الشمس تبقى على حالها، لأن هذا خلاف النظام الفلكي التكويني الذي سَنَّه الله تعالى، فإن عملية الليل والنهار ناتجة عن حركة الأرض ومع فرض بقاء الشمس يحصل الفساد التكويني والنقض لقانون النظم.

بل المقصود بقرينة قوله عليه السلام في الرواية التي ستأتي «أشرقت الأرض بنورها» أي إنَّ النور موجود في الأرض وليس مستمداً من السماء، وهذا التعبير يدل على ازدياد الحصول على الطاقة من مصادر الأرض.

حيث ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن قائمنا إذا قام أشرقت الأرض بنورها واستغنى العباد عن ضوء الشمس وذهبت الظلمة....»[٢٤].

وهو من المعاني الكنائية عن استثمار الطاقة الأرضية في إيجاد النور المضاهي لوجود النور الشمسي.

هذا هو المعنى المستفاد من الرواية المتقدمة كما ويحتمل أن يراد منها معان أخرى:

المعنى الأول: أن يراد بالنور الذي يستغنى به عن نور الشمس هو نور العدل وتذهب الظلمة أي ظلمة الظلم والجور[٢٥].

وهذا المعنى وإن كان صحيحاً في نفسه، لكنه بعيد عن سياق الرواية، لأن نور الشمس نور حقيقي ونور العدل نور مجازي، ولا معنى لاستغناء العباد عن نور الشمس بنور العدل، لأن آثار نور الشمس تكوينية وآثار نور العدل اعتبارية.

المعنى الثاني: أن يراد أنَّ الناس يحتاجون إلى نور الشمس للزراعة

والمحاصيل الزراعية التي تمثل لهم الغذاء ومع وجود الغذاء من دون الحاجة إلى ضوء الشمس يستغني العباد عن ضوء الشمس[٢٦].

وهذا المعنى غير تام، لأن ضوء الشمس لا تنحصر فائدته في المحاصيل الزراعية، بل له فوائد كثيرة من أبرزها الضوء لتحقق الرؤية، والمقصود من استغناء العباد عن ضوء الشمس في تحقق الرؤية في الليل كما هو واضح لا الضوء لأجل الزراعة، ويدل على هذا قوله: «وذهبت الظلمة» أي ظلمة الليل، ويشهد على ذلك أن هناك في بعض النسخ للرواية «وصار الليل والنهار واحداً وذهبت الظلمة»[٢٧]، وهذا التعبير يؤكد المعنى الذي ذكرناه.

والحاصل: أن الطاقة تصل إلى درجة بفضل وفرة المصادر الطبيعية أن تكون أكثر الأماكن بل كلها، مضيئة، فيستغني الناس عن ضوء الشمس بمقدار الرؤية في الليل طبعاً.

المحور الثاني: أسباب تنمية الثروة والمصادر الطبيعية في عصر الظهور:

أشرنا في المحور الأول إلى التنمية الحاصلة في عصر الظهور وحكومة الإمام المهدي ﷺ، واتضح لنا معالم تلك التنمية ومقدارها في الثروة والمصادر الطبيعية. ولا ريب أن التنمية المذكورة لا يمكن أن تحصل اعتباطاً أو صدفة، بل تخضع إمّا للعوامل الإعجازية، أو العوامل المعنوية، أو العوامل المادية، أو تجتمع العوامل الإعجازية والمعنوية والمادية على تحقيق ذلك.

إذن هناك أربعة احتمالات نشير إليها:

الاحتمال الأول: العوامل الإعجازية:

إنَّ حصول التنمية الاقتصادية في عصر الظهور يرجع إلى أسباب إعجازية وليست أسبابه طبيعية

كازدياد الإنتاج، ومن المعلوم أنَّ هذا الاحتمال يحتاج إلى توجيه؛ لأن الأصل الأولي هو جريان الأمور على أسبابها ومسبباتها إلّا إذا اقتضت الحكمة الإلهية ذلك، لأجل إثبات الدين أو نصرة الدين وحاكمية الدولة الإلهية وغيرها من الأسباب.

وهذا الاحتمال يمكن أن يعضده عدة شواهد وقرائن:

١ - الوعد الإلهي: أن الله تعالى وعد في القرآن الكريم أن يظهر الدين الإسلامي على الدين كله، وهذا الوعد الإلهي يستفاد منه أن نصرة الدين تحتاج إلى التدخل الإلهي، وحيث إن التنمية الاقتصادية تحتل جانباً مهماً من رصانة الحكومة وقدرتها وسيطرتها، فلابد من أنْ توجد ولو بشكل إعجازي.

٢ - يستفاد من جملة من الروايات أن الإمام ﷺ منصور بالرعب كالنبي الأكرم ﷺ، أي إن هذا النصر يحصل من خلال التدخل الإلهي، وبما أن أحد دعائم قوة الدولة وانتصارها هو تقدمها على المستوى الاقتصادي وازدياد ثروتها وهو بحاجة إلى التدخل الإلهي والإعجاز كإرسال المطر بشكل غير معهود.

إلّا أن هذا الاحتمال يواجه مشكلة وهي القاعدة المتبعة في القانون الإلهي، حيث إن سنة الله جرت على أن تجري الأمور حسب أسبابها ومسبباتها، فمادام يمكن أن ترجع هذه التنمية الاقتصادية على جميع مستوياتها إلى عوامل طبيعية فلا حاجة إلى الإعجاز والتدخل الإلهي.

الاحتمال الثاني: العوامل المادية:

أن تكون هذه التنمية الاقتصادية نشأت من خلال العوامل المادية، وليس هناك أي نوع من الإعجاز فيها، فإن هناك عوامل مادية كثيرة تؤدي إلى تحقق التنمية الاقتصادية، نشير إليها:

منها: توفير فرص العمل إلى أعلى

المستويات والحد من البطالة، ومن المعلوم أن زيادة فرص العمل والحد من البطالة له تأثير كبير على نمو الاقتصاد.

ومنها: رفع مستوى الإنتاج، ومن المعلوم أن زيادة الإنتاج تؤدي إلى زيادة الدخل القومي، وذلك يزيد من مستوى التنمية الاقتصادية وغيرها من الأسباب المادية.

والعوامل المادية لا يمكن بمفردها أن تحقق التنمية الاقتصادية الحقيقية وقد أثبت لنا التاريخ أن الماديين إنما أصبحت دولهم نامية على أساس جوع وفقر الدول الأُخرى.

الاحتمال الثالث: العوامل المعنوية:

ونشير إلى جملة من هذه العوامل:

١ - الإيمان بالله تعالى والتقوى، وهذه سنة من سنن الله تعالى في الكون والحياة، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرضِ وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦).

٢ - الاستغفار فيمكن أن يكون جميع أفراد المجتمع في عصر الظهور مستغفرين لله تعالى، ومن الطبيعي أن ينتج ذلك غزارة الأمطار ونزول البركات، قال الله تعالى: ﴿وَيا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ﴾ (هود: ٥٢)، وقال (عزَّ وجلَّ): ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً﴾ (نوح: ١٠-١٢).

٣ - الالتزام بالمنهج الإلهي، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً﴾ (الجن: ١٦)، ومن الطبيعي أن يكون المجتمع المترقب لظهور الإمام ﷺ متوجهاً للاستغفار والتوبة، ولتقوى

الله، والالتزام بتعاليمه وأوامره، والانتهاء عن نواهيه، وكذلك وجود الدولة والحكومة العادلة التي ترعى كل ذلك وتوجه المجتمع نحو الله تعالى ليسمو ويتكامل في ظل المفاهيم والقيم والموازين الإلهية، وستتحقق سنة الله تعالى التي تتبع تلك المقدمات، وتكون جزاءً لإخلاص الإنسانية وتجردها لله تعالى بعد التمحيص الطويل الواقع في طريق العودة إلى المفاهيم والقيم الإلهية وجعلها الحاكمة على الأفكار والعواطف والممارسات.

الاحتمال الرابع: اجتماع العوامل الإعجازية والمعنوية والمادية:

إن التنمية الاقتصادية التي تحصل في عصر الظهور تابعة إلى العوامل الإعجازية القائمة على أساس الحكمة الإلهية لأجل نصرة الدين ولو كره المشركون، والتدخل الإلهي بهذا المقدار لا مشكلة فيه لأجل إنجاز الوعد الإلهي كما أنجز الله تعالى وعده لنبيه محمد ﷺ، وهذا المقدار من التدخل الإلهي لا ينافي وجود عوامل معنوية من قبيل أن يتمتع المجتمع في عصر الظهور بالإيمان والتقوى والاستغفار والالتزام بالدين الإسلامي بالإضافة إلى عوامل مادية كدور الدولة والحكومة المهدوية في التقدم الاقتصادي على مستوى العمل والإنتاج والعمران.

وأشار إلى هذا الاحتمال السيد محمد الصدر ﷺ حيث قال: «فكما دلت الروايات بأن من العلائم المقارِبة لظهور الإمام ﷺ التي تقع قبل الظهور بزمن قليل، نزول الأمطار الغزيرة، والمياه الكثيرة من السماء... وذلك استعداداً للظهور، بإنعاش الأرض إنعاشاً كافياً لتوفير الزراعة، نزول المطر ليس إعجازياً بطبيعة الحال، إلّا أن توقيته وكميته، كما يبدو من سياق الروايات أنها بقصد إعجازي»[٢٨].

وهـذا أقـرب إلى الواقـع مـن بـين الاحتمالات لعدة قرائن:

القرينـــة الأولى: أن الروايـــات المتقدمة ليس فيها إشارة تنفـي وجـود عوامل مادية أو معنويـة تسـاعد عـلى التنميـة الاقتصـادية عـلى المسـتوى الثروات، وليس فيها دلالة تعين كـون تلـك التنميـة عـلى أسـاس عوامـل إعجازية، وبناءً على هـذا، فالروايـات لا تنفي هذا الاحتمال.

القرينـة الثانيـة: أن هـذا الاحـتمال يساعد عليـه الطـابع العـام في المفـاهيم الإسـلامية، مـثلاً أن الله تعـالى يـأمر بالعمـل ويجعلـه أحـد أسـباب الـرزق، ومـن الواضـح أنـه سـبب مـادي، وإلى جانـب ذلـك يـأمر بالـدعاء والتوسـل بالأمور المعنوية، ويـذكر أنهـا تزيـد مـن الرزق، وهذا إن دل عـلى شيء دل عـلى أنَّ كلا العاملين المادي والمعنوي له تأثير في ازدياد الرزق والمقام من هـذا القبيـل أيضاً فإن التنمية الاقتصادية بشكل عـام أيضاً تابعة إلى هذين العاملين.

ومجموع هذه القرائن يجعلنا نرجح هـذا الاحـتمال فهـو الأنسـب حيـث نتيجتـه تقتـضي البحـث حـول دور الدولة والحكومة المهدويـة في التنميـة الاقتصـادية، وأمّـا لـو اقتـصرنا عـلى الاحتمال الأول فقد لا ينفـتح المجـال للبحث حول دور الحكومـة المهدويـة في التنمية.

المحـــور الثالـــث: دور الدولـــة المهدوية في التنمية الاقتصادية:

بـــالرغم مـــن وجـــود التـــدخل الإلهـي في نـصرة الإمـام المهـدي ﷺ، إلى جانـــب ذلـــك أســـباب طبيعيـــة وعمـــل دؤوب عـــلى إنجـــاح التنميـــة الاقتصـادية كـما تقـدم فـإنَّ للحكومـة وتـدبيرها الـدور الكبـير عـلى التقـدم الاقتصـــادي، كـــما أن للشـــعب وانســـجامه وإيمانـــه وتعاونـــه مـــع الحكومـــة الأثـــر البـــالغ في تحقيـــق التقـــدم الاقتصـــادي، فمـــن هـــذا المنطلـــق نحـــاول هنـــا الإشـــارة إلى

الأعمال التي تقوم بها الحكومة المهدوية لتحقق هذا التقدم الاقتصادي نقتصر فيها على ثلاثة نشاطات ضمن ثلاث نقاط:

النقطة الأولى: العمران في الأرض:

تشير الروايات إلى أنَّ العمران الذي يحصل في عصر الظهور يصل إلى أعلى مراتبه، فلا يبقى خراب إلّا عُمِّر، جاء عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنّه قال: «القائم منّا منصور بالرعب مؤيد بالنصر... وتظهر له الكنوز، ولا يبقى في الأرض خراب إلّا عُمِّر»[٢٩]، وتشتمل عملية العمران هذه على مراحل:

أولاً: تعبيد الطرق:

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إنّه إذا تناهت الأمور إلى صاحب هذا الأمر رفع الله تبارك وتعالى كل منخفض من الأرض، وخفض كل مرتفع منها حتى تكون الدنيا عنده بمنزلة راحته، فأيّكم لو كانت في راحته شعرة لم يبصرها»[٣٠].

وهذا الترتيب في الأرض إمّا أن نحمله على العمل الإعجازي وهو ممكن، أو نحمله على العمل الطبيعي، أو نحمله على كليهما، حيث يأتي الإعجاز في المجالات التي يتوقف عليها حين يعجز الإنسان عن عملها، وإلّا فكل أمر مقدور من قبل الإنسان يترك له للعمل بلا حاجة إلى معجزة.

وكذا الحال في الخبر المرفوع عن عبد الله بن عمرو بن العاص: (يخرج رجل من ولد الحسين من قبل المشرق، لو استقبلته الجبال لهدمها واتخذ فيها طرقاً)[٣١].

ثانياً: توسيع المساجد:

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إذا قام قائم آل محمد عليهم السلام بنى في ظهر الكوفة مسجداً له ألف باب، واتصلت بيوت أهل الكوفة بنهري كربلاء»[٣٢].

ولا مبالغة في مساحة هذا المسجد؛ لأنّ الناس سيقدمون من أغلب أنحاء العالم للصلاة خلف الإمام المهدي ﷺ، ومع كثرتهم لا يسعهم إلّا مسجد كهذا له ألف باب، إضافة إلى ذلك فإنّ الكوفة ستصبح عاصمة للعالم، وهذا يستلزم كثرة السكان فيها، وكثرة المسافرين والزوّار إليها، ففيها الإمام المهدي ﷺ وفيها الصالحون من أنصاره.

النقطة الثانية: القضاء على الطبقية والفقر:

ومن المعلوم إذا حصلت التنمية الاقتصادي على مستوى المصادر الطبيعية والثروة أثَّر ذلك إيجابياً على الحالة الاقتصادية عند الناس بسبب التوزيع العادل الذي يقيمه الإمام المهدي ﷺ، فإن الكنوز التي تظهر لا يختزنها الإمام في بيت المال كما تصنع سائر الحكومات، بل يتم توزيعها على المسلمين بالسوية، ومن هنا تنتفي الطبقية في المجتمع وينتفي الفقر ويصبح الجميع في حالة الرفاه الاقتصادي، ومن هنا يأتي بعض الناس بالزكاة فلا يجد فقيراً كما نطقت بهذا المعنى الرواية حيث تقول: «... ويطلب الرجل منكم من يصله ويأخذ منه زكاته فلا يجد أحداً يقبل ذلك منه واستغنى الناس بما رزقهم الله من فضله»[٣٣].

النقطة الثالثة: التطور التقني:

عن الإمام جعفر الصادق ﷺ، أنه قال: «إنّ قائمنا إذا قام مدّ الله لشيعتنا في أسماعهم وأبصارهم، حتى لا يكون بينهم وبين القائم بريد يكلمهم فيسمعون وينظرون إليه، وهو في مكانه»[٣٤].

وقال ﷺ: «إنّ المؤمن في زمان القائم وهو بالمشرق ليرى أخاه الذي في المغرب، وكذا الذي في المغرب يرى أخاه الذي في المشرق»[٣٥].

وهـذه الأخبـار كـان يُنظَـر إليهـا كـأمور إعجازيـة إلى وقـت قريـب، ناهيك عـن عـصر صـدورها، أمّـا في زماننا الحاضر فإنّ الأمر معقول جـداً، وسـيكون التطـور التقنـي في عـصر الظهـور رحمـة للنـاس جميعـاً، وأول الرحمة أنهم يرون إمامهم ويكلمّونه.

ووردت روايـات عديـدة حـول التطور التقني، ظاهرهـا الحمـل عـلى الأمر الإعجازي، ويمكن حملهـا عـلى التطور التقني، ويمكن الجمع بينهما.

عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، أنـه قال: «إذا أذن الإمام دعا الله باسمه... فأتيحت له صحابته الثلاثمائـة وثلاثـة عـشر قـزع كقـزع الخريـف وهـم أصحاب الألوية، منهم من يفقد عـن فراشه ليلاً فيصبح بمكة، ومـنهم مـن يرى يسير في السحاب نهاراً...»[٣٦].

ومعنى سيرهم في السـحاب نهـارا أن الله تعالى يـنقلهم إلى مكـة بواسـطة السـحاب عـلى نحـو الكرامـة والإعجاز، كما يحتمل أن يكون معنـاه مجيـئهم بواسـطة الطـائرات كسـائر المسافرين، بجـوازات سـفر بأسـمائهم وأسـماء آبـائهم، وتكـون الأحاديـث الشريفة عبرت بذلك لأن الطائرات لم تكن موجودة[٣٧].

وفي روايـة عـن الإمـام محمـد الباقر عليه السلام يشـير فيهـا إلى طـي الأرض قـائلاً: «... وتصـير إليـه شـيعته مـن أطراف الأرض، تطوى لهم طياً حتـى يبايعوه»[٣٨].

وعن الإمـام جعفـر الصـادق عليه السلام، أنه قال: «إذا قام القائم بعث في أقـاليم الأرض كلّ إقليم رجلاً يقول: عهدك في كفّك، فإذا ورد عليك ما لا تفهمـه ولا تعرف القضاء فيه، فانظر إلى كفك واعمل بما فيها»[٣٩].

وقـال عليه السلام: «ويبعـث جنـداً إلى القسـطنطينيّة، فـإذا بلغـوا إلى الخلـيج كتبوا على أقدامهم شـيئاً ومشـوا عـلى الماء، فإذا نظر إليهم يمشون عـلى المـاء قالوا: هؤلاء أصحابه يمشون على الماء فكيف هو؟ فعند ذلـك يفتحـون لهـم

باب المدينة فيدخلونها فيحكمون فيها بما يريدون»[٤٠].

وهذه الأخبار إمّا أن تحمل على ظاهرها وتفسر بالمعجزة، وإمّا أن تحمل على التطور التقني، وقد أشارت إليه الروايات بلغة الرموز لعدم استيعاب عقول ذلك الزمان لهذا التطور، وعدم إدراكهم لحقيقته. وفي جميع الأحوال فإنّ التطور التقني حقيقة موضوعية، وأنّ الحياة متوجهة نحو التطور عن طريق الإبداع والابتكار، والتطور ضروري في عهد الإمام المهدي ﷺ لقيام الحكومة العالمية وهي بحاجة إلى سرعة المواصلات والاتصالات.

تلخيص واستنتاج:

التنمية الاقتصادية هي ازدهار اقتصادي تتحقق بواسطته العدالة الاقتصادية والرفاه الاجتماعي في العالم البشري بأسره، وقمنا بدراسة تحليلية للروايات والنصوص الدالة على حصول التقدم الاقتصادي في الدولة المهدوية، حيث ينمو الاقتصاد وترتفع جميع المشاكل الاقتصادية بشكل عام ويتحقق الرفاه الاجتماعي والعدالة الاقتصادية بشكل منقطع النظير، ويرجع السبب في هذا التقدم طبقاً للنصوص؛ إلى نمو الثروة وازدياد المصادر الطبيعية كوفرة الأمطار التي تتبعها التنمية الزراعية والحيوانية وتخرج الأرض بركاتها وكنوزها، والسبب يعود إلى كمال الإنسان نفسه حيث يحصل تغيير في نفوس المجتمعات نحو الأفضل ويكونون على مستوى من الإيمان والتقوى، يضاف إلى ذلك التقدم العلمي والتقني الذي يتم من خلاله التعرف على جميع المصادر الطبيعية المخبئة تحت الأرض، علاوة على ذلك الجهود التي تبذلها الدولة المهدوية في مجال العمران والتوزيع العادل والقضاء على الفقر.

وتوصلنا من خلال عرض

المباحث المتقدمة إلى النتائج التالية:

١ - إن الثروات الطبيعية في عصر الظهور تصل إلى أقصى مستوياتها من قبيل مصادر المياه والتنمية الزراعية والحيوانية والمعادن والكنوز في الأرض والتنمية السكانية والتنمية على مستوى الطاقة الكهربائية.

٢ - إن العوامل والأسباب التي أدت على التنمية في الثروات الطبيعية الآنفة الذكر لا تنحصر بالعوامل الغيبية والإعجازية كما أن الأسباب الطبيعية ليست هي العامل الوحيد في تحقق هذه التنمية، بل اجتمعت العوامل الغيبية والعوامل الطبيعية على تنمية هذه الثروات الطبيعية.

٣ - هناك عدة شواهد وقرائن مستفادة من الروايات والنصوص الدينية تدل على أن العامل في تحقيق التنمية هو مجموعة عوامل طبيعية وغيبية ساهمت في تحقق التنمية الاقتصادية على صعيد الثروات الطبيعية.

٤ - إن للحكومة المهدوية الدور الفعال في تحقيق التنمية الاقتصادية على مستوى العمران والقضاء على الفقر والطبقية، والتطور التقني كما أن للمجتمع في عصر الظهور مساهمة مهمة في مشاركة الدولة في تحقيق التنمية الاقتصادية ورفع مستوى التطور الاقتصادي.

٥ - الشواهد والأدلة تشير إلى تحقق العدالة الاقتصادية والرفاه الاجتماعي، والأمن الاقتصادي في عصر الظهور، وذلك في ظل الدولة المهدوية والمجتمع الذي يساهم في تحقيق ذلك.

الهوامش:

(١) انظر: التنمية الاقتصادية - مايكل تودارو - استيفن اسميث: ص٢٨.

(٢) سورة آل عمران: ١٩١؛ سورة البقرة: ٢٦٦ و٢١٩.

(٣) عوالي الئالي - ابن ابي جمهور الاحسائي: ج٢، ص٥٧.

(٤) وسائل الشيعة – الحر العاملي: ج٣، ص٢٢٩.
(٥) نهج البلاغة: ج٣، ص٧٠، الكتاب ٤٥.
(٦) روائع نهج البلاغة: ص٢٩.
(٧) المصنف – ابن أبي شيبة الكوفي: ج٨، ص٦٧٨.
(٨) التشريف بالمنن في التعريف بالفتن – السيد ابن طاووس: ص٣٢٢.
(٩) الإرشاد – الشيخ المفيد: ج٢، ص٣٨١.
(١٠) الإرشاد – الشيخ المفيد: ج٢، ص٣٨١.
(١١) المجلسي – بحار الأنوار: ج٥١، ص٨٣.
(١٢) المقدسي – عقد الدرر في أخبار المنتظر: ص٨٣.
(١٣) الشيخ المفيد – الاختصاص: ص٢٠٩.
(١٤) الريشهري – ميزان الحكمة: ج١، ص١٨٧.
(١٥) بحار الأنوار: ج٥١، ص٨١.
(١٦) عقد الدرر في أخبار المنتظر – للمقدسي: ص١٤٤.
(١٧) الشيخ المفيد – الإرشاد: ج٢، ص٣٨١.
(١٨) مختصر إثبات الرجعة: ص٢١٦.
(١٩) عقد الدرر في أخبار المنتظر، للمقدسي: ص٨٣.
(٢٠) البيان في أخبار صاحب الزمان، الكنجي الشافعي، ص١٣٧.
(٢١) كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق، ص٣٩٣.
(٢٢) انظر: التنمية الاقتصادية، مايكل تودارو – استيفن اسميث، ص٢٩٦–٢٩٧.
(٢٣) الغيبة للشيخ الطوسي: ص٤٦٨.
(٢٤) نفس المصدر، وينظر: روضة الواعظين: ص٢٦٤.
(٢٥) لاحظ: الأنوار الساطعة في شرح الزيارة الجامعة للشيخ جواد بن عباس الكربلائي: ج٥، ص٣٠٠.
(٢٦) لاحظ الانوار الساطعة في شرح الزيارة الجامعة، الشيخ جواد بن عباس الكربلائي: ج٥ ص٣٠٠.
(٢٧) دلائل الإمامة، ابن جرير الطبري الشيعي، ص٤٨٦.
(٢٨) تاريخ ما بعد الظهور للسيد محمد الصدر: ص١٣٧.
(٢٩) مختصر إثبات الرجعة: ص٢١٦.
(٣٠) بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ج٥٢، ص٣٢٨.
(٣١) كتاب الفتن، نعيم بن حماد المروزي، ج١، ص٢٢٩.
(٣٢) الإرشاد للشيخ المفيد: ج٢، ص٣٨٠.
(٣٣) الإرشاد للشيخ المفيد: ج٢، ص٣٨١؛ وينظر: الغيبة للشيخ الطوسي: ص٤٦٨.
(٣٤) الكافي، للكليني: ج٨، ص٢٤٠–٢٤١.
(٣٥) بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ج٥٢، ص٣٩١.

(٣٦) بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ج٥٢، ص٣٦٨.

(٣٧) عصر الظهور، الكوراني العاملي، ج١، ص٢٧٦.

(٣٨) الإرشاد، للشيخ المفيد، ج٢، ص٣٧٩.

(٣٩) غيبة النعماني: ص ٣١٩

(٤٠) الملاحم والفتن، ابن طاووس، ص٥٣.

السيد كاظم الطباطبائي
ترجمة: السيد جلال الموسوي

دراسة التحوّلات في قراءة مفهوم (انتظار الفرج) في الغيبة الكبرى

تعتبر مسألة (انتظار فرج الإمام القائم عجل الله تعالى فرجه)، من جملة المفاهيم التي حظيت باهتمام كبير من قبل العلماء الشيعة، خاصّة بعد بداية الغيبة الكبرى لإمام العصر والزمان عجل الله تعالى فرجه. فمسألة انتظار الفرج وإن كانت معنونة في المجتمع الشيعي -كما تدلُّ على ذلك بعض الشواهد الروائية والتاريخية- في حياة بعض الأئمَّة السابقين عليهم السلام، إلّا أنَّ هذا المفهوم قد اكتسب أهمية خاصّة وتوجهاً لافتاً في المجتمع الشيعي عموماً، وعند علماء الشيعة خصوصاً.

وبمطالعة عابرة للمصادر الروائية الشيعية، والتي عنيت بنحوٍ من الأنحاء بهذا المفهوم أو المسألة، يكشف لنا جلياً بأنَّ تحوّلات مميزة قد حصلت -بمرور الزمن- في قراءة (مفهوم الانتظار).

وما نحاول معالجته في هذا المقال، هو:

أولاً: إراءة تقرير عن هذه التحوّلات.

وثانياً: الدواعي والظروف التي أدّت إلى حصول مثل هذه التحولات في قراءة مفهوم (انتظار الفرج)، لكي نتمكن من تبيين هذه التحولات في نهاية المطاف.

مطارحة المسألة:

سوف نتابع البحث في خصوص التحوّلات الحاصلة في مفهوم (انتظار الفرج) على ثلاث مراحل:

الأولى: طرح القراءات والرؤى السائدة في المجتمع الشيعي حول (انتظار الفرج) في الغيبة الكبرى، ونحاول هنا التعرف على التحوّلات الحاصلة في تلك الفترة. وفي هذا البحث سنرصد الآثار المهمّة والأساسية التي تتجلّى فيها آراء علماء الشيعة في هذا المجال.

وفي المرحلة الثانية، سنحاول تقييم وتحليل تلك التحوّلات التي سجّلناها في خصوص مسألة (انتظار الفرج) في مرحلة الغيبة الكبرى.

ثم ندرس في القسم الأخير، والمخصّص لتبيين التحولات، العوامل التي من شأنها إيجاد التحول في الطرح التفسيري[1] لهذا المفهوم بنحو يؤدّي إلى تغيير في قراءته السائدة في تلك البرهة، لتظهر قراءة جديدة.

ويبدو أنَّ مفهوم (انتظار فرج الإمام الغائب) يتشكل من ثلاثة عناصر أساسية:

الأول: مفهوم (الانتظار).

الثاني: مفهوم (فرج الإمام الغائب)، وفيما يخصّ مفهوم (انتظار الفرج)، فإنَّ مفهوم (الانتظار) بنفسه يتألّف من جهتين هما: (نوع الانتظار) و(طول زمان الانتظار).

الثالث: عنصر (الإمام الغائب). وهذا العنصر يمكننا عدُّه ثابتاً على طول زمن الغيبة الكبرى، فلا يخضع للتغير، فإنَّ المجتمع الشيعي في هذا الدور لم يختلف في مسألة (من هو الإمام الغائب). وعليه، فبنظرةٍ تحليلية، يمكننا أن نقول بوجود ثلاثة

عناصر أساسية ومهمّة في التأثير على الطرح التفسيري وهي: طول زمان الانتظار، وطرز ونوعية الانتظار، وعنصر مفهوم الفرج ونحو قراءته.

وقسم من هذا المقال مخصّص لدراسة الآراء والرؤى الرئيسية في مسألة (انتظار الفرج) على طول دور الغيبة الكبرى لإمام العصر ﷺ، أي في القرون الإحدى عشر الماضية.

وسنقسّم هذا الدور إلى ثلاث فترات، وندرس الآراء والقراءات المطروحة في (انتظار الفرج) في كلِّ فترة من هذه الفترات الثلاث، وهي:

١- القرن الرابع والخامس الهجري، وهما القرنان الأوّلان للغيبة الكبرى.

٢- القرن العاشر والحادي عشر الهجري.

٣- وأخيراً العصر الحاضر، وهو المقصود في هذا المقال، والذي يبدأ من نهضة المشروطة في إيران إلى يومنا هذا.

فالدور الأوّل، هو الدور الذي كانت فيه حكومة آل بويه[٢]، والدور الثاني، أي القرن العاشر والحادي عشر للهجرة، هو دور اقتدار وسلطنة الحكومة الصفوية في إيران[٣].

وفي الدور المعاصر، وبالتحديد من نهضة المشروطة وما بعد ذلك، نشاهد إقبال علماء الشيعة نحو عرصة السياسة وتأثيرهم فيها.

١- تقرير عن التحولات في المسألة:

ونهتم في هذا القسم بإراءة تقرير عن القراءات والتوجّهات الموجودة في المجتمع الشيعي في مسألة (انتظار الفرج) للإمام القائم ﷺ.

والهدف من طرح هذا البحث هنا، رصد التحوّلات الحاصلة في هذه القراءات والتوجهات منذ بداية الغيبة الكبرى وعلى مرِّ القرون الإحدى عشر التالية لها، واستناداً إلى ما تقدم منّا في المقدّمة، فإنّنا سنقسّم

البحث إلى ثلاثة أقسام. القسم المتعلّق بالقرنين الرابع والخامس، والقسم المتعلّق بالقرنين العاشر والحادي عشر، والقسم المختصّ بالفترة المعاصرة.

١-١. القرن الرابع والخامس الهجري:

لقد كان للقرن الرابع والخامس الهجري، بالنسبة للمجتمع الشيعي، دورٌ مهم. فهاذان القرنان هما القرنان الأوّلان في الغيبة الكبرى للإمام الثاني عشر عليه السلام، حيث ابتُلي المجتمع الشيعي في بداية الغيبة الكبرى بنوعٍ من الحيرة والاضطراب العقدي، استطاع اجتيازها من خلال استجماع مبانيه الفكرية وصفّها إلى بعضها البعض.

ومن جملة علماء الشيعة الذين برزوا في هذا المضمار في تلك القرون الأولى من الغيبة الكبرى، والذين اهتمّوا كثيراً بمسألة انتظار فرج الإمام القائم عليه السلام، أبو عبد الله محمد بن جعفر النعماني، المشهور بالشيخ النعماني، والذي كتب كتاباً باسم (الغيبة)، حول موضوع غيبة الإمام الثاني عشر عليه السلام.

ويذكر الشيخ النعماني رحمه الله في مقدّمة كتابه، نقاطاً مهمّة في خصوص مسألة غيبة الإمام الثاني عشر عليه السلام، يمكنها أن تكشف عن رؤية المجتمع الشيعي الاثني عشري الذي عاصره الشيخ النعماني.

فالشيخ النعماني رحمه الله في بداية هذا الأثر القيم، وبعد أن يعتب على بعض المجاميع في المجتمع الشيعي، الذين انحرفوا عن المذهب الشيعي الاثني عشري ومالو إلى الطوائف الأخرى، يقول: (فقصدت القربة إلى الله (عزَّ وجلَّ) بذكر ما جاء عن الأئمة الصادقين الطاهرين عليهم السلام من لدن أمير المؤمنين عليه السلام إلى آخر من روي عنه منهم في هذه الغيبة التي عمي عن حقيقتها ونورها من أبعده الله عن العلم بها،

والهداية إلى ما أوتي عنهم عليهم السلام فيها ما يصحح لأهل الحق حقيقة ما رووه ودانوا به وتؤكد حجتهم بوقوعها، ويصدق ما آذنوا به منها.

وإذا تأمل من وهب الله تعالى له حسن الصورة، وفتح مسامع قلبه، ومنحه جودة القريحة، وأتحفه بالفهم وصحة الرواية بما جاء عن الهداة الطاهرين (صلوات الله عليهم) على قديم الأيام وحديثها من الروايات المتصلة فيها، الموجبة لحدوثها، المقتضية لكونها مما قد أوردناه في هذا الكتاب حديثاً حديثاً...

علم أن هذه الغيبة لو لم تكن ولم تحدث مع ذلك ومع ما روي على مر الدهور فيها لكان مذهب الإمامة باطلاً، لكن الله تبارك وتعالى صدق إنذار الأئمة عليهم السلام بها، وصحح قولهم فيها في عصر بعد عصر، وألزم الشيعة التسليم والتصديق والتمسك بما هم عليه، وقوي اليقين في قلوبهم بصحة ما نقلوه، وقد حذر أولياء الله (صلوات الله عليهم) شيعتهم من أن تميل بهم الأهواء، أو تزيغ بهم وبقلوبهم الفتن واللأواء في أيامها، ووصفوا ما يشمل الله خلقه به من الابتلاء عند وقوعها بتراخي مدتها، وطول الأمد فيها ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

... وقد جمعت في هذا الكتاب ما وفق الله لجمعه من الأحاديث التي رواها الشيوخ عن أمير المؤمنين والأئمة الصادقين عليهم السلام أجمعين في الغيبة وغيرها مما سبيله أن يضاف إلى ما روي فيها بحسب ما حضر في الوقت، إذ لم يحضرني جميع ما رويته في ذلك لبعده عني وأن حفظي لم يشمل عليه، والذي رواه الناس من ذلك أكثر وأعظم مما رويته ويصغر ويقل عنه ما عندي وجعلته أبواباً...)[٤].

وبهذا يمكننا أن نستكشف بأنَّ النعماني رحمه الله، كان في صدد بيان أنَّ فكرة

غيبة الإمام القائم عليه السلام، فكرة حاضرة في الفكر الشيعي منذ بداية وجوده، وليست مسألة عويصة تؤدّي إلى ما ابتلي به بعض المجتمع الشيعي من الحيرة واليأس، بل إنَّ على هؤلاء انتظار فرج الإمام عليه السلام.

ومن جملة العلماء الذين برزوا في هذه الفترة، والذين تصدّوا لمعالجة مسألة الغيبة وانتظار فرج الإمام الثاني عشر، الشيخ الصدوق رحمه الله، فإنَّه قد جعل مسألة غيبة إمام العصر عليه السلام، محور كتابه (كمال الدين وتمام النعمة).

وهذا الكتاب يعدُّ في حقيقته كتاباً موازياً لكتاب (الغيبة) للنعماني، بمعنى أنَّه يتضمّن ملامح الفكر الشيعي الرئيسية في مسألة الإمام الغائب عليه السلام، بنحو مبسوط، مشفوعاً بالروايات الدالّة على هذه القضية.

وقد خصَّص الصدوق رحمه الله قسماً من هذا الأثر لجمع الروايات الصادرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمَّة المعصومين عليهم السلام، تلك الروايات المشيرة إلى مسألة الغيبة[٥].

وبذلك، يبدو لنا بأنَّ الشيخ الصدوق رحمه الله كان أيضاً بصدد بيان أنَّ مسألة غيبة الإمام القائم عليه السلام، وظهوره في الزمان الذي تتوفر فيه الأرضية المناسبة، كانت قد طرحت على الدوام على لسان المعصومين عليهم السلام، وإنَّ على المجتمع الشيعي أن يعيش حالة الانتظار لهذا الظهور.

وفي هذا الدور من الأدوار الثلاثة، والذي خصّصناه لدراسة توجّه الشيعة، وقراءتهم لمسألة (انتظار فرج الإمام القائم عليه السلام)، لابدَّ لنا من ذكر الشيخ المفيد رحمه الله باعتباره أحد علماء الشيعة البارزين، الذين كانت لهم أدوار في مسألة (انتظار الفرج). فالشيخ المفيد رحمه الله، تعرّض لمسألة الغيبة في مجموعة من رسائله، وأجاب عن الشبهات المطروحة في هذا الموضوع في عدّة مواضع من مصنفاته[٦].

فمن جملة الأسئلة التي تناولها الشيخ المفيد رحمه الله بالردِّ والجواب، مسألة

الفائدة من معرفة الإمام القائم عليه السلام في حال غيبته. فالشيخ المفيد في معرض الجواب عن هذا السؤال يتعرض لمسألة انتظار فرج الإمام القائم عليه السلام من قبل شيعته، وأنَّ انتظار الشيعة لفرج إمامهم هو بمثابة العبادة وله ثوابها، وأنَّهم بذلك الانتظار يدرؤون عن أنفسهم العقوبات الكبيرة[٧]،[٨].

كما ينبغي التنويه بأحد كبار علماء الشيعة في تلك الفترة، وهو شيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي رحمه الله، فإنَّ له دوراً بارزاً في هذا المضمار، حيث ألَّف كتاب (الغيبة) في أحوال وغيبة الإمام الثاني عشر عليه السلام.

فالشيخ الطوسي رحمه الله في هذا الكتاب يجيب أساساً عن الشبهات التي كانت بعض الفرق والمذاهب الفكرية تطرحها في خصوص مسألة غيبة الإمام الثاني عشر عليه السلام، سواءً كانوا من الشيعة أو من غيرهم[٩].

وفي الأقسام الأخرى من هذا الكتاب، يتعرض الشيخ الطوسي رحمه الله إلى مسألة عمر الإمام الغائب عليه السلام[١٠]، سفراء الإمام الغائب عليه السلام[١١]، تشرفات بعض الأشخاص بالإمام عليه السلام من غير أن يعرفوه[١٢]، ومسائل مشابهة أُخرى.

كما إنَّ الشيخ الطوسي رحمه الله، كان قد خصّص قسماً من كتابه لمسألة العلامات الحاكية عن قرب خروج إمام العصر عليه السلام[١٣].

إنَّ دراسة آراء الشيخ المفيد والشيخ الطوسي (رحمهما الله) حول مسألة (انتظار الفرج) تكشف عن أنَّ رأي هذين العَلَمين مكمل للرأي الظاهر من آثار ومصنّفات الشيخ النعماني والشيخ الصدوق (رحمهما الله)، وهو التأكيد على غيبة الإمام الثاني عشر عليه السلام عن أنظار المجتمع الشيعي، ولكنّه حيٌّ خلف الستار، وإنَّ على الشيعة انتظار ظهوره الشريف في كلِّ آن.

١-٢: القرن العاشر والحادي عشر للهجرة:

صادف القرن العاشر والحادي عشر للهجرة، استقرار الصفوية في إيران، حيث أعلن في وقتها أنَّ المذهب الرسمي للدولة هو المذهب الشيعي الاثنا عشري.

ولقد تحسّنت أوضاع المجتمع الشيعي، اجتماعياً وسياسياً، في هذا الدور من أدوار الغيبة، واستطاع الكثيرون من علماء الشيعة تأليف الكتب والآثار الروائية.

فكان العلّامة المجلسي ﵀ من بين المحدّثين البارزين في هذه الفترة. فمن جملة الموارد التي يمكن من خلالها التعرّف على رؤية ومواقف العلّامة المجلسي في مسألة (انتظار فرج القائم ﵇)، معالجته لمسألة (البداء) في أمر ظهور وفرج الإمام القائم ﵇. فالعلّامة المجلسي، في كتابه (بحار الأنوار) يتناول الروايات التي تضمّنت قرب ظهور وفرج إمام العصر ﵇، ويقول بأنَّ هذه الروايات صدرت عن المعصومين ﵈ من باب التورية، ولا يمكن استفادة (البداء) واستنتاجه منها.

ويعتقد العلّامة المجلسي ﵀، بأنَّ الأئمَّة ﵈ إذا كانوا يريدون إخبار شيعتهم بأنَّ ظهور إمامهم الغائب لن يكون قريباً، وإنَّه سيظهر بعد فترة وغيبة طويلة، فإنَّ ذلك كان سيؤدّي إلى يأس بعض الشيعة وتخلّيهم عن الحقّ، ولذا فإنَّ الأئمَّة ﵈ اعتبروا الظهور قريباً، أو إنّهم كانوا يقولون: يحتمل أن يكون الفرج قريباً، لإبقاء الناس ثابتين على الدين فيثابون على الانتظار(١٤).

ولتكميل البحث في مسألة ظهور الإمام القائم ﵇ بعد انتظار طويل، وللتأكيد على هذه القضية أكثر، فإنَّ العلّامة المجلسي ﵀ عقد باباً في كتابه (بحار الأنوار) تحت عنوان (ذكر أخبار المعمّرين)، لرفع استبعاد

المخالفين لطول غيبة مولانا القائم عجل الله فرجه الشريف[١٥].

وهذا النوع من الأبحاث، كان له دور أساسي في الفترة التي عاشها العلّامة المجلسي رحمه الله، باعتبار الفاصل الزماني الكبير بين بداية الغيبة الكبرى للإمام المهدي عليه السلام وبين عصر العلّامة المجلسي، وكما أسلفنا فإنَّ تلك الفاصلة الزمانية كانت أكثر من الزمن الذي يستفاد من مضمون الروايات الواردة في أمد الغيبة.

ومن جملة كبار العلماء الشيعة البارزين في هذين القرنين، والذين اهتمّوا بمسألة (انتظار الفرج)، المولى صالح المازندراني. فقد استعرض هذا العالم الجليل موضوع (الانتظار) في ذيل شرحه لروايةٍ عن الإمام الصادق عليه السلام والتي يجيب فيها عن سؤال طرحه أبو بصير -وهو أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام - حول زمان الفرج، حيث يسأله الإمام الصادق عليه السلام عن كونه من الذين يطلبون الدنيا؟ ثم يضيف الإمام عليه السلام بأنّ من عرف هذا الأمر فإنَّ في انتظاره لهذا الأمر فرجه[١٦].

ويقول المولى صالح المازندراني في شرحه لهذه الرواية، بأنَّ المقصود من (الفرج) في سؤال أبي بصير، هو حصول الفسحة والفرجة للشيعة بظهور حضرة صاحب الزمان عجل الله فرجه الشريف. ثم يشرح جواب الإمام الصادق عليه السلام ويقول بأنَّ المقصود من كون أبي بصير من طلّاب الدنيا هو أنّه يطلب الراحة في هذه الدنيا، وإنّه يتصور بأنَّ الظهور يعني الدعة والرفاهية في العيش.

ثم يضيف المولى المازندراني بأنَّ ذلك أمرٌ بسيط وسهل، ولكنَّ المقصود الحقيقي من الفرج هو الفرج والراحة الأخروية، المقترنة بالخلاص والتحرّر من العذاب الأبدي، وإنَّ مثل هذا الفرج حاصل له بانتظاره حتّى لو لم يبق حياً إلى زمان الظهور، وذلك لأنّه عارف بأمر ظهور الإمام

القائم عليه السلام معتقد به وبغيبته، وهو من المنتظرين له. ولذا، فإنَّ كلَّ من عرف هذا الأمر، فإنَّ الله تعالى سيفرّج عنه[١٧].

وثالث العلماء الذين تعرّضوا لمسألة (انتظار الفرج) في القرنين العاشر والحادي عشر ممن نذكرهم في هذا البحث، المولى محسن الفيض الكاشاني رحمه الله.

فقد استعرض المولى الفيض الكاشاني في كتابه (الوافي) شرحاً لرواية عن الإمام الصادق عليه السلام، وهي رواية موجودة في أصول الكافي، حيث ورد فيها أنَّ أبا بصير يسأل الإمام الصادق عليه السلام عن زمان الفرج.

يقول الفيض الكاشاني في شرحه لهذه الرواية، بأنَّ المقصود من كلام الإمام الصادق عليه السلام هو إنَّ من يعرف هذا الأمر -وهو أنَّ الإمام الغائب عليه السلام لابدَّ أن يظهر يوماً ما- سينال الفرج والخلاص، لأنَّه بمعرفته لهذا الأمر، سيكون من المنتظرين لظهور الإمام القائم عليه السلام، وانتظار ظهوره من أفضل العبادات كما جاء في بعض الروايات[١٨].

وعليه، فمن كان عارفاً لهذا الأمر، فإنّه حتى إذا أراد درك ظهور الإمام عليه السلام، فلن يكون انتظاره للظهور من أجل المصالح الدنيوية ورفاهية العيش في هذه الدنيا، وإنّما سيكون هدفه رضا الله وطاعته والخلاص من العقاب الأخروي[١٩].

وما يتصور من إنَّ الحياة في زمن صاحب العصر والزمان عليه السلام، ستكون حياة سعة ورفاهية، فإنَّ هذا التصور مبتنٍ على الانفراج الذي سيحصل في الحياة الاجتماعية والسياسية الشيعية.

١-٣: الزمن المعاصر:

لقد شاهدنا، في الزمن المعاصر، وبعد نهضة المشروطة في إيران، عدَّة علماء شيعة تناولوا مسألة (انتظار ظهور الإمام الغائب عليه السلام)، وجعلوها

مادّة تفكيرهم ومؤلّفاتهم. ومن بين هؤلاء العلماء الذين بحثوا هذه المسألة في زمننا الحاضر، العالم الجليل علي أكبر الهمداني حيث كتب كتاباً في غيبة الإمام القائم عليه السلام تحت عنوان (تكاليف الأنام في غيبة الإمام)، ونشر هذا الكتاب سنة (١٣١٧هـ)، حيث يستعرض الهمداني في كتابه تكاليف الشيعة تجاه مسألة (فرج الإمام القائم عليه السلام)، في دور الانتظار.

ومن جملة الأمور التي اعتبرها هذا العالم تكليفاً للشيعة في كتابه هذا، هو أنَّ على المجتمع الشيعي أن يتحمّل الصعاب في زمن الغيبة فيما إذا واجه الظلم والجور من قبل الأعداء، وأن يحبسوا غصصهم في صدورهم فلا ينفعلوا، بل عليهم أن يتحلّوا بالصبر وانتظار فرج الإمام عليه السلام، وأن يدعوا له بالفرج.

وكان المولى علي أكبر الهمداني يعتقد بعدم جدوى المواجهة المسلّحة مع أهل الباطل، ولا الخروج عليهم في زمن الغيبة[٢٠].

ومن بين علماء الشيعة الذين تصدوا لدراسة مسألة (فرج الإمام القائم عليه السلام)، السيد محمد تقي الموسوي الأصفهاني ففي كتابه (مكيال المكارم) يبحث في رواية ينقلها عن كتاب (الكافي)، جاء فيها إنَّ أبا بصير يسأل الإمام الصادق عليه السلام حول زمان الفرج[٢١]، وقد تقدّم مضمون سؤال أبي بصير وجواب الإمام الصادق عليه السلام، والتي ذكرها العلّامة المجلسي في كتابه بحار الأنوار[٢٢]، وذكرها الكليني رحمه الله في الكافي[٢٣].

وبعد نقل العلّامة محمد تقي الموسوي الأصفهاني لهذه الرواية يقول: (بأنَّ الأكثرين من الشيعة كانوا يعتقدون بأنَّه إذا ما وصل زمان فرج الإمام عليه السلام، واستلامه لزمام الأمور السياسية للمسلمين، فإنَّ الأرضية ستكون مناسبة للشيعة لتحسين أوضاعهم المعاشية ورفاههم وراحتهم). ثم يبدأ الموسوي

الأصفهاني بنقد هذه الرؤية ويعتبرها نوعاً من طلب الدنيا، استناداً إلى جواب الإمام الصادق عليه السلام لأبي بصير. ثم يضيف قائلاً (بأنَّ المقصود من انتظار الفرج، ليس وصول زمان الراحة والدعة والتلذّذ بنعيم الدنيا، بل المقصود وصول زمان نصرة الإمام المهدي عليه السلام والجهاد معه)[٢٤].

وبعد السيد محمد تقي الموسوي الأصفهاني، لابدَّ أن نتناول رؤية جمع من العلماء الشيعة المعاصرين، وعلى رأسهم السيد محمود الطالقاني، الذي كانت له قراءة متفاوتة عن فكرة (انتظار الفرج). ولمّا كانت هذه القراءة تطرح لأوّل مرّة من قبل هذا العالم الذي بلور ملامحها، فإنّنا سنجعله محور دراستنا على الرغم من إنّها لا تنحصر به فقط، بل يشاركه فيها آخرون.

ففي كتابه (المهدي ومستقبل البشرية)، يتعرض لبحث ظهور الإمام القائم عليه السلام، ودوره في حياة المجتمع الشيعي.

فالطالقاني يقرأ قضية ظهور الإمام القائم عليه السلام والانتظار بقراءة تبعث الأمل في المجتمع الشيعي، وتحثّهم على السعي والنشاط في الحياة. فهو يؤكد على إنَّ هذه الرؤية والقراءة للظهور، هي التي تحيي الأمل وتدفع اليأس والخوف من الهزيمة في المجتمع الشيعي، وبذلك تضمن حياة وبقاء الشيعة[٢٥].

وفي تأليف آخر للسيد الطالقاني، يشير إلى نقطة أُخرى، وهي إنَّ بعض مجاميع المجتمع الشيعي يأملون – جهلاً– من انتشار الفساد وظهور الفحشاء في المجتمع تعجيلاً للظهور، ويعتبرون ذلك من علائمه. ولذا، فهو يحاول تفنيد هذه الدعاوى ويعلن مخالفته لها بكلِّ صراحة. ويعتقد السيد الطالقاني بضرورة الحذر والابتعاد عن المواقف المنفعلة تجاه هذه الظروف، بل لابدَّ من التحلّي بالصبر والصمود أمام مطبّات الحياة وإعداد مقدّمات

النهضة العالمية. ولكنَّه في نفس الوقت يذمُّ اللاأُبالية وعدم الاكتراث المطلق والصبر المحض وعدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٢٦].

ومن جملة محقّقي الشيعة الآخرين في العصر الحاضر، والذي عالج مسألة انتظار الظهور وأبدى رأيه فيها، سماحة السيد موسى الصدر.

فبنظر السيد موسى الصدر، فإنَّ (انتظار الفرج) لا يعني السكوت على الظلم والفساد، فإنَّ ذلك عنده بمثابة عدم الانتظار والاستسلام، بل إنَّ معنى (انتظار الفرج) هو الإعداد والاستعداد والتعبئة وتربية الكوادر والطاقات وحشد القوى والإعداد الروحي، النفساني، الفكري، المعنوي، الجسدي، التكنولوجي والعسكري. ويؤكد على إنَّ انتظار الفرج لا يعني حصول انقلاب مفاجئ في العالم، وإنَّما يعني بأنَّ على المجتمع الشيعي أن يتكاتف دائماً، وأن يكون على أهبة الاستعداد، وبذلك يعدُّ نفسه للظهور لا أن يتهرب من المسؤولية[٢٧].

وفي مقام بيان آراء علماء الشيعة الآخرين الذين تصدّوا لبيان مسألة (فرج الإمام القائم عليه السلام)، في الزمن المعاصر، لابدَّ من معرفة رؤية الشيخ ناصر مكارم الشيرازي.

ففي كتابه (المهدي الثائر الكبير) يتعرض لبحث مسألة (انتظار فرج الإمام القائم عليه السلام). ويؤكد الشيرازي على نقطة مهمّة، وهي إنَّ بحث (انتظار الفرج) في الزمن المعاصر، يتألّف من عنصرين أساسيين: الأوّل عنصر (النفي)، بمعنى نفي الظروف الموجودة. والعنصر الثاني، عنصر (الإثبات)، بمعنى إرادة الظروف الأفضل[٢٨] وبذلك يظهر أنَّ رؤية هذا العلم هي أنَّ (انتظار الفرج) لا يعني الخنوع وقبول الوضع الموجود على ما هو عليه.

وفي موضع آخر من كتابه، يؤكد الشيخ ناصر مكارم الشيرازي على إنَّ

من الواجب علينا القيام بأمرين أساسيين في دور انتظار فرج الإمام القائم عليه السلام، الأوّل: مكافحة العوامل السلبية الموجودة في المجتمع الشيعي. والثاني: إعداد الناس لاستقبال أصول الحكومة المهدوية العالمية. فهو يرى إنَّ (انتظار الفرج) منهج ومخطّط يشمل كلُّ المجالات، وتحضير لدورة فرج الإمام القائم عليه السلام وحكومته العالمية[٢٩].

وأخيراً، لابدَّ من ذكر السيد محمد الصدر، من بين مفكري الشيعة المعاصرين، والذي استعرض قراءة جديدة لمفهوم (انتظار الفرج). ففي كتابه الموسوم (الرسالة الإسلامية في عصر الغيبة)، يتناول رواية (أفضل الأعمال) بالتحليل والدراسة، فيذكر آراءً متعدّدة في تفسيرها[٣٠].

فالسيد محمد الصدر، يعتقد بأنَّ مسألة (انتظار الفرج) يجب أن تتعدّى الحدود الشخصية، وترقى إلى المواقف الاجتماعية العامّة، فمِنْ جَعْل (انتظار الفرج) من أفضل الأعمال في الروايات، نستكشف أنَّها أساس من أسس الدّين الإسلامي[٣١].

وبهذا، وجدنا بأنَّ الزمن المعاصر قد شهد قراءات جديدة لمفهوم (انتظار الفرج).

فهذا السيد محمد الصدر ينفي كون الانتظار موقفاً فردياً شخصياً، ويرى بأنَّ هذا المفهوم، مفهوم إسلامي إيجابيٌّ عام[٣٢]، ويعتقد بأنَّ المواقف الفردية والجماعية للأفراد، لابدَّ أن تتفاعل مع المجتمع، فلا عزلة عن الاجتماع، ولا رهبنة في المواقف، بل لابدَّ من الإعداد والاستعداد لمواجهة الظلم والفساد، وإقرار الإصلاح في المجتمع[٣٣].

٢- دراسة وتحليل التحوّلات الحاصلة:

تعرضنا في القسم السابق، لدراسة القراءات والرؤى المطروحة والرئيسية في المجتمع الشيعي تجاه مسألة (فرج

الإمـام القـائم) و(انتظـار الفـرج). ووجـدنا أنَّ تحـولات وتغـيرات قـد عرضت على هذه الـرؤى والقـراءات على مرِّ الأدوار الثلاثة.

وفي هـذا القسـم، نحـاول دراسـة وتحليـل تلـك التغـيرات الحاصـلة في تلك الأدوار الثلاثة.

واستناداً لما تقدّم في القسم السابق، حول الرؤى والقراءات المطروحـة في المجتمـع الشـيعي في مسـألة (انتظـار الفرج)، وجدنا بأنَّ علماء الشيعة عـلى طول القـرنين الأوَّلـين، وهـو الـدور الأوّل من أدوار الغيبة الكبرى، سَـعَوا جاهدين لتثبيت المباني الفكرية لمذهب التشـيع في مسـألة غيبـة الإمـام الثـاني عـشر عليه السلام، وبعبـارة أُخـرى، إنَّ مـا شـاهدناه في هـذين القـرنين، هـو الرجوع إلى الفكـر المتجـذّر المطـروح عـلى لسـان الروايـات الـواردة عـن المعصـومين عليهم السلام، في خصـوص إمـام العصر عليه السلام.

كما لاحظنا إنَّ هذه المباني الفكرية، قـد تبلـورت أكثـر فـأكثر في القـرن الخامس، إلى درجة الاستدلال المنطقي عليهـا مـن قبـل العلـماء، كالشـيخ الطوسي رحمه الله [٣٤].

وأمّـا في الـدور الثـاني مـن أدوار الغيبة الكبرى، أي في القرنين العـاشر والحادي عشر الهجري القمـري، فقـد شاهدنا تحوّلات أُخرى في فهم وقراءة مسـألة (انتظـار الفـرج)، قياسـاً بالقراءات الموجـودة حـول المسـألة في القـرنين الرابـع والخـامس للهجـرة، حيث قرأنا كلاماً جديـداً مختلفـاً عـن القراءات السابقة.

فقد ذكرنا آنفاً في القسـم السـابق، بأنَّ العلّامة المجلسي رحمه الله، طرح مسـألة التورية المقصودة في الروايات الـواردة عن أهل البيت عليهم السلام، في خصوص فرج الإمام الغائب بعد فترة زمانية قصيرة، وأنَّ السبب في استعمال التورية في هذه الموارد هو أنَّ الأئمَّة عليهم السلام لم يشـيروا إلى طول مـدّة الغيبـة حفاظـاً عـلى التـزام

الشيعة وتمسكهم بأصول المذهب والدين، واجتناب الشعور باليأس وفقدان الأمل[٣٥].

وكلام المجلسي هذا في توجيه الروايات الدالّة على قصر مدَّة الغيبة، قياساً إلى الرؤية المطروحة سابقاً، أي في القرنين الرابع والخامس الهجري، حول مسألة الانتظار، لهو كلام جديد لم يكن مطروحاً في القرون المتقدّمة. وما يمكننا فهمه من كلام المجلسي هذا، هو إنَّ طول زمان غيبة إمام العصر عليه السلام، لم تكن مبينة للمجتمع الشيعي من قبل الأئمَّة عليهم السلام. ويبدو أنَّ هذه القضية، وهي أن فرج الإمام القائم عليه السلام إنّما سيكون بعد فترة طويلة، لم تكن معروفة في الفكر الشيعي عند أُولئك الذين كانوا قبل الغيبة الكبرى، ولعلَّ هذا الأمر يعود أساساً إلى وجود تلك الروايات التي كانت تطرح فكرة الفرج القريب.

ولكنّنا أيضاً شاهدنا تحوّلاً آخر في القراءات المطروحة من قبل المولى صالح المازندراني والمولى محسن الفيض الكاشاني، في خصوص مسألة انتظار الفرج في هذا الدور، فكما تقدم، واستناداً إلى رواية عن الإمام الصادق عليه السلام في الجواب عن سؤال أبي بصير، فإنَّ المولى صالح كان يرى بأنَّ (الفرج) هو انفراج الحياة الدنيوية للشيعة فحسب، وأمّا (انتظار الفرج)، ومن حيث إنَّه اعتُبِر من أفضل أعمال الشيعة، فهو أفضل بكثير من نفس الفرج[٣٦].

وأمّا المولى محسن الفيض، فإنَّه في شرحه للرواية الأخرى، يرى بأنَّ (انتظار الفرج) هو بنفسه فَرجٌ للمؤمنين. ثم يستنتج أخيراً بأنَّ انتظار وصول فرج الإمام عجل الله فرجه هو عملياً نوع من طلب الدنيا والميل إلى السعة والتوسعة في المعاش[٣٧].

والذي نستفيده من شرح المولى صالح المازندراني وشرح الفيض الكاشاني (رحمهما الله)، هو التأكيد على

أهمية مسألة (الانتظار) من غير أن يضع المؤمن بحسبانه أنّه يدرك الفرج أو لا يدركه. وبعبارة أُخرى، إنَّ المهمّ هو (الاعتقاد) بضرورة تحقّق الفرج وإنّه هو الفرج في الواقع، لا إنَّ الفرج في إدراك زمان القائم عليه السلام، فهذا هو الذي عرَّفته الروايات بفرج الإمام عليه السلام.

فقراءة هذين العلمين، واستناداً إلى رواية الإمام الصادق عليه السلام، فإنَّ مسألة الفرج والاعتقاد والإيمان بها وانتظار تحقّقها، هو المهم، لأنَّ ذلك يوجب دفع العقاب الأخروي، ورفع العقاب الأخروي هو الفرج الحقيقي للمؤمنين، وأمّا الفرج الدنيوي الذي يتحقق بظهور الإمام عليه السلام، فإنَّه يوجب السعة في الأمور الدنيوية لأصحاب الإمام القائم عليه السلام، وأمّا انتظار فرج الإمام عليه السلام، فإنَّه يوجب عمران آخرة المنتظرين.

وهنا، قد يتبادر إلى بعض الأذهان هذا السؤال، وهو: أنَّ النكتة التي اعتمدها المولى صالح المازندراني والمولى الفيض الكاشاني في رؤيتهم وقراءتهم، والتي جعلتهما يعتبران أنَّ (انتظار) فرج الإمام عليه السلام أفضل من (درك فترة الفرج) وحضور الإمام، وهذه ليست قراءة جديدة لمسألة الفرج، وذلك لأنَّ هذه النكتة معرَّفة في نفس روايتي الإمام الصادق عليه السلام، وهما مدوّنتان في الكتب الروائية والآثار الحديثية حتّى في القرنين الرابع والخامس، وما جاء به المولى صالح والمولى الفيض ليس إلّا تكراراً لفكر قديم، فلا تحوّل ولا تغيير في القراءات.

وفي الجواب عن هذا السؤال لابدَّ من القول بأنَّ ورود هاتين الروايتين عن الإمام الصادق عليه السلام، وتسجيلهما في المجامع الروائية في القرنين الرابع والخامس، أمرٌ لا يمكن إنكارُه، ولكنَّ الفهم الجديد الموجود في شرح هذين العلمين لهذه الرواية هو الذي غيّر القراءة السابقة. فمع الأخذ بنظر

الاعتبار الظروف التاريخية لزمن الإمام الصادق عليه السلام، أي تلك الفترة التي كان الشيعة فيها يعتقدون بأنَّ الإمام الصادق عليه السلام هو (الإمام القائم)، وباعتبار سوء الأوضاع الاجتماعية والسياسية في تلك الآونة، كان الشيعة يتوقعون من الإمام الصادق عليه السلام أن يقوم بالسيف ويغير الأوضاع المأساوية التي يعيشها المجتمع[٣٨]، ففي مثل تلك الظروف، سيكون لكلام الإمام الصادق عليه السلام ذلك الوقع الذي يسوق الشيعة إلى حالة الانتظار البنّاء للوصول إلى فرج الإمام القائم عليه السلام، وإزالة كلِّ تلك السلبيات الاجتماعية والسياسية الحاكمة على المجتمع الشيعي.

وأمّا على أساس التقرير الذي قدّمناه في القسم السابق على التوجهات والقراءات المطروحة في مسألة (انتظار الفرج)، فإنَّه يمكننا استكشاف أنَّ الدورة المعاصرة قد اقترنت بتحوّلات وتطوّرات فيما يرتبط بمسألة انتظار الفرج، وأوّل تلك التحوّلات مهما يمكننا الوقوف عليه بوضوح هي قراءة المولى الهمداني، فكما رأينا بأنَّ هذا العَلَم يؤكد على مسألة الصبر والتحمّل لانتظار الإمام القائم عليه السلام.

كما شهدنا أنَّ كتاب هذا العَلَم، كسائر الكتب المدوَّنة في الدورتين السابقين، أي القرنين الرابع والخامس، والقرنين العاشر والحادي عشر، يؤكد على قضية الصبر والتحمّل وانتظار فرج الإمام القائم عليه السلام.

وعليه، فإنَّ هذا التأكيد، لم يكن لتسهيل أمر تحمّل تلك الظروف والأوضاع الاجتماعية والسياسية المزرية، التي كان الشيعة يمرُّون بها، بل إنَّ الغاية منه هو الحدِّ من الثورات والانتفاضات والجهاد ضدّ الأنظمة الحاكمة في زمانهم. إذن، فنحن أمام تحوّل في فهم مسألة انتظار فرج الإمام القائم عليه السلام[٣٩].

والتحوّل الآخر الذي لمسناه في الدور المعاصر، واستناداً إلى التقرير الذي قدّمناه، نجده واضحاً ومتبلوراً في قراءة وفكر السيد محمد تقي الأصفهاني، ففي كتابه المكيال، وضمن نفيه لقراءة أكثرية المجتمع الشيعي لمسألة الفرج، أي إنَّ فرج الإمام ﷺ عبارة عن الأرضية المناسبة للدعة والسعة ورفاهية العيش، فإنَّ السيد الأصفهاني كان يرى بأنَّ المقصود من انتظار فرج الإمام ﷺ ليس انتظار تحقّق الدعة والسعة والرفاهية في العيش، بل هو انتظار وصول زمان نصرة الإمام القائم عليه السلام، والجهاد في ركابه(٤٠).

ومن خلال التقرير المهم والمميز الذي سجّله السيد محمد تقي الأصفهاني في كتابه، يمكننا استكشاف بُعد آخر من فهم المجتمع الشيعي لمسألة (فرج الإمام القائم عليه السلام) في هذا الدور من أدوار الغيبة. ولتبيين هذا الموضوع نقول: يبدو أنَّ الماهية الحقيقية لمسألة (فرج الإمام القائم عليه السلام)، كانت غريبة إلى حدٍّ كبير عن ذهن شريحة كبيرة من المجتمع الشيعي.

وتوضيح ذلك، إنَّه واستناداً إلى هذا التقرير، يبدو أنَّ تصور شريحة كبيرة، نوعاً ما، من المجتمع الشيعي عن مسألة فرج الإمام القائم عليه السلام، كان يتمثل في أن دور هذا القيام والظهور هي التوسعة في البعد المعيشي للحياة الاجتماعية والسياسية للشيعة. ومن ثمَّ، وُجد شعورٌ عندهم بأنَّ ظهور الإمام الغائب سيزيد في راحة ودعة المجتمع الشيعي.

والحال، إنَّنا إذا قارنّا هذا التصور مع تصور المجتمع الشيعي عن مسألة فرج الإمام القائم عليه السلام في القرنين الرابع والخامس، لوجدنا أنَّ الفهم الشيعي لهذه المسألة في ذينك القرنين هو أنَّ الثمرة الأصلية من ظهور الإمام الثاني عشر عليه السلام، هو بسط العدل ومقارعة الظالمين والجائرين، وبعبارة

أُخرى، إنَّ فرج الإمام عليه السلام سيؤدّي إلى التخفيف من الضغوط الاجتماعية السياسية الحاكمة في المجتمع تجاه الشيعة.

ولكنَّ هذا التحوّل، لم يكن التحوّل الوحيد الناظر إلى مسألة (انتظار الفرج) في هذا الدور. فقد أشرنا في القسم السابق من البحث، بأنَّ عدداً لا بأس به من العلماء المعاصرين الشيعة في هذا الدور، قد رفضوا هذه الرؤية والقراءة، أي إنَّ معنى انتظار الفرج هو الصبر والتحمُّل إلى حين مجيء إمام العصر عليه السلام، ووقفوا ضدّها وأعلنوا أنَّ على المجتمع الشيعي أن يكون فعّالاً ومتحرّكاً في قضية انتظار فرج الإمام القائم عليه السلام، وأن يعدّ الأرضية المناسبة للظهور عن طريق التمسّك بالأصول التي تبتني عليها حكومة المنتظر عليه السلام.

ففي هذا الدور من أدوار الغيبة، سادت القراءة القائلة بأنَّ صرف الصبر والتحمّل والسكوت تجاه المظالم، يعدُّ بمثابة الفرار من المسؤولية والتخلّي عن الوظيفة الشرعية فيما يرتبط بمسألة انتظار فرج الإمام الغائب. فعلى كلِّ فرد من أفراد المجتمع أن ينتفض على الأوضاع السيئة الموجودة، وأن يجتهد لتغييرها إلى ما هو الأفضل، وبذلك يخلق الأرضية المناسبة لظهور الإمام الغائب عليه السلام.

ومثل هذا الفهم لمسألة (فرج الإمام القائم عجل الله فرجه) والإقبال عليه، والتمسك به، لم يكن معروفاً عند المجتمع منذ بداية الغيبة الكبرى للإمام الثاني عشر عليه السلام.

فإذا ما قارنّا هذه الرؤية برؤية الهمداني، المطروحة في بداية هذا الدور، وجدناها مقابلة لها تماماً.

٣- تبيين التحوّلات الطارئة:

استناداً إلى ما تقدَّم منّا في القسم السابق حول تقرير التحوّلات التي

طرأت على رؤية مسألة (انتظار فرج الإمام الغائب عجل الله فرجه)، لاحظنا أنَّ تحوّلاً حصل في الدور الأوّل من الأدوار التي نحن في صدد دراستها، أي في القرنين الرابع والخامس للهجرة.

وعلى أساس هذه الدراسة، يمكننا معرفة التحوّلات التي حصلت في الدور الثاني، أي في القرنين العاشر والحادي عشر، ثم في الدور المعاصر.

فدراستنا كشفت عن أنَّ أوّل تحوّل مهم وصل في هذا الدور، هو قراءة العلّامة المجلسي رحمه الله، والذي ذهب إلى أنَّ الروايات الواردة عن الأئمَّة عليهم السلام والدالَّة على قصر مدّة غيبة الإمام القائم عليه السلام، إنَّما صدرت عنهم عليهم السلام من باب التورية، لكي يثبت الشيعة على إيمانهم فلا يتركوا التمسُّك بالمذهب.

وفي تبيين هذه المسألة، يمكن القول بأنَّ الفاصل الزماني من بداية الغيبة إلى زمن العلامة المجلسي رحمه الله، والذي يقدّر بحدود ستّة قرون، قد يعتبر علّة مهمّة لظهور هذا الفهم والاعتماد من قبل العلّامة للروايات الناظرة إلى زمان فرج الإمام الغائب عليه السلام.

فهذه الفاصلة الزمانية، الطويلة نوعاً ما، والتي لا يمكن استنباطها من أيِّ واحدة من الروايات الموجودة في المصادر الروائية، والتي لم يكن المجتمع الشيعي يتوقعها أبداً، هي التي أدّت إلى حصول التحوّل في القراءة التفسيرية لمسألة انتظار الفرج. وهذا التحوّل في قراءة مسألة انتظار الفرج، حصل من خلال عنصر (طول زمان هذا الانتظار)، وعلى أساس هذه القراءة الجديدة، فإنَّ طول فترة انتظار الفرج غير معين، والروايات الناظرة إلى قصر فترة الغيبة والانتظار، لا يفهم منها فترة معينة للانتظار.

وعليه، فإنَّ عنصر (طول زمان الانتظار) في الطرح التفسيري والذي كان لحدِّ الآن يستفيد من الروايات الناظرة إلى زمانٍ قصير للغيبة، لا يجد

نفسه الآن قادراً على مثل ذلك الاستلهام من تلك الروايات، وبذلك حُذف مفهوم (انتظار الفرج) من الطرح التفسيري. وفي المقابل، شاهدنا في هذا الدور التأكيد على طول عمر الإمام عليه السلام، ذلك الأمر الذي بيّنه العلّامة المجلسي رحمه الله مباشرة بعد تخريجه للروايات الناظرة إلى قصر زمان الانتظار[٤١].

وأمّا التحوّل الثاني الذي رصدناه في هذا الدور، فهو تقدُّم أهمية مسألة (انتظار الفرج) على مسألة (درك زمان الفرج)، فكما قلنا سابقاً، فإنَّ المولى صالح المازندراني والمولى الفيض الكاشاني، وضمن شرحهما للرواية الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام، أكَّدا على هذه النكتة، وهي أنَّ حصول الفرج للشيعة لا يعني السعة في المعاش ورفاهية العيش المادّي فقط، فإنَّ التحلّي بانتظار الفرج، وباعتبار استناده إلى بعض الروايات القائلة بأفضليته على سائر الأعمال، يستتبع الراحة والسعادة الأخروية، والتي تعتبر فَرَجاً واقعياً.

والمستفاد من بعض المصادر المصنّفة في بداية دور الغيبة الكبرى[٤٢]، هو أنَّ القراءة السائدة في ذلك الدور عن مسألة (انتظار الفرج) كان لها دور سوق المجتمع الشيعي، الذي كان يرزح تحت نير الظلم والاضطهاد، نحو التحمّل والصبر على تلك الأوضاع، حتّى يظهر إمام العصر عليه السلام فينقذهم برفع الظلم والجور عنهم، وينشر العدل والقسط في العالم، وحينئذٍ ستتحقّق السعة والفرج والانفراج في الحياة الاجتماعية والسياسية.

ولكن، وبالتحوّل الذي لمسناه في فهم مسألة انتظار الفرج في القرنين العاشر والحادي عشر، فإنَّ الدرك الزماني لانتظار الإمام، كان مقدّماً على الدرك الزماني لفرج الإمام المهدي عليه السلام.

وهـذا الأمـر، يـدعونا تلقائيـاً إلى التأمّل في أنَّ مثل هذه القراءة، يمكـن أن تحكم في دور لا يكون فيه المجتمـع الشيعي تحت ضغوط كبيرة وظـروف صعبة وقاسية جداً تفـرض غـير هـذه القراءة عليهم. وهذا الحدس العلمـي يتناسب إلى درجة كبيرة مـع الأرضـية التاريخية لصدور مثل هذه القـراءة، إذ إنَّ مثل هذه القراءة الجديدة كانت قـد عُرفت في زمن الدولة الصفوية، حيث أُعلِن المذهب الشـيعي الاثنـا عـشري مذهباً رسمياً للدولة، وشعر المجتمـع الشيعي بانفراج وأمان أكـبر في الحيـاة الاجتماعية والسياسية قياساً بـالأدوار السابقة لهذا الدور.

ومن جهة أُخرى، وباتّسـاع قـدرة وسلطة سلسلة الصـفوية، والازدهـار الاقتصادي الملحـوظ في تلـك البرهـة مـن التـأريخ، ومضـافاً إلى انكشـاف الأرضية الأمنية للشيعة، فإنَّ الوضـع المعاشي والحيـاتي للشـيعة قـد انـتعش بشكل ملحوظ.

وقد شاهدنا في هذا الدور أنَّ إيران قد تحوّلت إلى مركز مهـم لاسـتقطاب الشـــيعة مـــن كافّـــة الأقطـــار والأرجاء[٤٣].

ولكن، يمكننا هنا أن نتعـرف عـلى عاملٍ آخر أدّى إلى التحوّل في الطـرح التفسيري لمسـألة (انتظـار الفـرج) في هذا الدور، حيث يبدو لنا بأنَّ استطالة فترة الانتظار للفـرج، قياسـاً لمـا كـان يتصوره المجتمع الشيعي، اسـتناداً إلى المصادر الروائية، كان له الأثر الموجب لذلك التحوّل. ففي الحقيقة، إنَّ طول دورة الانتظار، وعدم تحدّد زمن الفرج بنحو مشخّص، كان سبباً للتأكيد عـلى أهميـة نفـس (انتظـار الفـرج) قياسـاً بدرك زمان الفرج.

وهـذا التبيـين، يمكـن أن يحظـى بالقبول فيما إذا عرفنا بأنَّ فترة حكومة الدولة الصـفوية لم تكـن فـترة صـعبة وقاسية بالنسبة للشيعة، وعـلى الأقـل قياساً بالفترة السابقة للصفوية. وهـذا الموضوع يمكنـه أن يغـير مـن الطـرح

التفسيري لمفهوم (انتظار الفرج)، ويبدِّل القراءة السابقة إلى القراءة الجديدة.

ولكن، وكما تقدَّم، فإنَّه في الدور الثالث من الأدوار التي نحن بصدد دراستها، أي في الزمن المعاصر، شاهدنا ثلاثة تحوّلات رئيسية من قراءة مسألة الانتظار.

التحوّل الأوّل: التأكيد على الصبر وانتظار فرج الإمام، والحذر من الخروج والجهاد ضد الظالمين، كوظيفة أساسية من وظائف الشيعة.

والتحوّل الثاني: ظهور فكرة عند المجتمع الشيعي، مفادها أنَّ ظهور إمام العصر عليه السلام، يعني بداية دورٍ ملؤه الراحة والدعة والسعة والرفاهية في المجتمع الشيعي.

والتحول الثالث: قراءة جديدة عن مسألة (انتظار الفرج)، على أساسها لا يعتبر (انتظار الفرج) صرف الصبر والتحمّل حتّى ظهور الإمام القائم عليه السلام، بل إنَّ على الشيعة التمهيد والإعداد والاستعداد لنصرة الإمام القائم عليه السلام، وذلك عن طريق التربية والاستقراء والتهيؤ للظهور.

وحيث إنَّ التحوّل الأوّل مضادٌّ للتحوّل الثالث وهما قراءتان متقابلتان، كان علينا تبيين هاتين القراءتين في دراسة واحدة، ثم تبيين التحوّل الثاني في دراسة مستقلَّة.

وسنبدأ بدراسة وبحث التحوّل الثاني:

فيما يرتبط بكيفية ظهور القراءة السابقة لمسألة (انتظار الفرج)، التي ترى بأنَّ الانتظار ليس لنيل ودرك حياة هادئة مستقرّة وللالتذاذ بملذات الحياة، وإنَّما هو دورٌ على الشيعة أن يتّجهوا فيه إلى نصرة إمامهم، لابدَّ من القول بأنَّه يبدو للنظر، أنَّ مسألة (انتظار الفرج) قد فقدت في بعض برهات هذا الدور المعاصر فاعليتها السابقة ووجهتها، على الأقل تلك الوجهة السائدة في القرنين الرابع

والخامس، إلى حدٍّ ما.

واستناداً لما تقدّم منّا، فإنَّ النظرة السائدة سابقاً هي أن (انتظار الفرج) يعني انتظار دور يكون ظهور الإمام عليه السلام فيه بداية زوال الظلم والجور، واستقرار العدل والقسط، تحقّق سعة وانفراج في الحياة الاجتماعية السياسية للمجتمع الشيعي، ومع فقدان عنصر الظلم في الدور المعاصر لم يعد لتلك القراءة فاعلية متصوّرة، فإنَّه سيكون من قبيل تحصيل الحاصل. ومن ثمَّ فسِّر ذلك (الفرج) في الطرح التفسيري لانتظار الفرج، بالسعة والدعة ورفاهية العيش والالتذاذ بملذات الحياة، بعد أن كان مفسّراً ببسط العدل والقسط وإزالة الظلم.

ويبدوا أنَّ جذور مثل هذه القراءة الجديدة للفرج في مسألة انتظار الفرج، تعود إلى دور الدولة الصفوية، فتأكيد المولى صالح المازندراني والمولى محسن الفيض الكاشاني على أنَّ (فرج الإمام عليه السلام)، مساوٍ للفرج الدنيوي للشيعة بتحسّن أوضاعهم المعاشية، هذا التأكيد يمكن أن نجد له امتداداً في القراءة المطروحة في العصر الحاضر، أي إنَّ هذه الرؤية كانت قد ظهرت بوادرها في عصر الدولة الصفوية واستمرّت فاعليتها إلى الدور المعاصر.

وأمّا التحوّلان الأوّل والثالث، واللذان شاهدناهما في القراءة المطروحة في الفترة المعاصرة عن مسألة (انتظار الفرج)، فهما من مختصّات هذا الدور، وليس فهماً ذا جذورٍ تاريخية في الأدوار السابقة من زمن الغيبة.

فالمنع والتحذير من مواجهة السلطات الظالمة والجائرة، والتأكيد على الصبر حتى وصول يوم الفرج وظهور الإمام القائم عليه السلام، وما يقابله من رؤية تذهب إلى نفي الصبر المحض، والتأكيد على الإقدام العملي،

تحـوّلان أصـليان في قـراءة (انتظـار الفرج) في هذا الدور المعاصر.

ومـا يمكـن قولـه في تبيـين كيفيـة ظهور وتشكُّل هاتين الرؤيتين في هـذا الـدور، هـو إنَّ التحـول والتغـير في الفكر السياسي للمجتمـع الشـيعي في هذا الدور، هو المحـرّك والحـافز لمثـل هذا التحوّل في القراءات.

فـالمؤرّخون للفكـر السـياسي الشيعي، يرون بـأنَّ بدايـة التحـوّل في الفكر السياسي للمـذهب الشـيعي في الدور المعاصر، يعود إلى أواخر القـرن الثالث عشر الهجري.

فهـم يعتقـدون بـأنَّ بدايـة هـذه التحـوّلات تعـود إلى بدايـة نفـوذ وسيطرة القوى الاستعمارية في الـبلاد الإسـلامية، ممـا أدّى إلى إقبـال علـماء الإسلام، وخاصّة علماء الشـيعة، عـلى عرصة السياسة.

ففي المجال الثقافي في إيران، يمكن تتبّع التحـوّل مـن بدايـة زمـان نهضـة المشروطة وإلى بداية ظهـور مقـدّمات الثورة الإسلامية سنة (١٩٧٧م).

ففي هذا الدور الطويـل نوعـاً مـا، سعى بعض علـماء الشـيعة جاهـدين، لتطبيق المفاهيم والمبادئ الجديدة، التي كانوا يواجهونهـا في عرصـة السياسـة والحكومـة، عـلى ثوابـت الـشريعة الإسـلامية[٤٤]، وبـذلك ظهـرت تحـوّلات أساسـية في الفكـر السـياسيّ الشيعيّ المعاصر.

ومـن بـين التحـوّلات الرئيسـية والأساسية في الفكر السياسي الشـيعي في الدور المعـاصر، والـذي نـتج عـن مـنهج تطبيـق مفـاهيم الـشريعة عـلى المفاهيم والمبـادئ السياسـية مـن قبـل علـماء الشـيعة، تعـدُّ مراجعـة مفهـوم (التقيـة)، و(الاستشـهاد)، مـن جملـة المفـاهيم التـي أُعيـدت قراءتهـا بـما يتناسب مع الظرف القائم.

ففي هـذه المراجعـة الفكريـة لهـذه المفاهيم، اتّضحت الفواصـل الماهويـة بين الحالـة الواقعـة والحالـة المطلوبـة، فلـم يعـد الاسـتمرار عـلى القـراءة

السابقة لهذه المفاهيم مجدياً، ولم تعد التضحية والفداء في سبيل الدين وأُصوله، من مختصّات النخبة المعصومة[٤٥].

وبذلك، بدأ السعي الحثيث لاستبدال (الحالة الواقعة) بـ(الحالة المطلوبة) -فكان لها أثر في إعادة تعريف التقية- فصارت المقولة: (الممكن) و(المطلوب).

وكذا الحال في مفهوم (الاستشهاد) و(التضحية) و(الفداء) في سبيل الدين، فلم تعد فكرة اختصاص المعصومين والنخبة بهذه المفاهيم والمبادئ فكرة سائدة، بل عُدَّت كلُّ هذه المفاهيم وتحقيقها من جملة وظائف ومبادئ جميع أفراد المجتمع الشيعي.

فإذا ما أردنا دراسة التحوّل في قراءة مفهوم (انتظار الفرج) من زاوية مثل هذا التحوّل في الفكر السياسي الشيعي، لابدَّ أن نقول: إنَّ الطرح التفسيري لهذا المفهوم، كان يرى بأنَّ (الانتظار) يعني (الصبر) و(التحمل) و(البقاء على الوضع الموجود)، والآن، وفي القراءة الجديدة، فإنَّ الصبر على الوضع الموجود بات مذموماً، وغير مقبول، وأمّا السعي والجدِّ للوصول إلى الوضع المطلوب، فهي أمور ممدوحة ومطلوبة. وبهذا توفرت الأرضية لفهم (انتظار الفرج) ونصرة الإمام عجل الله فرجه.

ويبدو أنَّ قراءة الهمداني، أي تلك القراءة المعاصرة التي تؤكد على الصبر والتحمّل والسكوت على الحكومات الجائرة، قد تصورت بهذه الصورة في ضمن هذا الإطار، فهو في الواقع عاملٌ تغييري منهجيّ.

الهوامش:

(١) المقصود من الطرح التفسيري، الطرح الذي يفرض نفسه على القارئ لتلك الظاهرة (وهو في هذا المقال مفهوم انتظار الفرج) حين قراءتها، فيعرض تلك القراءة على ثوابته وقواعده التي كان يعمل على أساسها

فيغير تلك الثوابت بحسب ما يقتضيه ذلك الطرح التفسيري.

وتغيير هذه الثوابت والقواعد، يؤدّي إلى تغيير تفسير المفهوم أو الكلام، فتظهر قراءة جديدة غير القراءة السائدة.

(لمفهوم الطرح التفسيري راجع: فوكو، ١٣٧٨هـ.ش.، ص٢٤-٢٧)؛ ضميران ١٣٧٨هـ.ش، ص١٧-٢٦؛ وميلز، ١٣٨٢هـ.ش، ص٢٨-٣٠).

لمزيد من الاطّلاع على كيفية تأثير الطرح التفسيري على مفهوم الكلام، انظر: الطباطبائي والدهقاني الفارساني، ١٣٨٩، ص٧-٢٤).

(٢) دورة حكومة آل بويه، سنة ٣٢٠-٤٤٧ هـ.

(٣) دورة حكومة الصفويين، سنة ٩٠٧-١١٣٥هـ.

(٤) الغيبة الشيخ النعماني مقدمة المؤلف: ص٢٨-٣٤.

(٥) ابن بابويه، ١٣٦٣ هـ.ش، ج١، ص٢٥٦-٣٨٤.

(٦) راجع المفيد، ١٤١٤ق، آثاره.

(٧) المفيد، ١٤١٤ق، ج١، ص١٣؛ ومتن السؤال وجواب الشيخ المفيد هو: (فإن قال: فما ينفعنا من معرفته مع عدم الانتفاع به من الوجه الذي ذكرنا؟ قيل له: نفس معرفتنا بوجوده وإمامته وعصمته وكماله نفع لنا في اكتساب الثواب، وانتظارنا لظهوره عبادة نستدفع بها عظيم العقاب).

(٨) المفيد ١٤١٤ق، ج١، ص١٣.

(٩) انظر مثلاً: الطوسي، ١٤١١ق، ص٢٣-١١٣؛ وفيه ينقد الشيخُ مسلكَ الواقفة.

(١٠) الطوسي ١٤١١ق، ص٤١٩ فما بعدها.

(١١) الطوسي ١٤١١ق، ص٣٤٥.

(١٢) الطوسي، ١٤١١ق، ص٢٥٣ فما بعدها.

(١٣) الطوسي ١٤١١ق، ص٤٣٣-٤٦٧.

(١٤) المجلسي ١٤٠٣ق، ج٤، ص١٣١-١٣٢.

(١٥) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٥١، ص٢٢٥-٢٩٣.

(١٦) والرواية هي: عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك، متى الفرج؟ فقال: «يا أبا بصير، وأنت ممّن يريد الدنيا؟ من عرف هذا الأمر فقد فُرّج عنه لانتظاره». (المازندراني، ١٤٢١ق، ج٦، ص٣٤٢).

(١٧) المازندراني، ١٤٢١ق، ح٦، ص٣٤١.

(١٨) وهذا الكلام مستنَدٌ أساساً على هذه الرواية: «أفضل الأعمال انتظار الفرج»، راجع: الخزاز الرازي، ١٤٠١ق، ص٢٢٧؛ ابن بابويه، ١٤٠٤ق، ج٢، ص٣٦.

(١٩) الفيض الكاشاني، ١٤٠٦ق، ج٢، ص٤٣٧.

(٢٠) الهمداني، ١٣٥٤هـ.ش، ٢٧١.

(٢١) وقد رأينا قبل قليل إنَّ المولى صالح المازندراني يتعرض لهذه الرواية أيضاً.

(٢٢) ج٥٢، ص٤٢.

(٢٣) ١٣٨٢ق، ج٢، ص٤٢٣.

(٢٤) الأصفهاني، مكيال المكارم، ج٢، ص١٤٤.
(٢٥) الطالقاني، ١٣٦٠ش، ص٩٠.
(٢٦) الطالقاني ١٣٦٠، ص١٠-١٢.
(٢٧) لك زائي، ١٣٨٤ش، ٢٠٤-٢٠٦.
(٢٨) مكارم الشيرازي ١٣٥٨ش، ص١٠٢-١٠٣.
(٢٩) مكارم الشيرازي ١٣٥٥، ص١٠-١٢.
(٣٠) الصدر ١٣٦٢ش، ص١٩٥.
(٣١) الصدر ١٣٦٢ش، ص١٩٠-١٩٤.
(٣٢) الصدر ١٣٦٢ش، ص٣٠.
(٣٣) الصدر ١٣٦٢ش، ص٩٤.
(٣٤) راجع: غيبة الطوسي، ١٤١١ق، ص٢٣-١١٣.
(٣٥) العلّامة المجلسي، ج٤، ص١٣١-١٣٢.
(٣٦) المازندراني، ١٤٣١ق، ج٦، ص٣٤١.
(٣٧) الفيض الكاشاني، ١٤٠٦ق، ج٢، ص٤٣٧.
(٣٨) انظر: الطوسي، ١٤١١ق، ص٢٧٦، الطوسي ١٤١٧ق، ص٤٠٤-٤٠٦.
(٣٩) الهمداني، ١٣٥٤ش، ص٢٧١.
(٤٠) الأصفهاني ١٤٢١ق، ج٢، ص١٤٤.
(٤١) المجلسي، ١٤٠٣ق، بحار الأنوار، ج٥١، ص٢٢٥-٢٩٣.
(٤٢) انظر تحليل آراء النعماني والصدوق في هذا المقال.
(٤٣) للاطّلاع على أحوال المذهب في دور ازدهار العصر الصفوي، راجع: أمورتّي،١٣٨٠، ص٣٢٦-٣٣٤؛ وللاطّلاع على اعتبار التشيع مذهباً رسمياً في إيران في العصر الصفوي، راجع: رسول جعفريان، ١٣٧٩، ص١٧-٨٦؛ وللاطّلاع على الانفراج في الحياة الاجتماعية للشيعة، راجع: المظفر، ص٣٠٥-٣٠٩.
(٤٤) كديور ١٣٧٨ش، ص٥٥-٢٥٣.
(٤٥) عنايت ١٣٨٠ش، ص٢٧٧-٢٧٩.

حيدر نور الدين
أستاذ في الحوزة العلمية في النجف الاشرف

دور العقل في المعرفة عند المجلسي

تمهيد

يُعتبر البحث حول منزلة العقل في الإدراك والحديث عن دائرة اعتباره في مجال تحصيل المعارف وأحكامه نفياً أو إثباتاً من الأبحاث المهمَّة في تاريخ الفكر البشريّ، وقد كان ذلك مثار جدل وتجاذب الآراء في حَقَبةٍ خاصَّةٍ من التاريخ الإسلاميّ، ونُسب إلى الأخباريِّين والمحدِّثين سيَّما المجلسيّ نفى حجيَّة العقل مطلقاً، والدعوة إلى التمسّك بالأخبار وكلام المعصومين عليهم السلام كبديلٍ عن ذلك، وتتعرض هذه الدّراسة لكلمات المجلسيّ التي ادَّعى أنَّها تَدلّ على ذلك وتُبيّن مدى أثر العقل ودوره في اكتساب المعرفة وحجيَّة أحكامه من وجهة نظر المجلسيّ في ضوء تلك النُقول وتناقش آراء في هذا المجال تحليلاً ونقداً.

يُستعمل العقل في معنيَين أساسيَّين: الأوَّل: العقل بمعنى الجوهر المجرَّد عن المادَّة ذاتاً وفعلاً، والثاني: العقل بمعنى قوَّة إدراك الكليَّات ويُطلق عليه العقل النظريّ، وهو المقصود في دراسة طبيعة العلاقة والترابط فيما بين العقل والدِّين.

كما تُعتبر منزلة العقل وحجيَّته من المسائل التي كانت محلَّ بحثِ الفكر البشريَّ، وتفاوتت الآراء حوله، وقد وقع الاختلاف بين الفقهاء والمتكلِّمين

والمحدِّثين والفلاسفة في بيان حقيقة العقل وماهيَّته وحدود حجيَّته وبخاصَّةٍ عندما يتعارض مع النقل ظاهراً.

وقد بحث العلماء في كثيرٍ من الأديان عن كيفيَّة ربط الدِّين بالعقل وقوَّة التفكير، لكن من مفاخر الدِّين الإسلاميِّ عموماً ومذهب أهل البيت عليهم السلام خاصَّةً أنَّه جعل للعقل حجَّةً واعتباراً ففي أصول الاعقادات مثل إثبات الصانع والمبدأ والتوحيد والنبوّة يُعَدُّ الدِّين تابعاً وملازماً للعقل، فمن يُسقط العقل عن الاعتبار والحجيَّة في أصول الدِّين فإنَّما يُسقط اعتبار الدِّين؛ لأنَّ مباحث أصول الدِّين إنَّما تَثبت بالعقل، ولو أردنا إثباتها بنفس الدِّين للزم الدور وهو باطل بالبداهة.

والعقل عند الشيعة الإماميَّة مصدرٌ من مصادر التشريع، وهو المناط الذي يدور عليه التكليف والثواب والعقاب، وهو هبة الله للخلق والحجَّة الباطنة عليهم، فقد ورد عن مولانا الصادق عليه السلام: «يا هِشَامُ إنَّ لله عَلَى النَّاسِ حُجَّتَيْنِ حَجَّةً ظَاهِرَةً وحُجَّةً بَاطِنَةً فأمَّا الظَّاهِرةُ فالرُّسُلُ والأنْبِياءُ والأَئِمَّةُ عليهم السلام وأمَّا البَاطِنَةُ فالعُقُول»[1]، وعن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «لم يُطلع على تحديد صِفَته ولم يَحجبها عن واجبِ معرفته»[2]، كما ورد أنَّ العقل هو أوَّل ما خلق الله وأحبُّ الموجودات إليه، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَا خَلَقَ اللهُ عزَّ وجَلَّ شَيْئاً أَبْغَضَ إلَيْه منَ الأَحْمَقِ لأَنَّهُ سَلَبَهُ أحَبَّ الأشْيَاءِ إليْه وهُوَ عَقْلُه»[3].

نعم لا حُكمَ للعقل في كثيرٍ من فروع الدِّين، وهو يَقف مُقِرّاً بالعجز عن إدراك وتحليل الكثير من تفاصيلها.

وبالرغم من التأكيدات البالغة الواردة في المتون الدينيَّة على حجيَّة العقل وعدم معارَضته للدِّين إلا أنَّ

هذه الشُبهة العقيمة تسرَّبت من بلاد الإلحاد إلى بلاد الإسلام، فقد ذكر (الشهيد مطهَّري) أنَّه سمع عن (السيِّد البروجرديّ) رحمهما الله أنَّه كان يَعتقد أنَّ نشأة تيَّار الأخباريين ـ الذي نُسب إليه عدم حجيَّة العقل واعتباره ـ تزامَنَ مع موجةِ سقوط اعتباريَّة العقل في الغرب وظهور المادِّيين الذين يُؤمنون بالتجارب والحسِّ كطريقٍ وحيدٍ لحصول المعرفة، يقول (الشهيد مطهري): «كان السيِّد البروجرديّ يقول: إنَّ هذا التيَّار الفكريِّ للأخباريّين ـ على رأسهم الأمين الاسترآبادي ـ تزامن مع ظهور التيَّار المادِّي المخالف للعقل والفلسفة في أوروبا المبتنِي على فلسفة الحسِّ والتجربة الذي بدأ مع ديكارت وبيكن، فأصحاب هذا التيَّار عارضوا المنطق والعقل، ولكن بشكلٍ آخر وهو اعتماد المعرفة الناشئة من الحسِّ»[٤].

و(الشهيد الصدر) أيضاً يَعتبر منشأ ظهور الحركة الأخباريَّة هو شيوع المذهب الحسيّ والتجريبيّ ومعاصرة رائد الأخباريِّين الاسترابادي لدعاة الحسِّ والتجربة مثل: (جون لوك) و(فرنسيس بيكون) التي أدَّت إلى تأثّر هذا المحدِّث بأفكارهم وسريان هذا الاتِّجاه المُنحرف إلى الفكر الإسلاميِّ، يقول الشهيد الصدر: (ونحن في هذا الضوء نُلاحظ بوضوح اتِّجاهاً حسيّاً في أفكار المحدِّث الاسترآبادي يَميل به إلى المذهب الحسيّ في نظريَّة المعرفة القائل بأنَّ الحسّ هو أساس المعرفة، ولأجل ذلك يُمكننا أن نعتبر الحركة الأخباريَّة في الفكر العلميّ الإسلاميِّ أحد المسارب التي تسرَّبت منها الاتِّجاه الحسيّ إلى تُراثنا الفكريّ... وعلى كلِّ حال فهناك التقاء فكريّ ملحوظ بين الحركة الفكريَّة الأخباريَّة والمذاهب الحسيَّة والتجريبيَّة في الفلسفة الأوروبيَّة، فقد شنَّت جميعاً حملةً كبيرةً

ضدَّ العقل، وألغت قيمة أحكامه إذا لم يستمدّها من الحسِّ) [٥].

المجلسي والعقل

يُعتبر المجلسي من العلماء الأفذاذ الذين جَمعوا علوم المعقول والمنقول، فتبحَّره في علوم الحديث وفنونه وتفسير القرآن غير خفيٍّ على كلِّ من يُراجع أشهر كُتبه (بحار الأنوار) و(مرآة العقول)، كما أنَّ بعض مؤلَّفاته تشهد بأنَّه مطَّلِعٌ على العلوم العقليَّة والنظريَّات الفلسفيَّة [٦].

وقد خاض ﷺ غِمَار البحث في ماهيَّة العقل وذكر للعقل في (المرآة) ستَّة معانٍ [٧] وأوردها بعينها في البحار [٨] وكذا في كتابه (الأربعين) [٩].

وهو ﷺ لم يقتصر على الورود في مباحث ماهيَّة العقل ومدى حجيَّته، بل نراه كثيراً ما يَعتمد العقل كحجّةٍ ودليلٍ وفي نواحي ومجالات متنوِّعة من الفكر الدينيّ.

ونحن في هذا المقال سنأتي بما يدلُّ على ذلك من كلامه، ثمَّ نأتي بما يُوهم خلاف ذلك ونناقشه، فمن شواهد اعتماده على العقل:

١ـ في أصول الدِّين

فقد جاء ﷺ على وحدة الصانع بستَّة براهين عقليَّة أوردها في البحار [١٠]، كذلك بَرْهَنَ في كتابه (حقّ اليقين) على إثبات وجود الله والمعاد بأدلَّة عقليَّةٍ [١١].

وقال ﷺ في موضع آخر: «قسَّم عليه السلام أمور الأديان إلى أربعة أقسام ترجع إلى أمرين: أحدهما ما لا يكون فيه اختلاف بين جميع الأمَّة من ضروريَّات الدِّين التي لا يحتاج في العلم بها إلى نظرٍ واستدلال... وثانيهما: ما لا يكون من ضروريَّات الدِّين فيحتاج في إثباته إلى نظرٍ واستدلال... ثمَّ قسَّم عليه السلام ذلك الأمر باعتبار ما يُستنبط منه إلى ثلاثة أقسام، فتصير بانضمام الأوَّل أربعة... إلى أن قال: والثالث قياسٌ عقليٌ برهانيٌ

تَعرف العقـول عدلـه أي حقيقتـه ولا يَسع لأحدٍ إنكاره، لا القياس الفقهـيّ الـذي لا ترتضـيه العقـول السـليمة، وهذا إنَّما يَجري في أصول الـدِّين لا في الشرائع والأحكـام التـي لا تُعلـم إلا بنصِّ الشارع» (١٢).

وأنت كما تُلاحظ فـإنَّ كلامـه هنـا نصٌّ في صحَّةِ إعـمال العقـل البرهـانيِّ والاضـطرار إليـه والاعـتماد عليـه في أصول الدِّين والنكير على منكره.

٢ـ كلام المعصومين عليهم السلام

وممَّـا يـدلُّ عـلى اعتبـار العقـل عنـد المجلسيِّ تفسيره لما ورد في الحديث «عن سفيان بن السمط قال: قلـت لأبي عبـد الله عليه السلام: جُعلت فداك إنَّ الرجـل ليأتينـا من قِبَلك فيُخبرنـا عنـك بـالعظيم مـن الأمـر فيَضـيق بـذلك صـدورنا حتَّـى نكذِّبه» (١٣). فقال المجلسيِّ شارحاً كلام الإمام عليه السلام: «أي هل تظن بنا أنَّا نقول مـا يُخالف العقل؟! فـإذا وصـل إليـك عنّـا مثل هذا فاعلم أنَّا أردنا به أمراً آخر غـير مـا فهمـت أو صـدر عنَّـا لغـرضٍ فـلا تكذِّبه» (١٤).

٣ـ احتكامه إلى العقل

فـالرجوع إلى العقـل والحُكـم بأحكامه مشهور في طيَّـات كلامـه قدس سره والمُنصـف لا يَسـعه إلا الإقـرار بـأنَّ المجلسيَّ قائلٌ بحجيَّة أحكام العقل في الجملة، وإن تعثَّر عنـد بعضـها فحـادَ عن الصواب، وإليك بعض الشـواهد على ذلك:

أ ـ التزامه بالوجوب العقليّ

ففـي الحـديث الـوارد عـن أمـير المـؤمنين عليه السلام: «ألا وإنَّ طَلَـبَ العِلْـمِ أَوْجَبُ عَلَيْكُم مِنْ طَلَبِ المَـال» (١٥)، نرى المجلسيّ يَعتقـد بوجـوب اتِّبـاع حُكم العقل عنـدما يَحكـم بـالوجوب عـلى فعـلِ مـا يقـول قدس سره: «المُـراد إمَّـا الوجـوب الـشرعيّ الكفـائيّ، أو الوجـوب العقـليّ أي أحسـن وأليـق بأنفسكم» (١٦).

وفي حكم الوفاء بالوعد نجده يقول إنَّ للصدق والكذب معانٍ غير المعنى المُصطلح ويَضرب شواهد لذلك من مثل: فلان صَدق أو كَذِب في القتال أي وفَّى حقَّ القِتال أو لم يوفِّ، وكقوله تعالى:﴿مِنَ المُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾(الأحزاب، ٢٣) أي حقَّقوا العهد بما أظهروه من أفعالهم، فهو يرى أنَّ نسبةَ الصِدْق والكَذِب إلى الوعد تُحمل على واحدةٍ من تلك النِسَب المجازيَّة، وقال مُبيِّناً وجه الحكم به: «فظهر أنَّ حُسن الوفاء بالوعد أو وجوبه ليس من جهةِ أنَّ مخالفته تَستلزم الكذب... بل من جهة أنَّ العقل يَحكم بحسن الوفاء بالعهد أو بُقبح خُلفه، ويَحكم في الوعيد بخلاف ذلك... هذا ما تبيَّن لي في هذا المقام لكن ظاهر المحقِّقين من أصحابنا والمخالفين أنَّ الوعد من نوع الخير وهو محتمِل للصدق والكذب وكذا الوعيد» (١٧).

ب ـ إنكاره تجسم الأعمال

وهو يرى لحكم العقل مرتبةً تتجاوزَ ظاهرِ الآيات والروايات تعويلاً على حجيَّة العقل فهو يُنكر تجسَّم الأعمال الذي يَظهر من الكثير من الآيات والروايات، بل قد يُقال بأنَّ بعض الأخبار نصٌّ في ذلك، ومع هذا فهو يَردُّ ظواهرها بما يَخاله من الدليل العقليّ يقول ﷺ: «يُمكن حمل الآيات والأخبار على أنَّ الله تعالى يَخلق بإزاء الأعمال الحسنة صوراً حسنةً، ليُظهر حُسنها للناس، وبإزاء الأعمال السيئة صوَراً قبيحةً ليُظهر قُبحها معاينةً ولا حاجة إلى القول بأمرٍ مخالفٍ لطور العقل» (١٨).

ونحن قد ناقشنا بتفصيلٍ كلامه هنا وفي المورد التالي وأثبتنا عدم صحَّة ذلك وذلك في كتابنا «مباني فقه

الحديث عند المجلسي في كتابه (مرآة العقول) والمقام لا يَسع بيانه.

ج ـ تجويزه التكليف بالممتنع لذاته عقلاً

وذيل الآية الشريفة ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (يس، ١٠) الواردة في الحديث يجوِّز المجلسيّ التكليف بالممتنع لذاته بحكم العقل، لكنَّه لم يقع، يقول:

«والآية ممَّا احتجَّ به (كذا) مَن جوَّز تكليف ما لا يُطاق، والحقُّ أنَّ التكليف بالممتنع لذاته وإن جاز عقلاً لكنَّه غير واقعٍ للاستقراء، والإخبار بوقوع الشيء أو عدمه لا يَنفي القُدرة عليه كإخباره تعالى عمَّا يَفعله هو أو العبد باختياره وفائدة الإنذار بعد العلم بأنَّه لا يَنجع إلزام الحجَّة وحيازة الرسول فضل الإبلاغ، ولذا قال: «سَواءٌ عَلَيْهِم» ولم يقل: سواء عليك» [١٩].

د ـ فهمه للنصوص الدينيَّة على ضوء العقل

والمجلسي ﷺ يرى للعقل حكومةً ونظراً في فَهم بعض معاني الأخبار، فهو يرى تصحيحها أو تضعيفها بناءً على ما يُرشد إليه العقل، فمثلاً ورد في مرسلة هشام بن سالم عن الصادق عليه السلام: «إنَّ النَّهارَ إذا جَاءَ قالَ يا ابْنَ آدَمَ اعْمَلْ في يَوْمِكَ هَذا خيْراً أشْهَدْ لَكَ بِهِ عِنْدَ ربِّكَ يَوْمَ القِيَامَة» [٢٠]، ثمَّ قال في شرح هذا الحديث: «والقول إمَّا بلسان الحال وهو قول الملك الموكَل باليوم، وقد يُقال أنَّ للأيام والساعات والشهور والسنين شعوراً لكنَّه بعيد من طور العقل» [٢١].

وفي بيان معاني ما ورد في علم الجواد عليه السلام عن «عَلِيُّ بنُ إبْراهِيمَ عَنْ أبيهِ قالَ اسْتَأذَنَ عَلَى أبي جَعْفَر عليه السلام قَوْمٌ منْ أهْلِ النَّواحي مِنَ الشِّيعَةِ فأذِنَ لَهُم، فَدَخَلُوا فسَأَلُوه في مَجْلِسٍ واحِدٍ

عَنْ ثَلاثِينَ أَلْفَ مَسْأَلةٍ فأجَابَ عليه السلام ولَهُ عَشْرُ سِنين» [٢٢] ذكر رحمه الله في معنى ذلك سبعة وجوه قال في الخامس منها:

«أن يكون مبنيًّا على بسط الزمان الذي يَقول به الصوفيَّة لكنَّه مخالفٌ للعقل» [٢٣]، بل قال في البحار إنَّه من قبيل الخُرافات [٢٤].

والذي يُمكن أن يُقال في المقام بعد الإغماض عن النقاش في سنده أنَّه يجوز أن نحمل كلام ابراهيم بن هاشم على المجاز ومثله قد يَقع في كلام ومجالس الخواص فضلاً عن العوام، ولا غرابة فيه ولا استنكار عليه. كما يُمكن أن نحمله على الخطأ من دون أن نَردَّ الحديث برمّته، وهذا ممَّا يَقع كثيراً فقد يَرِدُ كلام نقطع بصدوره ونسلّم بصحَّة بعضه وبطلان بعضه الآخر، فليس من الصحيح أن نَردَّ الرواية لمجرَّد ذلك.

والتوجيهات العقليَّة التي جاء بها المجلسيّ رحمه الله في الاحتمالات التي ذَكرها وإن كان بعضها سليماً ومُمكناً كقوله: «إشارة إلى كثرة ما يُستنبط من كلماته عليه السلام الموجَزة المشتمِلة على الأحكام الكثيرة» إلا أنَّ بعضها الآخر كحملها على الإعجاز بتسريع كلام القوم هو أشبه ببسط الزمان الذي يُنكره العقل على حدِّ قوله، وبعضها الآخر «إنَّ السؤال كان يعرض المكتوبات والطومارات فوقع الجواب بخرق العادة» فيه تكلُّفٌ ظاهر فضلاً عن أنَّ هذا التأويل الأخير لم يَتبيّن المُراد منه بالضبط، فإن قَصد أنَّ القوم عَرضوا عليه ما كتبوه من الأسئلة ثمَّ أجابهم جواباً مُعجِزاً فإنَّ الإشكال فيه لا يَزال مستقرّاً لكون عَرْض مدوّناتهم الكثيرة في الزمان المُختصر لا يَستقيم إلا بالإعجاز، وهو قد حصل الإعجاز في الجواب عنها فقط لا في عَرْضها عليه وجوابه عنها معاً.

هـ. عباديَّة التعقّل عند المجلسيّ

وعند شرحه للحديث: «ما عُبِدَ اللهُ بِمثل العقل» نرى المجلسيَّ يُفسِّر ما نَدبت إليه الشريعة من التعقّل وإعمال العقل ويؤكِّد أنَّه من العبادات قال ﷺ:

«ويُحتمل أن يكون المُراد بالعقل تعقّل الأمور الدينيَّة والمعارف اليقينيَّة والتفكّر فيها وتحصيل العلم وهو من أفضل العبادات» (٢٥).

ثمَّ لا يَخفى عليك أخيراً أنَّ اختياره اسم كتابه «مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول ﷺ» مؤيِّد لذلك.

مخالفاته لبعض أحكام العقل

وفي مقالةٍ في إحدى المجلات الفكريَّة نَسَب بعض الباحثين إلى المجلسيّ القول بعدم حجيَّة العقل مطلقاً مستنداً إلى بعض أقوال المجلسيّ ﷺ والتي سنوافيك تِباعاً بنصوصها ومناقشاتنا فيها، قال صاحب المقال: «وفي المرحلة الثانية وفي مقام جوابه على السؤال التالي: هل إدراك العقل معتبر أم لا؟ يُجيب المجلسي بالنفي؛ لأنَّه يَعتقد بأنَّه كثيراً ما يُخطئ العقل في إدراكه، وتوقيَّاً من الوقوع في اشتباهات العقل، فإنَّه لا بدَّ من القول بأنَّ الإدراك والتعقَّل المعتبر هو الإدراك الذي يُؤيِّده قانون الشرع... وهو ـ أي المجلسيّ ـ وفي مقام شرحه لأحد الأخبار يَخلص إلى النتيجة التالية وهي: إنَّ أئمَّة الدّين عليهم السلام قد أغلقوا باب التعقّل بعد معرفة الإمام وأمروا شيعتهم باتِّباعهم في جميع الأمور، ونهوا عن الاعتماد على العقول الناقصة في جميع المسائل... والظاهر أنَّ المسألة الوحيدة التي يرى المجلسيّ فيها للعقل حقَّاً في إبداء النظر هي مسألة معرفة الإمام، وبعد معرفة الإمام يجب تعطيل العقل وعدم الرجوع إليه إلا إذا وافق قول الإمام، والمجلسي لم يُبيّن لنا أنَّه هل للعقل دورٌ ومدخليَّة في فهم الأخبار ودلالاتها أم لا؟ فلذا فإنَّ العقل فاقدٌ

للاعتبار، والدِّين هو الذي يَجب أن يُمضي اعتبار العقل، والدِّين ليس لم يُمضِ هذا الاعتبار فحسب بل نفاه» ولم يَكتفِ الكاتب بهذا حتَّى خَتَم كلامه السابق بأنَّ عدم حجيَّة العقل هو الدَّعامة الأساس التي يَبتني عليها الصرح الفكريُّ للعلامة المجلسيّ ﷺ قال: «إنَّ عدم اعتبار العقل هي الركيزة الأساسيَّة لفكر المجلسيّ وسائر العلماء الأخباريّين» (٢٦).

وقد تبيَّن لك من كلامنا السابق بعض الجواب على كلمات صاحب المقالة، وهنا سنُورد بعض كلامه ﷺ الذي تُوهِّم منه نفيه حجيَّة العقل مطلقاً ونناقشه:

١ ـ «ولا يَخفى عليك بعد التدبُّر في هذا الخبر وأضرابه، أنَّهم سدُّوا باب العقل بعد معرفة الإمام وأمروا بأخذ جميع الأمور منهم ونهوا عن الاتِّكال على العقول الناقصة في كلِّ باب» (٢٧).

وكذا كلامه ﷺ ذيل ما جاء في الحديث حيث «وَرَدَ عَلَيْه رَجلٌ منْ أهْلِ الشَّامِ فَقالَ إنِّي رَجُلٌ صاحِبَ كَلامٍ وفِقْهٍ وفَرائِضَ وقَدْ جئْتُ لِمُناظَرَةِ أصْحَابِكَ فَقالَ أبُو عَبْدِ الله عليه السلام كَلامُكَ مِنْ كَلامِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله أوْ مِنْ عِنْدِكَ فَقالَ مِنْ كَلامِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله ومِنْ عِنْدي فقالَ أبُو عَبْدِ الله عليه السلام: فأَنْتَ إذاً شَريكُ رَسُولِ الله؟ قالَ: لا. قالَ: فسَمِعْتُ الوَحْيَ عَنِ الله عزَّ وجلَّ يُخْبِرُكَ قالَ لا...»: فعلَّق المجلسي على كلام الصادق عليه السلام في قوله: «أفأنت إذاً شريك رسول الله» بقوله:

٢ـ «يدلُّ على بطلان الكلام الذي لم يكن مأخوذاً من الكتاب والسنَّة، وأنَّه لا يجوز الاعتماد في أصول الدِّين على الأدلَّة العقليَّة» (٢٨).

لكن كلامه الأوَّل يقبل الحمل على القياس الفقهيِّ والاستحسانات العقليَّة التي لا دليل عليها من الشرع، ويؤيِّده أنّه ﷺ ذكر كلامه هذا ذيل روايات القياس الفقهيِّ، ولم يَقصد به

انسداد باب مطلق العقل. وأمَّا جواب كلامه الثاني فسيتَّضح عن قريبٍ.

٣ ـ وممَّا يُوهم نفيه لحجيَّة العقل قوله بعد أن ذكر خمسةَ أدلَّةٍ على التوحيد:

«السادس: الأدلَّة السمعيَّة من الكتاب والسنَّة وهي أكثر من أن تُحصى وقد مرَّ بعضها ولا محذور في التمسّك بالأدلَّة السمعيَّة في باب التوحيد، وهذه هي المُعتمَد عليها عندي، وبسَّط الكلام في تلك الأدلة وما سواها ممَّا لم نُشر إليها موكول إلى مظانه» (٢٩).

ولعلَّ الإمام الخميني ﷺ أراد المجلسيَّ أو الاسترآبادي ومن حذا حذوهما عندما قال:

«وإذا ورد في كلام بعض المحدّثين ذوي المقام الرفيع أنَّ الاعتماد في باب إثبات التوحيد على الدليل النقليّ فهو من غرائب الأمور بل من المصائب التي ينبغي أن نَلوذ إلى الله تعالى منها، وهذا الكلام لا يَستدعي الاستهجان أو التحريج وإلى الله المُشتكَى» (٣٠).

والمُراجع لكلم المجلسي ﷺ يُلاحظ ما يلي:

أولاً: يَدفع الإشكال المذكور ما نقله المجلسيّ عمَّن وصفه بقوله: «بعض الأفاضل»، وذلك ذيل الحديث: »عَنْ عَبْدِ الرَّحْمن بنِ الحَجَّاجِ قالَ قالَ لي أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام: «إيَّاكَ وخَصْلَتيْنِ فَفِيهِما هَلَكَ مَنْ هَلَكَ، إيَّاكَ أنْ تُفْتيَ النَّاسَ برأْيِكَ أو تَدِينَ بِما لا تَعْلَمُ» (٣١).

«أي أن تَعبد الله بما لا تعلمه بثبوته بالبراهين والأدلَّة العقليَّة، أو بالكتاب والسنَّة، والأدلَّة السمعيَّة، ويُحتمل أن يكون من دان أي اتَّخذه ديناً، يعني إيَّاك أن تتَّخذ ما لا تعلم دين» (٣٢).

فإنَّ نَقله لهذا الكلام ناعتاً قائله بالفضل ومن دون أيِّ تعليقٍ ظاهرٌ في تأييده لما ورد فيه بأنَّ عبادة الله أو التديُّن بدينٍ ينبغي أن يكون بمقتضى الأدلَّة العقليَّة والأدلَّة السمعيَّة.

ثانياً: إنَّ المجلسيّ لم يَرفض الدليل

العقليّ في باب التوحيد، بل جاء بالأدلَّة العقليَّة على ذلك، فإنَّ الكلام السابق الذي استُشهد به إنَّما أورده المجلسي في ذيل الوجوه الاستدلاليَّة على التوحيد حيث جاء بخمسة أدلَّةٍ عقليَّةٍ على ذلك من قبيل برهان الإمكان وبرهان التمانع بتقريرين، ثمَّ جاء بالدليل السادس دليلاً سمعياً[٣٣].

ثالثاً: إنَّ اعتماده على الأدلَّة السمعيَّة من الكتاب والسنَّة لا يَعني بالضرورة كونها حجَّة بنفسها في باب التوحيد، بل لكون الكتاب والسنة هاديَين ومرشِدَين إلى حكم العقل بالتوحيد، فإنَّه من المُمكن استنباط بعض البراهين العقليَّة لأصول الدِّين من الكتاب والسنَّة كما قيل في دلالة قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ﴾ (الطور، ٣٥) على بطلان التسلسل.

وأمَّا قوله «وهو المُعتمَد عندي» فلعلَّه يُريد به أنَّ إرشادات الدليل السمعيِّ من الكتاب وروايات أهل البيت عليهم السلام إلى الأدلَّة العقليَّة مصونةٌ عن الخَطَل ومنزَّهةٌ عن الزلل الذي يُمكن أن يَقع به الفلاسفة والحكماء التابعين لليونانيِّين على حدِّ قوله.

نعم يَرد إشكالٌ من جهةٍ أُخرى وهي أنّ فهمنا لما أَرشد إليه السمع واستنباطاتنا من الكتاب والسنَّة غير مصانين من الخطأ أيضاً، ولكن هذا إشكال آخر يَختلف عن الأوَّل، وممَّا بيَّناه من مراد المجلسي رحمه الله لا يَلزم محذور الدور في إثبات الصانع والتوحيد من الأدلَّة النقليَّة.

٤ ـ ومن كلماته التي تُوهم دلالتها على منع المجلسي من حجيَّة العقل قوله رحمه الله في رسالة الاعتقادات: «ومعاذ الله أن يتَّكِلَ الناس إلى عقولهم في أصول العقائد، فيتحيَّرون في مراتع الجهالات»[٣٤]. ونحن لو عُدنا إلى كلام المجلسيِّ السابق واللاحق لِمَا ذُكر أعلاه لَتبيَّن لنا سياق الكلام بوضوحٍ ولارتَفع اللبس في مراده رحمه الله

فإنَّما أورد الكلام المذكور لأنَّه كان يُشدِّد في النكير على أصحاب العقول الذين اعتمدوا آراء ونظريَّات الفلاسفة اليونانيِّين الملاحدة على حدِّ قوله، وتركوا روايات وأخبار أهل البيت عليهم السلام وراحوا يؤوِّلون الأخبار ويحمِلونها على ما يُوافق أقوال ونظريَّات هؤلاء الفلاسفة. ونحن سنُورد كلامه بتمامه حتَّى يتَّضح مراده رحمه الله: «ثمَّ إنَّهم صلوات الله عليهم تركوا بيننا أخبارهم، فليس لنا في هذا الزمان إلا التمسّك بأخبارهم، والتدبّر في آثارهم، فترك أكثر الناس في زماننا آثار أهل بيت نبيّهم، واستبدَّوا بآرائهم. فمنهم من سلَك مسلك الحكماء الذين ضلَّوا وأضلَّوا، ولم يُقِّروا بنبيٍّ، ولم يُؤمنوا بكتابٍ واعتمدوا عقولهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة، فاتَّخذوهم أئمّةً وقادةً. فهم يؤوِّلون النصوص الصريحة الصحيحة عن أئمَّة الهدى صلوات الله عليهم بأنَّه لا يُوافق ما ذهب إليه الحكماء، مع أنَّهم يَرون أنَّ دلائلهم وشُبهَهَم لا تُفيد ظناً ولا وهماً، بل وليس أفكارهم إلا كنسج العنكبوت. وأيضاً يرون تَخالَف أهوائهم وتَباين آرائهم، فمنهم مشَّاؤون، ومنهم إشراقيِّون، قَلّ ما يُوافق رأي إحدى الطائفتين رأي الأخرى، ومعاذ الله أن يتَّكِلَ الناس إلى عقولهم في أصول العقائد، فيتحيَّرون في مراتع الجهالات. ولعمري إنَّهم كيف يَجترئون أن يؤوِّلوا النصوص الواضحة الصادرة عن أهل بيت العصمة والطهارة، لحُسن ظنهم بيونانيٍّ كافرٍ لا يَعتقد ديناً ولا مذهباً»[٣٥]. ويَحتمل كلامه هذا أنَّه أنكر الاعتماد على العقل في أصول العقائد من قبيل التفكّر في ذات الله أو في معنى أنَّ الذَّات عين الصفات أو أنَّ العالم قديم أو حادث... وما شاكلها من المسائل المرتبطة بأصول العقائد وإنكارها يَستلزم ـ في رأي المجلسيّ كحدوث العالم ـ إنكار التوحيد وتعدّد الواجب، وهذه المسائل وإن كان

بعضها قابلاً للإثبات عقلاً وأثبَته الحكماء والمتكلِّمون إلا أنَّ هذا لا يُلازم نفي حجيَّة العقل مطلقاً عنده بل غاية ما يدلُّ عليه كلامه هو نسبة الخطأ إلى عقولهم في الاستدلال على الأصول الاعتقاديَّة».

والحقُّ أنَّ نزاع المجلسي مع الفلاسفة لم يَكن في أصل اعتماد العقل بل كان خلافه معهم حول حدود ومجالات اعتبار العقل في الدِّين، فمثلاً نرى أنَّ المجلسيَّ لا يُسلِّم بكون الصفات الإلهيَّة عين الذَّات؛ لعدم ورود النقل بذلك ممَّا يدل على أنَّ مراد المجلسيّ من رفض الأدلَّة العقليَّة في أصول الدين هو رفض اعتمادها في بعض التفاصيل والجزئيَّات من أصول الدِّين لا نفس أصول الدِّين فإنَّه أنكر عينيَّة الصِّفات للذَّات لعدم تأييد النقل، لذلك لا يَرى للعقل دوراً وكشفاً في ذلك، قال ﷺ:

«ويدل ـ الحديث ـ على نفي زيادة الصِّفات أي نفي صفات موجودةٍ زائدةٍ على ذاته سبحانه، وأمَّا كونها عين ذاته تعالى بمعنى أنَّها تصدق عليها أو أنَّها قائمة مقام الصفات الحاصلة في غيره تعالى أو أنَّها أمور اعتباريَّة غير موجودةٍ في الخارج، واجبة الثبوت لذاته تعالى فلا نصَّ فيه وفي أمثاله على شيءٍ منها، وإن كان ظاهر أكثرها أحدَ الأوّلين» (٣٦).

لكن يَبدو أنَّ المجلسي عَدلَ عن هذا الرأي وقال بثبوت كون صفاته تعالى عين ذاته قال في رسالته القيّمة الاعتقادات التي أورد فيها عصارة آرائه ومبانيه:

«فمما ثَبَت في الدِّين بالآيات والأخبار المتواترة هو أنَّه تعالى واحدٌ لا شريك له في ملكه، ولا يَجوز عبادة غيره، ولم يَستعن في خلق العالم بأحدٍ غيره، وأنَّه أحديُّ الذَّات ليس له أجزاء خارجيَّة ولا وهميَّة ولا عقليَّة، وأنَّه أحديُّ المعنى ليس له صفات زائدة، بل صفاته عين ذاته» (٣٧).

فرسالة الاعتقادات ألّفها بعد أعوام من الشروع في تأليف مرآة العقول، وما ذكره من عدم النصِّ على ثبوت أنَّ الصفات عين الذَّات إنَّما هو في أوائل المرآة فمن المُحتمل قويّاً جدّاً أنْ يكون تَراجَعَ في الاعتقادات عن ذلك، قال صاحب الذريعة:

«وقد فرغ من تصنيفه ـ المرآة ـ في السنة الثانية بعد المائة والألف، وكان قد فرغ من شرح كتاب روضة الكافي في ١٠٧٦ كما في نسخة الرضويَّة فيظهر أنَّه بدأ بشرح كتاب الروضة وكان في شرح البقيَّة إلى ١١٠٢» [٣٨].

وفي رسالة جوابيَّة على أسئلة ثلاث كانت قد طُرحت عليه أبَانَ المجلسي مدى اعتبار العقل ودائرة حجيَّته في تحصيل المعارف وفهم النصوص الدينيَّة، وقد وجد أحد الباحثين نُسَخاً خطيَّةً مختلفة منها، وبالرغم من عدم وجود هذه الرسالة المختصرة في مؤلَّفات المجلسيّ التي ذكرها سبطه وتلميذه الخاتون آبادي إلا أنَّه استدلَّ على صحَّة نسبتها للمجلسيّ بوجودها في رسالة نقضيَّة على الصوفيين توفِّيَ مؤلِّفها عام (١١٧٣هـ) [٣٩]، يقول المجلسي ﷺ: (وأرى عدم صحَّة العمل بالأصول العقليَّة غير المُستنبَطة من الكتاب والسنَّة، ولكن أرى جواز اتِّباع الأصول والقواعد الكليَّة المُستخرَجة من عمومات الكتاب والسنّة إذا لم تُعارض بنصٍّ خاص، وقد ذَكرت تفصيل هذه الأمور في المجلَّد الأخير من بحار الأنوار» [٤٠] فيُلاحظ أنَّ المجلسيَّ يرى حجيَّة القواعد الأصوليَّة والفقهيَّة المُستفادة من الكتاب، وأمَّا الأصول والنظريَّات التي جاء بها الفلاسفة من قبيل العقول العشرة وقِدَم العالم الزمانيّ والحركة الجوهريّة ووحدة الوجود وتجرّد الروح [٤١] فهو يُنكرها لمخالفتها للكتاب والسنَّة على حدٍّ رأيه.

فتعبير المجلسي عن آراء ونظريَّات الفلاسفة التي يُخالفها بقوله «الأصول

العقليَّة» لا يُريد به إنكار الأصول العقليَّة البديهيَّة كبطلان التناقض والدور والترجيح بلا مرجِّح وأنَّ الضدَّين لا يَجتمعان، والكلُّ أكبر من الجزء والواحد نصف الاثنين... ولا إنكار الأصول والقواعد العقليَّة التي يُثبَت بها أصول الدِّين، فقد ورد في طيَّات مؤلّفاته ﷺ الكثير من المحاكمات تأييداً أو إبطالاً لبعض المسائل معلِّلاً ذلك بمطابقتها أو مخالفتها للأدلَّة العقليَّة، وتصريحه بذلك وتبنّيه له لا يَقبل الشك والارتياب كما مرَّ عليك شواهده وإنكارُه مكابرةٌ، فما ورد على لسانه ممَّا يُوهم إنكاره لحجيَّة العقل، إنَّما أراد به العقل الفلسفيّ أو الاستدلالات المبنيَّة على المقدِّمات البعيدة والمفاهيم الفلسفيَّة المبهَمة لا مُطلق العقل، أو أنَّه قال ذلك وكرَّره ردَّاً على المتبجِّحين بحجيَّة العقل في كلِّ شيءٍ.

٥ ـ وفي الجواب عن إشكال معرفة الإمام بوقت وفاته ومع ذلك يُعين على نفسه حيث قال الإمام عليه السلام: «خُيِّر في تلك الليلة لتمضي مقادير الله عزَّ وجلّ»، قال المجلسيّ: «هو مبنيٌّ على منع كون حفظ النفس واجباً مطلقاً، ولعلَّه كان من خصائصهم عدم وجوب ذلك عند اختيارهم الموت، وحكم العقل في ذلك غير متَّبع، مع أنَّ حكم العقل بالوجوب في مثل ذلك غير مسلَّم» (٤٢).

ولا شكَّ أنَّ وجوب حفظ النفس ممَّا تسالم عليه العقلاء وهو لا يتوقَّف على وروده في الشرع أو عدم وروده، ولا يتوقَّف أيضاً على عِلم المكلَّف بوروده في الشرع، فالعقلاء يَلومون من يَتناول السُمَّ القاتل، أو يُلقي بنفسه إلى التّهلكة ويُعرِّضها للإتلاف، بل إنَّ العقلاء يَلومون من لم يَدفع عن نفسه الضرر المعتدَّ به ويُوجبون التحرّز عن مثل هذا الضرر فضلاً عن الموت.

ولو اكتفى ﷺ بعدم إيجاب حفظ

النفس عليهم عليهم السلام لكان أسهل وأهون؛ لأنَّ حفظ النفس ليس واجباً مطلقاً وعلى كلِّ حالٍ بل إنَّما حفظ النفس إذا لم يُزاحمه واجب أهمُّ وأخطر كمن يُجاهد ويُعرِّض نفسه للهلاك حفاظاً على بيضة الإسلام، أو ذوداً عن عِرضه...

وقد يُقال أنَّ استثناؤه لهم عليهم السلام من وجوب حفظ النفس عند الموت إنَّما هو من قبيل تخصيص الأحكام العقليَّة والمعروف أنَّ الأحكام العقليَّة آبية عن التخصيص ذلك لأنَّه وإن شكَّك في حكم العقل بوجوب حفظ النفس، لكنَّه بعد أن فرَض التسليمَ بهذا الوجوب العقليّ صرَّح بعدم وجوب اتِّباعه، وبعبارةٍ أُخرى فهو يَرد حكم العقل على فرض حكمه بذلك الوجوب وإن لم يُسلِّم بحكومة العقل.

لكن يُمكننا توجيه الحديث المذكور مع الحفاظ على وجوب حفظ النفس عقلاً بأن يُقال:

أولاً: ما عرفته ممَّا ذكرناه آنفاً، فإنَّ حفظ النفس ليس واجباً مطلقاً ومن دون قيدٍ وشرطٍ، بل هو واجب عند عدم مزاحمة واجب أهمّ له كحفظ الدِّين.

ثانياً: إنَّ الحديث المذكور يصرّح بأنَّ أمير المؤمنين عليه السلام خُيِّر من عند الله عزَّ وجل بين البقاء واللقاء، وإنَّ أصل التخيير من الله لو ثبت يدلُّ بداهةً على أنَّ الخيارَين مورد رضا الله عزّ وجل وطاعته، وإن كان أحدهما أحَبَّ إلى الله وأعظم وأنفع وأولى له عليه السلام، وما من شكٍّ أنَّ العقل حاكم بوجوب طاعة المولى الحقيقي فيدخل اختياره عليه السلام لقاءه تعالى في طاعته التي يُوجبها العقل.

ومهما يكن فإنَّنا لو سلَّمنا بتنكُّره لحكم العقل هنا، فلا يُمكن تعميم القول بقوله بعدم اعتبار العقل مطلقاً وهو واضح.

٦ ـ وفي الاستدلال على عصمة

الأنبياء والأئمَّة عليهم السلام قال المجلسي: «فاعلم أنَّ العمدة فيما أختاره أصحابنا من تنزيه الأنبياء والأئمَّة عليهم السلام عن كلِّ ذنبٍ ودناءةٍ ومنقصَةٍ قبل النبوَّة وبعدها قول أئمتنا سلام الله عليهم بذلك، المعلوم لنا قطعاً بإجماع أصحابنا مع تأيّده بالنصوص المتضافرة، حيث صار ذلك من قبيل الضروريَّات في مذهب الإماميَّة. وقد استدلَّ عليه أصحابنا بالدلائل العقليَّة» (٤٣).

وكلامه هذا لا يَظهر منه أكثر من تقديم النقل على العقل في إثبات العصمة، وهو وإن كان باطلاً؛ لأنَّه يَستلزم الدور من حيث أنَّ إثبات حجيَّة أقوالهم عليهم السلام يتوقَّف على عصمتهم، وعصمتهم متوقِّفة على أقوالهم، فلا يُمكن الاستفادة منه تبنّيه عدم حجيَّة الاستدلالات العقليَّة، فتقديمه النقل على العقل واعتماده النقل شيءٌ وعدم حجيَّة العقل شيءٌ آخر.

معرفة الله موهبيَّة أم اكتسابيَّة عند المجلسيّ؟

أطبق علماء الإسلام على أنَّ معرفة الله عزَّ وجل واجبةٌ، واتَّفق أكثرهم على أنَّ هذه المعرفة لا تحصل إلا بالاستدلال والنَّظر في مقدِّماتها للوصول إلى العلم بوجوده عزَّ وجل، وأنَّ هذه المعرفة اكتسابيَّة لا بدَّ من إعمال النَّظر والتفكِّر فيها وليست ضروريّةً بديهيَّةً ولم يجوِّز التقليد فيها إلا من شذّ.

لكنَّهم اختلفوا في أنَّ هذا الدليل الذي دلَّ على وجوب المعرفة هل هو العقل أو السمع؟ فقال الأشعريَّة بأنَّ دليل وجوب معرفة الصانع هو النقل، وقال الإماميَّة والمعتزِلة بأنَّه العقل، وإذا ورد في الشرع ما يُوجب ذلك فهو مؤيِّد لحكم العقل.

وليس معنى الوجوب العقليِّ هنا إلا إدراك العقل لضرورة المعرفة ولزوم التفكير والاجتهاد في أصول

الاعتقادات، وهذا يَعني أنَّ العقل هو الطريق لحصول هذا النوع من المعارف والوسيلة التي يَكتسب بها أصول الاعتقادات كالتوحيد فهي اكتسابيَّة تحصيليَّة.

هذا هو المشهور والمعروف عند الإماميَّة بل عند أكثر علماء الإسلام وهو أنَّ معرفة الله كسبيَّة تحصل بالتفكّر والتدبّر، أمَّا المجلسيّ فمع اعترافه بذلك وقوله: «لكن المشهور بين المتكلِّمين من أصحابنا والمعتزلة والأشاعرة أنَّ معرفته تعالى نظريَّة واجبةٌ على العباد... وإجماع المتكلِّمين على وجوب النَّظر في معرفة الله تعالى، بل إجماع الأمَّة عليه» (٤٤) نراه يَعتقد متأثِّراً بالأمين الاسترآبادي مؤسِّس المنهج الأخباري أنَّ العلوم والمعارف إلهامٌ من الله، وليس للمكلَّف دور في حصولها له إلا التسليم والإقرار بالله والعقائد الحقَّة وتهذيب النفس بالعبادات والأعمال الصالحات، بل لم يقف المجلسيُّ عند ذلك بل هو يرى أنَّ تحصيل العلوم والمعارف مُحالٌ والأمر باكتسابها وتحصيلها أمر بالمحال.

وإنَّما نحى المجلسي هذا المسلك لاستظهاراته من بعض الأخبار التي يَظهر منها أنَّ المعرفة من فعل الله وصُنعه ففي الحديث عَنْ مُحَمَّدِ بنِ حَكيمٍ قالَ: «قُلْتُ لأَبي عَبْدِ الله عليه السلام المَعْرِفَةُ مِنْ صُنْع مَنْ هيَ؟ قالَ مِنْ صُنْعِ الله لَيْسَ للعِبَادِ فيها صُنْع» (٤٥).

ونحن هنا سنُورد كلام المجلسي رحمه الله الذي ذكره ذيل هذا الحديث حرفيَّاً وكلاماً آخر له ذيل حديثٍ آخر ثمَّ نناقشه، يَقول شارحاً الحديث السابق: «والمراد بالمعرفة إمَّا العلم بوجوده سبحانه فإنَّه ممَّا فطر الله العباد عليه، إذا خلوا أنفسهم عن المعصية، والأغراض الدنيَّة كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ ﴿لَيَقُولُنَّ الله﴾ وبه فسَّر قوله عليه السلام: من عرف نفسه فقد عرف ربَّه، أي من وصل إلى حدٍّ

يعرف نفسه فيُوقِن بأنَّ له خالقاً ليس مثله، ويُحتمَل أن يكون المراد كمال المعرفة، فإنَّه من قِبَل الله تعالى بسبب كثرة الطاعات والعبادات والرياضات، أو المراد معرفة غير ما يتوقَّف عليه العلم بصِدْق الرُّسل فإنَّ ما سوى ذلك إنَّما نعرفه بما عرَّفنا الله على لسان أنبيائه وحُججه صلوات الله عليهم، أو يُقال: المراد بها معرفة الأحكام الفرعيَّة لعدم استقلال العقل فيها، أو المعنى أنَّها إنَّما تحصل بتوفيقه تعالى للاكتساب وذهب الحكماء إلى أنَّ العلَّة الفاعلة للمعرفة تصوريَّاً كان أو تصديقيَّاً، بديهيَّاً كان أو نظريَّاً، شرعيَّاً كان أو غيره، إنَّما يَفيض من الله تعالى في الذِّهن بعد حصول استعدادٍ له بسبب الإحساس أو التجربة أو النظر والفكر والاستماع من المعلِّم أو غير ذلك، فهذه الأمور مُعِدَّات والعبد كاسبٌ للمعرفة لا موجد لها، والظاهر من أكثر الأخبار أنَّ العباد إنَّما كُلِّفوا بالانقياد للحقِّ وترك الاستكبار عن قبوله، فأمَّا المعارف فإنَّها بأسرها ممَّا يُلقيه الله سبحانه في قلوب عباده بعد اختيارهم للحقِّ، ثمَّ يُكمِّل ذلك يوماً فيوماً بقدَر أعمالهم وطاعاتهم حتَّى يُوصِلَهم إلى درجةِ اليقين، وحسبك في ذلك ما وصل إليك من سيرة النبيين وأئمَّة الدِّين في تكميل أُممهم وأصحابهم فإنَّهم لم يُحيلوهم على الاكتساب والنَّظر، وتَتبِّع كتب الفلاسفة وغيرهم، بل إنَّما دعوهم أولاً إلى الإقرار بالتوحيد وسائر العقائد، ثمَّ إلى تكميل النفس بالطاعات والرياضات، حتَّى فازوا بما سعدوا به من أعالي درجات السعادات».

وبعد عدَّة صفحات أورد الحديث التالي: «عَنْ حَمَّادٍ عَنْ عَبْد الأعْلَى قالَ قُلْتُ لأبي عَبْدِ الله عليه السلام أصْلَحَكَ اللهُ هَلْ جُعِلَ في النَّاسِ أداةٌ يَنالُونَ بها المَعْرِفَةَ قالَ فَقالَ لا ثُلْتُ فَهَلْ كُلِّفُوا المَعْرِفَةَ قالَ لا عَلَى الله البَيَانُ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلا وُسْعَها، ولا

يُكَلِّف الله نَفْساً إلا ما آتاها قالَ وسَألْتُهُ عَنْ قَوْلِه وما كانَ الله لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إذْ هَداهُمْ حتَّى يُبَيِّنَ لهُمْ ما يَتَّقُونَ قالَ حتَّى يُعَرِّفَهُم ما يُرْضِيه وما يُسْخِطُه» (٤٦) ثمَّ علّق عليه بقوله: «هل جعل في الناس أداةً: أي آلةً من العقل والفهم يَنالون بها بدون التعريف والتوقيف المعرفة بأحد المعاني المتقدِّمة، (فهل كُلِّفوا المعرفة): أي بالنظر والاستدلال (على الله البيان): أي وعليهم القبول كما رُوي في التوحيد عن الصادق عليه السلام قال: ليس لله على الخلق أن يَعرفوا قبل أن يَعرفهم، وللخلق على الله أن يُعرِّفهم، ولله على الخلق إذا عرفهم أن يَقبلوا، ثمَّ أشار عليه السلام إلى أنَّ تكليفهم بالمعرفة أو بكمالها تكليف بالمحال بقوله: ﴿لا يُكَلِّفُ الله نَفْساً إلا وُسْعَها﴾ والوِسْع أوسع من الطاقة، ﴿ولا يُكَلِّفُ الله نَفْساً إلا ما آتاها﴾ أي ما آتاها علمه، وظاهره أنَّ المعارف توقيفيَّة، وتكليفهم بتحصيلها تكليفٌ بالمُحال وقد سبَق الكلام فيه» (٤٧).

وأغرب ما في كلامه أنَّه نَسب إلى الأنبياء والأئمَّة عليهم السلام عدم دعوة الناس إلى التفكّر والتعلّم في الأصول والفروع والاكتفاء بالتسليم والطاعة حيث قال: «فإنَّهم لم يُحيلوهم على الاكتساب والنظر» وهو يُناقض جهاراً دعوة الكتاب والسنَّة إلى طلب العلم وتحصيله وهي صريحة ومواردها كثيرةٌ جدًّا.

وأغرب من هذا هو توجيهه لِمَا ورد فيهما بما نَقله عن الأمين الاسترآبادي في الفوائد المدنيَّة حيث نَقل له أكثر من كلام، يقول المجلسيّ:

«وقال ـ الاسترآبادي ـ في موضعٍ آخر: قد تواترت الأخبار أنَّ معرفةَ خالق العالم ومعرفة النبيّ والأئمّة عليهم السلام ليستا من أفعالنا الاختياريَّة، وأنَّ على الله بيان هذه الأمور وإيقاعها في القلوب بأسبابها، وأنَّ على الخلق بعد أن أوقع الله تلك المعارف الإقرار لها

والعزم على العمل بمقتضاها. ثمَّ قال في موضعٍ آخر: قد تواترت الأخبار عن الأئمَّة الأطهار عليهم السلام بأنَّ طلب العلم فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ كما تواترت بأنَّ المعرفة موهبةٌ غير كسبيَّة، وإنَّما عليهم اكتساب الأعمال فكيف يكون الجمع بينهما؟ أقول: الذي استفدته من كلامهم عليهم السلام في الجمع بينهما: أنَّ المراد بالمعرفة ما يتوقَّف عليه حجيَّة الأدلَّة السمعيَّة من معرفة صانع العالم، وأنَّ له رضاً وسخطاً، وينبغي أن يَنصب معلِّماً ليعلم الناس ما يصلحهم وما يفسدهم، ومن معرفة النبي صلى الله عليه وآله، والمراد بالعلم الأدلَّة السمعيَّة كما قال صلى الله عليه وآله: «العلم إمَّا آية محكَمة أو سنَّة متَّبعة أو فريضة عادلة»، وفي قول الصادق عليه السلام: «إنَّ من قولنا أنَّ الله احتجَّ على العباد بما آتاهم وعرفهم، ثمَّ أرسل إليهم الرسول وأنزل عليهم الكتاب وأمر فيه ونهى»، وفي نظائره إشارة إلى ذلك، ألا ترى أنَّه عليه السلام قدَّم أشياء على الأمر والنهي، فتلك الأشياء كلَّها معارف، وما يُستفاد من الأمر والنهي كلّه هو العلم، ويُحتمل أيضاً أن يُراد بها معرفة الأحكام الشرعيَّة وهو الذي ذهب إليه بعض أصحابنا حيث قال: المراد بهذه المعرفة التي يُعذَّب ويُثاب مخالفها وموافقه»[٤٨].

أولاً: إنَّ الآيات في طلب العلم والأخبار في إحالتهم عليهم السلام لشيعتهم على التعلّم والتفكّر في الأصول والحثِّ على ذلك والترغيب إليه بألوان الثواب وأنواع الترغيب عن تركه كثيرة جداً، أمَّا في القرآن فهو كقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ﴾ (محمّد، ١٩) ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالحَقِّ وَأَجَلٍ﴾ (الروم، ٨) ﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾(الغاشية، ١٧) ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا

خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران، ١٩١)... وأمَّا في الأخبار فمثل ما ورد: عَنْ يُونُسَ عنْ جَمِيل عَنْ أبي عَبْدِ الله عليه السلام قالَ: سَمِعْتُه يقُولُ يَغْدُو النَّاسَ عَلَى ثَلاثَةِ أصْنافٍ عَالِمٍ ومُتعلِّمٍ وغُثَاءٍ فنَحْنُ العُلَماءُ وشِيعَتُنا المُتَعَلِّمُون وسَائرُ النَّاسِ غُثاء» [٤٩] وهي صريحة في ذلك بلا مِرية وهو لازم كون العلوم اكتسابيَّة كما هو واضح، وغريب جداً منه أن يدَّعي ذلك حتَّى ولو تبنَّى ما قاله الاسترآبادي من الفَرق بين المعرفة والعلم، وأنَّ المُراد بالمعارف العقائد وبالعلوم الأحكام الشرعيَّة حيث نَقل عنه: «المراد بالمعرفة ما يتوقَّف عليه حجيَّة الأدلَّة السمعيَّة من معرفة صانع العالم، وأنَّ له رضاً وسخطاً، ويَنبغي أن يُنصِّب معلّماً ليعلِّم الناس ما يُصلحهم وما يُفسدهم، ومن معرفة النبي صلى الله عليه وآله، والمراد بالعلم الأدلَّة السمعيَّة كما قال صلى الله عليه وآله: «العلم إمَّا آيةٌ محكَمة أو سُنَّة متَّبعة أو فريضة عادلة» [٥٠].

وذلك لأنَّه وإن كان التتبُّع يُفضي إلى أنَّ أكثر ما استُعملت «المعرفة» به في الحديث هو ولاية الأئمَّة عليهم السلام والاعتقاد بالله والنبي صلى الله عليه وآله خاصّةً وهي أكثر ما وردت في الولاية إلا أنَّ أحداً لا يَستطيع إنكار جواز إطلاق كلٍّ من «العلم» و«المعرفة» على كلٍّ من الاعتقادات والأحكام والأخلاق وقد وقع في الكتاب والسنَّة كما قال تعالى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله﴾ (محمد، ١٩) وكما ورد في الحديث: «مَا العِلْمُ باللهِ والعَمَلُ إلاّ إلْفَانِ مُؤْتَلِفانِ فَمَنْ عَرَفَ الله خافَهُ وخَشَّهُ الخَوْفُ عَلَى العَمَلِ بطَاعَةِ الله وإنَّ أرْبابَ العِلْمِ وأتْبَاعَهُمُ الَّذينَ عَرَفُوا الله فَعَمِلُوا لَهُ وَرَغِبُوا إلَيْه وقَدْ قالَ اللهُ إنَّما يَخْشَى الله من عِبادِهِ العُلَماءُ» [٥١] بل إنَّ المجلسيّ نفسه علّق على الحديث الذي نقله عن الكافي عن عَلِيُّ بنُ إبْراهِيم عَنْ أبيهِ عَنْ النَّوْفَلِيِّ عَنِ السَّكُونيِّ عَنْ أبي عَبْدِ الله عليه السلام قالَ ثَلاثَةٌ مِنْ عَلامَاتِ المُؤْمنِ

العِلْمُ بالله ومَنْ يُحِبُّ ومَنْ يَكْرَه» بقوله:

«بيان: العلم بالله أي بالربوبيَّة وصفاته الكماليَّة فيؤمن به ومن يُحِب أي يُحبِّه الله من النبي والأئمَّة عليهم السلام وأتباعهم فيواليهم ويُتابعهم أو من يُحبه المؤمن ويَلزمه محبَّته ومن يَكره أي يكرهه الله فيُبغضه ولا يُواليه أو من يُحب أن يكره» (٥٢).

ثانياً: إنَّ كلام المجلسي حول كيفيَّة حصول المعرفة يَكتنفه الإبهام بل التعثُّر البيِّن فهو من جهة يُلزم المكلَّفين بضرورة اتِّباع الحق والإقرار بأصول الدّين، ومن جهةٍ أُخرى يقول إنَّ العلوم جميعَها سيَّما معرفة الله وتوحيده تحصل بالإلهام لكن بعد اتِّباع الحقّ، وهاك كلامه:

«والظاهر من أكثر الأخبار أنَّ العباد إنَّما كُلِّفوا بالانقياد للحقِّ وترك الاستكبار عن قبوله، فأمَّا المعارف فإنَّها بأسرها ممَّا يُلقيه الله سبحانه في قلوب عباده بعد اختيارهم للحقِّ ثمَّ كمّل ذلك يوماً فيوماً...» (٥٣).

فكلامه هذا يؤدِّي إلى الدور لأنَّ الظاهر منه أنَّ اختيار الحقِّ من المكلَّفين لا يَقع إلا بعد إلقاء المعراف بأنواعها بما فيها المعارف الأصوليَّة (حيث قال: يُلقيه.. بعد اختيارهم للحقّ)، وهذا هو الدور بعينه لأنَّك ترى أنَّ اختيار الحقّ (أي المعارف الحقَّة) من المكلَّف شرط حصول الحقِّ للمكلَّف فتوقَّفَ حصول الحقِّ على نفسه. إلا أن يكون مراده بالمعارف أدلَّة الأصول الدينيَّة وبراهينها وعندها يكون المُلقَى من الله عزَّ وجل إلى قلوب العباد هو دلائل التوحيد مثلاً نتيجةَ تسليمهم للحقّ، وأمَّا نفس الإيمان بالله ووحدانيَّته فهو حاصل له ومفطور عليه.

ولكن لو كان مراده ذلك فمؤدَّى هذا الكلام أن يكون اختيار الإنسان للتوحيد مجرَّداً عن الدليل، لأنَّ اختيار التوحيد يكون قبل إلقاء الأدلَّة إليه أي

يكـون اختيـاراً لا عـن تفكّـر وتـدبّر فيكـون الاختيـار اتّفاقيـاً وأيُّ مـدح يستحقَّه مختـار ذلـك، بـل لـو اختـار التوحيد من دون أدلَّتـه كـان ترجيحـاً بلا مرجِّح.

ثالثاً: المناقشة في فقه الحـديث: أي سؤال مُحَمَّدِ بنِ حَكيمٍ قالَ: «قُلْتُ لأبي عَبْدِ الله عليه السلام: المَعْرِفَـةُ مِـنْ صُـنْعِ مَـنْ هيَ؟ قالَ: مِنْ صُـنْعِ الله لَـيْسَ لِلعِبـادِ فِيها صُنْع» فهو وإن كان ظـاهره يـدلُّ عـلى أنَّ صـانع العـالم عـزَّ وجـل هـو صانع المعرفة، وليس غيره إلا أنَّـه إنَّـما جاز سلب صناعتها عـن غـير الله لأنَّ الله هو واهب العقول والقوى التي بها تحصل العلوم والمعارف، ولولاهـا لما تمكَّنَ الإنسـان مـن المعرفـة هـذا مـن جهـةٍ، ومـن جهـةٍ ثانيـةٍ فـإنَّ بعـض أسباب حصول المعارف يَقع في اختيار الإنسـان كالسـعي والجـدِّ لـه ورفـع الموانع عن ذلـك والله عـزَّ وجـلَّ هـو جاعل الاختيار للإنسان، ومـن جهـةٍ ثالثةٍ فإنَّ أسباب حصول المعارف التي جزءٌ منها بيد الإنسان لا تَكفي؛ لأنّهـا جزء العلَّة لا تمامها، فلا بـدَّ أن تنضـمَّ إليهـا الإفاضـة الإلهيَّـة، ولمَّـا كانـت الإرادة الإلهيَّة جزءَ العلَّـة ولا يتحقَّـق المعلول إلا بتحقِّق جميـع أجـزاء العلَّـة جاز نسبة صناعتها إلى الله عـزَّ وجـل، بل جاز حصرها بالله تعـالى للجهـات الثلاث التي ذكرناها، وقـد ورد نسـبة الهداية والإضلال بل حصرُها بـه عـز وجـل في قولـه تعـالى ﴿فَـما لَكُـمْ فِي المُنَـافِقِينَ فِئَتَـيْنِ وَالله أَرْكَسَـهُمْ بِمَـا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ الله وَمَنْ يُضْلِلْ الله فَلَنْ تَجِـدَ لَـهُ سَـبِيلاً﴾ (النساء، ٨٨) وكـذلك قولتـه تعـالى: ﴿مَن يُضْلِلِ الله فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَـانِهِمْ يَعْمَهُـونَ﴾ (الأعـراف، ١٨٦) وغير ذلك من الآيات.

والصحيح في فقه هذه الرواية أنَّها ونظائرها مـن الروايـات التـي يَظهـر منها أنَّ العلم والمعرفـة الإنسـانيَّة مـن أفعـال الله إنَّـما تَقصـد إلى أنَّ الله عـزَّ وجـل فطـر الإنسـان عـلى الإيـمان

بوجوده، فلو تفكَّر ونَظَر في الآفاق وفي النفس لأمكن له التصديق بذلك، وعليه فلو آمن الإنسان بعد ذلك فهو إيمان بفعل الله عزَّ وجل الذي هيَّأ له أسباب المعرفة وموادَّها فحاز أن تنسب المعرفة لصنع الله.

وهذا ما علّق به العلامة الطباطبائي على شرح المجلسي للرواية في البحار الذي جاء به مكرَّراً في مرآة العقول مع تغييرات لفظيَّة طفيفة يقول العلامة الطباطبائي:

«لا يخفى أنَّ الإرادة التي هي مناط الاختيار لا تتعلَّق بشيءٍ إلا عن تصوّرٍ وتصديق إجمالاً أو تفصيلاً فمن المُحال أن يتعلَّق الإرادة بأصل المعرفة والعلم فيكون اختياريَّاً من صُنع العبد كأفعال الجوارح، وهذا هو الذي تذكره الروايات، وأمَّا تفاصيل العلم والمعرفة فهي كسبيَّة اختياريَّة بالواسطة بمعنى أنَّ الفكر في المقدِّمات يَجعل الإنسان مستعدَّاً لإفاضة النتيجة منه تعالى، والعلم مع ذلك ليس فعلاً من أفعال الإنسان».

خلاصة واستنتاج

وفي ختام هذه المقالة نخلص إلى القول بأنَّ ما نُسب إلى المجلسي ﷺ من نفي حجيَّة العقل مطلقاً عارٍ عن الصحَّة، والذين نسبوا له هذا القول لم يتمعَّنوا في كلامه أو فَصَلوه عن سياقه أو لم يضمُّوا إليه بياناته وتصريحاته الأخرى.

نعم يَظهر من بعض كلماته نفي حجيَّة العقل في بعض الموارد الخاصَّة، ومع التسليم بعدم صحة ما ادَّعاه فإنَّه لا يُمكن تسرية الحكم إلى جميع مُثبتات العقل فننسب له نفي حجيَّتها؛ لأنَّه يُقرُّ بالبراهين والأحكام العقليَّة ويَعتمدها حجَّةً في ردِّ أو قبول معاني الأخبار.

الهوامش

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج ١، ص ١٥ طهران، دار الكتب الإسلامية، ط٤، ١٤٠٧.

(٢) نهج البلاغة، خ٩.

(٣) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ١، ص ٨٩، بيروت، مؤسسة الوفاء، ط٤، ١٤٠٤.

(٤) مطهري، مرتضى، تعليم وتربيت در اسلام، ص ٣١٠ طهران، انتشارات صدرا، ط٢٣، ١٣٧٣هـ.

(٥) الصدر، محمد باقر، المجموعة الكاملة لمؤلفات السيد الصدر، ج ٣، ص ٥٠ بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ١٤١٠.

(٦) هناك من العلماء من يرفض ذلك ويرى أن المجلسي ليس من المتخصصين في العلوم العقلية، قال كاشف الغطاء في الفردوس الأعلى: ص٢٧٧: »فإنه من المتخصصين في علم المنقول لا المعقول«.

(٧) المجلسي، محمد باقر، مرآة العقول، ج ٢٥، ص ١-٣٠، طهران، دار الكتب الإسلامية، ط٢، ١٤٠٤.

(٨) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ١، ص ٩٩، بيروت، مؤسسة الوفاء، ط٤، ١٤٠٤.

(٩) المجلسي، محمد باقر، الأربعين، ص ١١-١٧ قم، دار الكتب العلمية، اسماعيليان، ١٣٩٩هـ. ق.

(١٠) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٣١.

(١١) المجلسي، محمد باقر، حق اليقين، ص ٤، ١١، ٣٧٥، طهران، دار الكتب الإسلامية، ط٢، ١٤٠٩.

(١٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٣٩.

(١٣) الصفار، محمد بن الحسن، بصائر الدرجات، ص ٥٣٧، قم، مكتبة آية الله مرعشي، ط٢، ١٤٠٤.

(١٤) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٢، ص ١٨٧.

(١٥) الكليني، محمد بن يعقوب، ج١ ص٣٠.

(١٦) المجلسي، محمد باقر، مرآة العقول، ج ١، ص ١٠٠، طهران، دار الكتب الإسلامية، ط٢، ١٤٠٤.

(١٧) المصدر نفسه، ج١١ ص٣٠.

(١٨) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج٩ ص٩٥.

(١٩) المجلسي، محمد باقر، مرآة العقول، ج٥ ص١٣١.

(٢٠) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج٢ ص٤٥٥.

(٢١) المجلسي، محمد باقر، مرآة العقول، ج١١ ص٣٦٥.

(٢٢) الكليني، محمد بن يعقوب، ج١ ص٤٩٦.

(٢٣) المجلسي، محمد باقر، مرآة العقول، ج٦ ص١٠٤.

(٢٤) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٩٣.

(٢٥) المجلسي، محمد باقر، مرآة العقول، ج ١، ص ١٠٩.

(٢٦) كديور، محسن، عقل ودين از نكاه محدث وحكيم، كيهان انديشه، العدد ٤٤ ١٣٧١هـ. ش. ص١٧.

(٢٧) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٢، ص ٣١٣.

(٢٨) المجلسي، محمد باقر، مرآة العقول، ج ٢، ص ٢٦٨.

(٢٩) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٤٦.

(٣٠) الخميني، روح الله الموسوي، آداب الصلاة، طهران، ص ٢٠٠ مؤسسة نشر آثار الإمام الخميني، ط٧، ١٤١٩، ج١ (بالفارسية).

(٣١) الكليني، محمد بن يعقوب، ج١ ص٤٢.

(٣٢) المجلسي، محمد باقر، مرآة العقول، ج١ ص١٣٦.

(٣٣) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٠.

(٣٤) المجلسي، محمد باقر، الاعتقادات، ص ١٧ أصفهان، مكتبة العلامة المجلسي، ط١، ١٤٠٩.

(٣٥) المصدر نفسه.

(٣٦) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٢، ص ١٤.

(٣٧) المجلسي، محمد باقر، حق اليقين، طهران، ص ٢٠.

(٣٨) تهراني، آقا بزرك، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ج ٢٠، ص ٢٨٠، قم، اسماعيليان وكتابخانه اسلاميه، تهران، ١٤٠٨هـ.

(٣٩) رسالة »رد صوفيان« لملا اسماعيل الخواجوئي.

(٤٠) جعفريان، رسول، رويا روتي فقيهان وصوفيان در عصر صفويان، شناخت نامه علامه مجلسي، ص ٣٦٣ طهران، سازمان جاب وانتشارات وزارت فرهنك وارشاد اسلامى، ط١، ١٣٧٨هـ.

(٤١) صرح ﷺ في موضع واحد إمكان تجرد الروح استفادةً من بعض الروايات، وإن كان أكثر كلامه على إنكار ذلك، ومن أراد التفصيل فليراجع كتابنا: مباني فقه الحديث عند المجلسي في مرآة العقول.

(٤٢) المجلسي، محمد باقر، مرآة العقول، ج ٣، ص ١٢٣.

(٤٣) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٢٥، ص ٢٧٥.

(٤٤) المجلسي، محمد باقر، مرآة العقول، ص٢٢٣-٢٢٧.

(٤٥) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج١ ص١٦٣.

(٤٦) الكليني، محمد بن يعقوب، ج١ ص١٦٣.

(٤٧) يظهر من بعض الباحثين أنّه لم يقرأ كلام المجلسي- بتمامه فتصور أن المجلسي- يخالف الأخباريين وزعيمهم فبعد أن نقل كلام المجلسي السابق عن مشهور المتكلمين قال: »كما نشاهد فإن العلامة جعل الأخباريين في مقابل المتكلمين والمعتزلة والأشاعرة وبذلك ضعف نظريتهم« راجع، نصيري، علي، علامه مجلسي ونقد ديد كاههاى فلاسفه، علوم حديث، ١٣٨١هـ. ش، ٤٢؛ المجلسي-، محمد باقر، مرآة العقول،

ج٢، ص٢٢١-٢٢٦، وج٥ ص٢٢٣.

(٤٨) المجلسي، محمد باقر، مرآة العقول، ج٢ ص٢٢٣.

(٤٩) الكليني، محمد بن يعقوب، ج١ ص٣٤.

(٥٠) المجلسي، محمد باقر، مرآة العقول، ج٢ ص٢٢٣.

(٥١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج٨ ص١١٦.

(٥٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٦٤، ص ٣٥٧.

(٥٣) المجلسي، محمد باقر، مرآة العقول، ج٢ ص٢٢٢.

د. حيدر مجيد حسين العليلي
أستاذ واكاديمي / جامعة المثنى

الشخصية المحمدية في الخطاب الاستشراقي البريطاني (حتى نهاية القرن ١٨)

الخطاب المسيحي المعاصر لظهور الاسلام:

لعل الاشارة الاقدم عن الاسلام في الأدب الكنسي المسيحيّ وردت في كتابات القس آيسدور (Isidore ٥٦٠-٦٣٦م) رئيس اساقفة مدينة اشبيلية الذي يعد آخر باحث في تاريخ العالم القديم[١]، وكان معاصرا للرسول ﷺ، واسهمت مدوناته في بلورة الصورة الاولية عن الاسلام في المخيال المسيحي عادّاً الاسلام عدواً للمسيحية وليس هرطقة وثنية ضد المسيح[٢]، وقد ظلت كتاباته وآراؤه مصدر إلهام للكتّاب المسيحين لقرون طويلة [٣]، كما اورد المؤرخ الارمني سيبيوس (Sebeos) الذي كان معاصرا للرسول ﷺ (٣٢٦-٦٦١م): «أن رجلا اسمه مُحَمَّداً من اصول اسماعيلية، ادّعى النبوة وعلّم أبناء بلده العودة إلى ديانة إبراهيم»[٤].

ويبدو ان الكتابات المبكرة حملت بين طياتها رؤية عدائية [٥]، ومنها رسالة رجل يدعى جوستوس (Justus) الى شقيقه ابراهام (Abraham) في١٦ تموز٦٣٤م، أي بعد سنتين من وفاة الرسول ﷺ، يخبره أنّ نبياً مخادعاً ظهر وسط السراسنة، معرباً عن دهشته بقوله: «هل بُعث الانبياء بسيف وعربة حرب؟... انكم سوف لن تعرفوا أي شيء حقيقي عن هذا النبي سوى إراقة الدماء»[٦].

وفي المدة ما بين عامي ٦٣٤-٦٤٠م اعرب القس البيزنطي ماكسيموس (Maximus the Confessor) عن ذهوله من انتشار الاسلام في رسالة كان قد بعثها الى زميله القس بيتر(Peter the Illustrious)، واشار بقوله: «لا يوجد اسوأ من انتشار الشر بين سكان العالم»[٧]، وفي نهاية القرن السابع الميلادي اشار القس اناستاتيويس (Anastasius) الى الاحوال العسكرية للمسلمين معربا عن مدى سعادة البيزنطيين باندلاع الحرب الأهلية بين صفوفهم[٨].

ولعل كتابات هذه الحقبة لم تكن تحمل بين دفتيها غاية لفهم الاسلام او التعرض لمضامينه بقدر تعلق المسألة بطبيعة الخطاب الديني للكنيسة والذي كان يتعارض مع كل عقيدة تظهر خارج حظيرة المسيحية الكاثوليكية[٩].

ويبدو أنّ الاسلام قد شكل مشكلة لأوربا حال ظهوره ونظرت الى المسلمين على انهم أعداء يتسورون حدودها[١٠]، فقد كان العصر الوسيط حقبة الجهل المتأتي اما من ضيق الافق بالبعدين الفكري والجغرافي او الجهل الناجم عن اوهام مخيلة متسعة[١١]، لقد كان الاسلام بالنسبة للكنيسة رقما في قائمة الاعداء الطويلة ولم يكن هؤلاء على استعداد للتمييز بين وثنية الأوربيين الشمالين وتوحيد الاسلام لقد انحصرت جهود المؤلفين اللاتين

في الفترة من(٧٠٠-١١٠٠م) باستنطاق الكتاب المقدس لمعرفة اصول السراسين او السراسنة[١٢] ضمن مدارج السلالات في العهد القديم ومعرفة مكانتهم بين شعوب العالم وديانته لان الكتاب المقدس كان الاداة الفكرية الوحيدة الفعالة في اوربا في مطالع العصور الوسطى[١٣].

وفي هذه المرحلة عقد البطريرك سوفرونيوس (Sophronius) الصلة في كتاباته بين نصوص توراتية وبين ظهور الاسلام عادّاً هجمات العرب السراسنة عقاباً من الرب للمسيحيين على خطاياهم ونقضهم للمواثيق[١٤].

ولعلّ مؤلفات يوحنا الدمشقي المتوفى في سنة ٧٥٠م تعدّ أبكر الدراسات المسيحية الشرقية عن الإسلام، ولا سيما في مؤلفه الجدلي «مناظرة بين ساراتي ومسيحي» والذي قدم حججاً ضد الطبيعة الإلهية للرسالة المحمدية كالقول إنه لم يبشر بها الأنبياء السابقون وأنّ محمداً لم يقم بأيّ معجزة شهيرة أو أعجوبة تثبت حقيقة نبوته وأنّه من غير الممكن أن يغدو نبياً باعتبار أنّ سلسلة الرسالات النبوية ختمت بيوحنا المعمدان[١٥].

لقد انتشرت في المسيحية الشرق أوسطية قصة خرافية مؤداها أن محمدا كان في البداية تلميذا للراهب النسطوري سرجيوس او «بَحِيرى الراهب في المصادر الاسلامية» زاعمين أنه تلقى منه بعض المعلومات الأساسية عن التوراة والإنجيل وبعد ذلك أعلن نفسه نبيا وكوَّن عقيدة خاصة به، والواقع أن التصورات المتكونة عن الإسلام كبدعة مسيحية مرتدة ومنشقة وعن محمد كنبي مزيف انتقلت من مسيحي سوريا إلى البيزنطيين ومنهم إلى الأوروبيين[١٦]، او أن الإسلام من اختراع محمد والذي بدوره كان يوحى إليه من الشيطان، ومن جملة الاباطيل التي افرزها هذا المخيال الجامح إظهار الرسول ﷺ كانه «المسيح الدجال»

وجرى التأكيد على أنه قد مات في عام ٦٦٦ وليس في عام ٦٣٢م وهذا العدد يطابق عدد الوحوش في التوراة او العهد القديم [١٧] بل ذهبت هذه الذهنية الى تصويره وكأنه كان كاردينالا منشقّاً عن الكنيسة هرب إلى شبه الجزيرة أسس هنالك كنيسته الخاصة به المستوحاة من التوراة والانجيل، ومن ثمّ جعل من يوم الجمعة يوم عبادة اسوة بيوم السبت لدى اليهود ويوم الأحد عند المسيحيين[١٨]، لقد كان للصيغ السورية وابرزها كتابات يوحنا الدمشقي أثر فاعل في بلورة الموقف السلبي الصريح إزاء الإسلام وصيرورة الإدراك الأوروبي في القرون الوسطى[١٩].

الشخصية المحمدية وملامح التبلور المشوه في المخيال البريطاني:

تزامن ظهور الاسلام في شبه الجزيرة العربية مع وصول المسيحية الى بريطانيا في مطلع القرن السابع الميلادي، حين اعلن محمد٩ نبوته في سنة ٦١٠ م في الوقت الذي بلغت فيه بعثة القديس اوغستين الى مدينة كينت kent البريطانية سنة ٥٩٧م[٢٠]، وهذا يحملنا على الاعتقاد بأنّ شخصية الرسول كانت مألوفة في بريطانيا منذ بزوغها على مسرح الاحداث العالمية، لقد شهد القرنان السابع والثامن الميلاديين توحيدا لمناطق شمال افريقيا وحوض البحر المتوسط تحت سلطة المسلمين ولم تكن تلك السيادة عسكرية بقدر ماكنت تمثل للعالم المسيحي خسارة لأهمّ مناطق الايمان المسيحي وهو أمر أدّى إلى أن باتت إحدى فواعل اندلاع الحروب الصليبية في العصور الوسطى [٢١].

لكن على الرغم من ان المسلمين كانوا يهدّدون نصف أوربا ويجتاحون أقاليم كثيرة فيها إلا أنّ المعاصرين

لهذه الاحداث كانوا أقلّ عداء لهم من الاوربيين اللاحقين، فالمؤلفون البريطانيون كانوا بعيدين عن مواقع الخطر الإسلامية[٢٢]، ويقف في طليعة هؤلاء المؤرخ الانكليزي «بيد المبجل Venerable Bede ٦٧٣ ـ ٧٣٥م» الذي يعد اول كاتب بريطاني ينبري للكتابة عن الاسلام[٢٣]. انصبّ اهتمام بيد المبجل في إيجاد الصلة بين ظهور الاسلام ونصوص الكتاب المقدس ولم تخرج من تحت عباءته سوى الخطابات الهجومية والعبارات القاسية بحق المسلمين، إذ نظر إليهم على أنّهم وثنيون برابرة وكسالى وقد ظلت طروحاته اساسا استندت عليه اوربا في كتاباتها حتى القرن الثاني عشر الميلادي [٢٤].

كان بيد المبجل معاصرا ليوحنا الدمشقي وقد اشار في كتابه «التاريخ الكنسي للشعب الانكليزي Historia ecclesiastica gentis Anglorum الى ان اصل السراسين يرجع الى هاجر المصرية زوجة ابراهيم الواردة في العهد القديم[٢٥].

أخذ الكتاب البريطانيون على عاتقهم بين عام ١١٠٠ وعام ١١٤٠ توجيه اهتمامهم صوب حياة محمد ﷺ من دون أيّ اعتبار للدقة فأطلقوا العنان لجهل الخيال المنتصر فكان محمد في عرفهم ساحرا هدم الكنيسة في أفريقيا وفي الشرق عن طريق السحر والخديعة وضمن نجاحه بأن أباح الاتصالات الجنسية. واستعملت أساطير من الفولكلور العالمي ومن الأدب الكلاسيكي ومن القصص البيزنطية عن الإسلام فقد اتهم المسلمون بعبادة الأوثان وهم الذين اتهموا المسيحي بتعدد الآلهة والشرك. محمد هو صنمهم الرئيسي وكان معظم الشعراء الجوالة يعتبرونه كبير آلهة السراسنة[٢٦]، لكن بدرو دي ألفونسو Pedro de Alfonso طبيب الملك هنري الأول ملك إنجلترا يعد

أول من صنف في بريطانيا كتابا يحتوي على معلومات لها بعض الموضوعية عن سيرة محمد ﷺ والإسلام في عام ١١٠٦م [٢٧].

ويشير ساوثرن بقوله: «ان الحملات الصليبية لم تجلب للغرب معرفة عن الاسلام بل أحدث العكس، إذ أنّ الأثر الاول للصدامات العسكرية تجلى في تردد اسم النبي ودينه الاسلام على الالسن منذ السنوات الأولى للغزو وقد بحثت في المصادر الغربية عن اسم النبي قبل عام ١١٠٠م فلم اعثر عليه غير مرة واحدة خارج اسبانيا وايطاليا الجنوبية اما فيما بعد العام ١١٢٠م فقد كان كل غربي تقريبا يعرف من هو محمد، لكن لم تكن صحيحة كانت نتاج مخيلة مغرقة في التوهم وتسويغ الذات»[٢٨].

لقد برزت صورة الإسلام ليس كما قيل نتيجة الحروب الصليبية بقدر ما برزت نتيجة الوحدة الأيديولوجية التي تكونت ببطء في العالم المسيحي وقد أدت هذه إلى رؤية أوضح لمعالم العدو كما أدت إلى تضافر الجهود نحو الحروب الصليبية[٢٩].

لقد تكونت صورة الاسلام ونبيه لدى الغربيين في النصف الاول من القرن الثاني عشر الميلادي بعد ان اسهم في تركيبها الفرسان العائدون من الشرق والكهنة والرهبان وقد زودوا المخيال الاوربي بطرائف عن الاسلام ونبيه وصلت هذه الصورة الخيالية الى المدارس والاديرة بعد وضعها في قالب مدرسي يشجع على قبولها، ادى ذلك الى خلق انطباع شعبي مروع في قدرته على البقاء ومقاومته لكل المعارف الصحيحة ونصف الصحيحة التي توالت فيما بعد عن سيرة الرسول ﷺ [٣٠] واللافت في هذا الموضوع حالة التزامن بين ظهور الاقاصيص الخرافية عن حياة النبي محمد ﷺ في العقود الزمنية نفسها التي ازدهر فيه المخيال الاوربي الشطاح الذي انتج

القصة الشعبية الخيالية والتاريخ الاسطوري لبريطانيا بين(١١٠٠-١١٤٠م)، وجاء الشعر الشعبي ليردد الصورة الخيالية المتكونة عن الاسلام[٣١].

إنّ صورة الإسلام المتكونة في العصور الوسطى ـ وهي مزيج متناقض لمعارف موضوعية مع تشويهات خطيرة ـ ضمّت في الوقت ذاته تصورات في منتهى الخيالية والتوهّم هيمنت بشكل ثابت لمدة تاريخية طويلة على عقل الإنسان الأوروبي ومنطقه ومداركه إزاء الإسلام ولهذا يمكن القول إن التصورات الغربية المعاصرة حول دين المسلمين لم تتكون وترتسم في صفحة بيضاء خالية وإنما انعكست في مرآة قديمة مشوهة إذ إن سكان أوروبا المعاصرة ورثوا عن أسلافهم من القرون الوسطى مجموعة عريضة وراسخة من الأفكار حول الإسلام التي كانت تتغير تدريجيا مظاهرها الخارجية فقط تبعا لتغير الظروف في أوروبا ذاتها، وتبعاً لطبيعة علاقاتها ومواقفها المستجدة نسبياً مع البلدان الإسلامية وثقافاتها الحديثة[٣٢].

ويبدو أنّ التصور النمطي المشوّه عن الرسول لم يتشكّل بسبب ضعف معرفة الاوربيين فحسب، بل يشير الدارسون إلى انّ تصورات القرون الوسطى عن الإسلام ترتد إلى ثلاثة عناصر بنيوية أسهمت في تشكيل هذه القوالب النمطية دون أن تتعارض فيما بينها بل إنها تعايشت وتداخلت من التأثر والتأثير وهي المكونات الميثولوجية واللاهوتية والعقلانية؛ لأنّ أدب أوروبا في القرون الوسطى حول الإسلام وضع في غالبيته العظمى من طرف رجال الدين المسيحيين الذين استندوا إلى مصادر شديدة التمايز والتباين كالحكايات الشعبية وقصص الأبطال والحجاج والقديسين والمؤلفات الجدلية اللاهوتية الدفاعية للمسيحيين

الشرقيين وشهادات بعض المسلمين وترجمات مفكريهم وعلمائهم. ولكن كانت المعلومة المقدمة تنتزع في معظم الحالات من سياقها الأصلي ومن ثمَّ تقدم إلى القارئ الأوروبي، وبهذا الشكل شوهت الوقائع بصورة متعمدة وفي إطار البحث الحماسي عن حل سريع لمشكلة الإسلام [٣٣].

ويبدو ان الكتّاب البريطانيون استقوا معلوماتهم في هذه المرحلة من مصدريْن هما الرِّوايات البيزنطيّة ؛ ومن التواصل الشّخصي مع المسلمين خلال الحملات الصّليبيّة [٣٤]، وتنمو دائرة التخيل في هذا المجال وصولاً إلى القول بأنّ الإسلام أخذ فكرة الثالوث المقدس المسيحية الأقاليم الثلاثة ولكن ضمن توجه وثني لا توحيدي ويزعم مروّجو هذه القصة أنّ مُحَمَّداً واحدٌ من ثلاثة معبودات: أبولّين Apollon، تيرغافان Trophonios، وماهومت Mahomet، الّتي كان يُعتقد على نطاق شعبي بأنّها معبودات المسلمين وهي كائنات جنية خفية أو ثلاثة أصنام كبرى، وهذا ما جاء في أغنية رولان Chanson de Rolland التي ترجمت الى الانكليزية عام ١١٧٠ [٣٥]، وتعبيراً عن ازدراءهم قاموا بتحريف اسم الرسول ٩ من محمد إلى أكثر من ثلاثين اشتقاقا محرفا وردت في قاموس Twentieth century dictionary وقاموس New English وتأتي جميعها بمعنى النبي المزيف بلغات أوربا المختلفة القروسطية أو بمعنى إله الظلام أو الإله المزيف أو الصنم أو الشيطان، أو للدلالة على الوثنية أو للدلالة على الاتراك في العصور الوسطى [٣٦].

كما شاع في العصور الوسطى ايضا كلمة باهومت Baphomet الذي يرمز لإله خيالي كان فرسان المعبد المقدس يبجلونه ويقيمون لاجله طقوس العبادة، هذه الكلمة مأخوذة من لفظ محمد المشوهة [٣٧].

إنّ تلك الأساطير المختلقة تمثل سخرية مأساوية؛ لأنّ محمداً ﷺ الذي حارب أكثر من أي شخص عبادة الأوثان والذي حطم جميع أصنام الكعبة بات في نظر المسيحين صنماً!، بل الأنكى من ذلك أنّ بعض الاعمال الادبية ذهبت الى اعتبار محمد إلهاً للعرب وباتت كلمة Mammet المأخوذة بدورها من Mahomet لتدلّل على معنى الصنم في تصورات المخيال القروسطي من ثم تطورت دلالتها إلى معنى لعبة او العرائس[٣٨].

وبهذا المعنى استخدمها الكاتب البريطاني وليم شكسبير في مسرحيته روميو جوليت حيث يقول:

And then to have a Wretched puling fool,

A whining MAMMET, in her fortunes tender,

To answer I ′ ll not wed, I cannot love.«

ومعناها التقريبي: وما بالك إذا كانت لديك حمقاء تعسة كالطفلة مثل دمية باكية وهي في ظروف سعيدة وتجيبك: لن أتزوج أنا لا أستطيع أن أحب[٣٩].

الارهاصات المبكرة لتشكل الهوية الاستشراقية البريطانية:

في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي ظهرت ملامح مرحلة جديدة حملت بين طياتها نبرة من التعقل في طبيعة المواقف من الاسلام وشخصية نبيه فقد ظهرت في بدايته تباشير نظرة علمية شاملة كان من نتائجها انبثاق محاولات جديدة لرؤية الاسلام بدون احكام مسبقة، وقد حدث ذلك في دير كلوني cluny في تموز ١١٤٣م[٤٠]، عندما شرع بطرس المبجل Petrus Vernailes (١٠٥٩ – ١١٥٦م) رئيس دير كلوني برعاية اول ترجمة للقران الكريم من العربية الى اللاتينية على يد الانكليزي روبرت كيتون Robert

ketton ولعلها تمثل أول ترجمة كاملة للقران الكريم[٤١].

ويمكن اعتبار بطرس المبجل مؤسساً للدراسات الإسلامية لدى مسيحيي القرون الوسطى، انطلق بطرس المبجل من مسلمة حتمية الصراع مع الإسلام ولكن ليس بالسيف وانما بالكلمة والإقناع والحجة، فهو يرى المسلمين كهراطقة بالإمكان إعادتهم إلى فلك الكنيسة وذلك إذا تمكن اللاهوتيون والمبشرون المسيحيون من أن يظهروا لهم بشكل مقنع أين تكمن انحرافاتهم وضلالاتهم [٤٢]، وقامت مجموعة كلوني ايضا بترجمة بعض الأحاديث المنسوبة إلى الرسول ﷺ وقامت بترجمة رسالتين جدليتين بعنوان: »رسالة المسلم عبدالله بن إسماعيل الهاشمي وجواب المسيحي عبدالمسيح بن إسحق الكندي «، بيد ان ظهورها شكل ايضا نهاية لحقبة التعقل هذه فالمعاصرون لبطرس المبجل لم يروا في الاسلام موضوعا حقيقيا للدراسة المتأنية وعلى أساس تلك الترجمات صنف بطرس المبجل ما أسماه بدحض العقيدة الإسلامية:

Liber Contra sect am sieve heroism Saracen rum

إنّ المادة التي تضمنتها المجموعة لم تستخدم أساساً لمزيد من الدراسة المعمقة عن الاسلام اذ لم يكن احد يهتم بمثل هذه الدراسة فلم يظهر لها فائدة في الصراعات الجارية لاسيما وان الجدل الديني كان يستهدف مسلمين خرافيين كانوا يبادون بسهولة الورق، ويبدو انّ الهدف انما كان لتزويد المسيحين بحجج سليمة لتثبيت ايمانهم ثم ان الحالة العقلية للغرب اللاتيني لم تكن مشجعة على الاهتمام بمذاهب دينية بحد ذاتها كتلك التي كانت موجودة في الشرق[٤٣] رغم ذلك فان هذه المجموعة صارت بالنسبة للأوروبيين المصدر الرئيس للمعلومات عن الدين الإسلامي على

مدى خمسمائة عام تقريبا[٤٤].

وجاء ظهور المغول الى المسرح التاريخي الاوسع ليكون الفاعل الاول لتغير اوربا من نظرتها المتحاملة إزاء الاسلام في العصور الوسطى، فالمغول لم يكن لعقائدهم وزن فكري كما ادرك الاوربيون بوضوح كثرة المشتركات بين المسيحية والاسلام في المجالين العقدي والاخلاقي وان غرابة وثنيات المغول في القرن الثالث عشر وضعت القواسم المشتركة بين المسيحية والاسلام ورغم ان هذه المعرفة المفاجئة سرعان ما ضاعت بين الحقيقة ومبالغات الخيال فإنها كانت حاسمة في تغيير نظرة أوربا الى الخارج، وفي منتصف القرن الثالث عشر شعر كثيرون انّ الحملات الصليبية لا تملك حظا في النجاح وانه لابد من وسيلة جديدة وقد ادرك اعداء الاسلام ان الصراع العسكري معه لا يكفي لإسقاطه وانه لابد من الاشتغال اعمق لفهم مضامينه وضرب ارادة الخصم عن طريق تشكيكه بصحة عقيدته[٤٥].

وقد لمع في هذه المرحلة اسم الفيلسوف البريطاني روجر بيكون Roger Bacon (١٢١٤ ـ ١٢٩٤) الذي استطاع وللمرّة الأُولى أن يضع المسيحية في موقعها الحقيقي جغرافيا وبشريا وهو مالم يكن ممكننا بقوله: «هنالك مسيحيون قليلون في العالم اليوم، اما سائر الارض المعمورة فيغص بالكفار الذين لا يجدون احدا يهديهم الى طريق الحق ويرى ان المسيحية لن تنتشر وتنتصر بغير التبشير السلمي بعد الحروب الصليبية الفاشلة، غير ان المسيحية عاجزة في نظره عن القيام بهذه المهمة لأسباب ثلاثة: لا أحد يعرف لغات الشعوب التي يراد التبشير بينها، ولا احد يعرف ماهية عقائد الكفار الذين يراد تبشيرهم، ولا أحد يملك حججا مؤسسة على المعرفة لدعوة غير

المسيحين الى الكاثوليكية»، لذلك تجده يورد ضد الاسلام حججا وتشكيكات يراها كفيلة بنقضه وهي في الحقيقة غير كافية لاستمالة المسلمين نحو المسيحية لكنها كانت جديدة، لقد كانت نظرة الغرب الى الاسلام قبل بيكون تقوم على انه دين ذو دور سلبي في التاريخ فهو قد حال دون اعتناق الناس للمسيحية وهو امارة ظهور المسيح الدجال في سياق نهاية العالم وقيام القيامة، أمّا بيكون فإنّه رأى خلاف ذلك وذهب الى انّ الحركة الاسلامية ليس لها أيّ دور تخريبي في العالم وليست امارة للدجال أو القيامة وله وظيفة يقوم بها قبل نهاية العالم قد تجاوز الكتاب المقدس في مجال فهم الاسلام الذي رأى فيه ديناً ذا صلة بالفلسفة، وكانت مصادره عن الإسلام من ترجمات الفلاسفة المسلمين وتقارير الرحالة متجاوزا الافكار المغلوطة عند اللاهوتيين منذ القرن التاسع الميلادي(٤٦).

وفي القرن الرابع عشر سرعان ما تبدلت المواقف من الاسلام ضمن سخرية العملية التاريخية فاستطاعت أن توقف حركات فكرية كبرى عن التأثير في المجرى الحضاري في اللحظة التي تبدا فيها الحصول على الشرعية المعقولة والدعم في ضمن المجتمع، فمدارس اللغة الحية التي دعا لإنشائها بيكون وسواه من عام ١٢٥٠م بدأت تدخل في ضمن البرنامج الرسمي للكنيسة الغربية منذ مجمع فينا عام ١٣١٢م الذي قرر تأسيسها في اكسفورد وباريس وسلامنكا، لتعلم العربية والعبرية والاغريقية ولم تتوافر العناصر البشرية والمادية، ومات كل شيء دون أن يلحظ أحد حقيقة ما يجري، لقد كانت السنوات التي اعقبت مجمع فينا حقبة حبلى بالخيبة في تاريخ اوربا وسط هذا

الاضطراب المتفاقم لم تعد هناك قوة ثقافية فاعلة مهتمة بتحديد الموقف من الاسلام، اما عن الانفتاح المعجب الذي لقيته الفلسفة الاسلامية ابان القرن الثاني عشر حتى منتصف القرن الثالث عشر فقد حل محله عداء اصم بنحو تدريجي، ويبدو ان اوربا لم تعد آمنة على مصيرها مما شجع على اعادة نصب أشرعة الخيال من جديد، ويظهر ذلك جلياً في تراجم الرسول التي انبعثت فيها الحياة من جديد [٤٧].

لكن ربّما يكون الكاتب البريطاني جون ويكلف John Wycliffe ١٣٢٠-١٣٨٤ الاوضح في بيان موضوع الربح والخسارة التي جلبها القرن الرابع عشر وكان القسم الاكبر من معلوماته عن الاسلام مستمدة من دائرة معارف vinzenz، ودائرة معارف von beaunais، ودائرة معارف Ranulf Higden والذي رسم صورة شاملة للإسلام الصاعد في العالم والساعي للسيطرة على الدنيا والممتلئ بشهوة التملك والسلطة بخلاف المسيحية التي هي عقيدة الالم والفقر، من ثم حاول ان يدلل على وجهة نظره في طريقة اصلاح الكنيسة لتحقيق الانتصار على الاسلام، فشريعة النبي من وجهة نظره تميزت بالاستيلاء على اشياء من نصوص العهدين القديم والجديد تدعم توجها دنيويا ثم مهاجمة بقية الانجيل المخالفة لمقاصدها، ثم ان النبي اضاف لتلك المستلات مبتدعات من عنده واستطاع ان يضع كل خصومه جانبا عندما حرم مناقشة اي من آرائه، لكن لم يكن ذلك ما زعمته الكنيسة عندما حرمت مناقشة عصمة البابا وسلطته المطلقة واشار الى ان اخطاء الاسلام لا يمكن ان تصحح الا بالتبشير الناجح المقترن بإصلاح الكنيسة[٤٨].

أظهر تطور الاحداث في القرن الخامس عشر ان على اوربا المسيحية القيام بعمل ما لمواجهة الاسلام

فعندما كتب «ويكلف Wycliffe» أعماله كان ما يزال ممكناً النظر الى الاسلام باعتباره خطرا اخلاقيا فقط وليس عامل تهديد مادي للوجود الغربي؛ ولهذا استطاع ان يزعم عدم وجود فرق بين رجال الكنيسة والمسلمين اذ لم يكن قد مضى على وفاة ويكلف خمس سنوات عندما انهار الصربيون امام الزحف العثماني[٤٩].

لقد ترك العثمانيون أثراً كبيراً في توسيع هوة البون التي تفصل بين الاسلام والمسيحية لاسيما بعد الهزائم التي أوقعوها بالأوربيين مما جعل أوربا تعمق من كراهيتها لتاريخ الاسلام معتبرة ان محمداً كان معتاداً على غزو الآمنين وسبي النساء[٥٠]، لقد شهد القرن السادس عشر ظهور مصنفات تُعنى بتاريخ الاسلام من خلال قراءة لتاريخ الاتراك ففي العام ١٥٧٥م صدر في لندن كتاب التاريخ البارز للسراسنة A Notable History of the Saracens لتوماس نيوتن Thomas Newton، ومن المصنفات الاخرى يندرج عمل الكاتب الانكليزي جون فوكس John Foxe (١٥١٥-١٥٨٧) الذي افرد ١٠٠ صفحة من الفصل الرابع من كتابه تاريخ الاتراك History of the Turks وجه خلالها نقدا عنيفا للإسلام والنبوة[٥١].

وفي منتصف القرن السادس عشر بدأت تشيع لهجة التخوين والاتهام المتبادل بين الأطراف المسيحية المتخاصمة والمتنافسة ففي اواخر القرن السادس عشر الميلادي صنف الاديب الانكليزي وليم رينولد William Rainolds ديوانا شعريا Calvino-Turcismus نظر فيه الى ان كلا من الكالفينية والاسلام يجتمعان على نية تحطيم المسيحية فكلا هما ينكر الوهية المسيح وان انجيل كالفن ليس افضل من القران لكنه

أكثر بغضاً[٥٢]، انّ هذه النظرة تعدّ تطوراً في الخطاب الديني إزاء الاسلام، فقد اضحى الاسلام عقيدة توازي عقيدة مسيحية منشقة بعد ان كان في الماضي عبادة شيطانية او وثنية، لاسيما وان مارتن لوثر معاصر رينولد Rainolds، قد وضع المسلمين والبابا في سلة واحدة معتبرا ان الاتراك هم الشيطان الاسود بالنسبة للشرق اما البابا المنافق فهو شيطان الغرب، وعلى الرغم من عبارته القروسطية السمجة (المحتال) التي وردت بحق الرسول ﷺ الا انه اعترف بصلاح منظومة المسلمين القيمية المتمثلة باعتزالهم لشرب الخمور وحياة التكلف واحترامهم لامبراطورهم[٥٣].

الخطاب التخصصي و عصر الصراعات السياسية والأيديولوجية:

يمثل بداية القرن ١٧ الميلادي فجر الكتابة البريطانية الحديثة وذلك من خلال تبني العالم المسيحي للروح العلمانية في قراءة تاريخ العالم والتي جعلت من الانسان محوراً لأحداث العالم بدلا عن القوة الالهية حينها تصبح البراهين التاريخية بوتقة تتشكل من انصهار الفواعل مع التجارب وسرعان ما بات الاهتمام واسعا بالمصادر والدراسات اللغوية[٥٤]، لقد رسم الإسلام على هيئة نموذج قبيح يتعارض ويتناقض كلية مع النموذج المثالي للمسيحية بوصفها ديانة الحقيقة التي تتميز بالأخلاق الصارمة وروح السلام وبأنها عقيدة تنتشر بالإقناع وليس بقوة السلاح، وفي الوقت ذاته وضمن هذا المنحى أيضا نسبت إلى الإسلام بعض الرموز المسيحية التقليدية، ولكن بدلالات سلبية جديدة مثلاً: صورة الحمامة رمزٌ لروح القدس في المسيحية[٥٥]، وقد أشار واتر رالي Walter Raleigh في كتابه تاريخ العالم The History of the World عام ١٦١٨م الى حكاية

اسطورية شاعت في بريطانيا مفادها ان الرسول ﷺ درب حمامة لتنقر حبوب القمح من أُذنه بغية إقناع العرب أن تلك الحمامة هي رسول الروح القدس الذي كان يبلغه الوحي الإلهي[٥٦]، وقد انتشرت هذه الحكاية لدرجة انها ظهرت في مسرحية هنري السادس Henry VI لوليم شكسبير:

CHARLES: Was Mahomet inspired with a dove

Thou with an eagle art inspired then

«كيف أن الملك كارل الثاني يتوجه إلى جان دارك صارخا: ألم تلهم الحمامة محمداً أما أنت فإن النسر ربما ألهمك.[٥٧]»

وفي مسرحية «محمد المنتحل» للكاتب جيمس ميلر في العام ١٧٥٣م اشار الى ان الرسول ﷺ لم يكن لديه وحي الهي ولم يبعث من السماء وانما دعوته هذه جاءت لرغبة جامحة وطموح شديد لطلب الرئاسة والمال تحت ستار الدين مصوراً الرسول ﷺ بأنّه زعيم لجماعة من قطاع الطرق من خلال محاورة بين شخصية محمد المزعومة في مسرحيته و شخصية فرعون[٥٨].

ويمكننا الاشارة الى مبلغ التهكم بشخصية الرسول في الادب الانكليزي في المثل الشائع اذا لم يأت الجبل الى محمد فإنّ محمداً يذهب الى الجبل،

If the mountain won't come " to Muhammad then Muhammad must go to the mountain ".

وهي عبارة مجازية ظهرت لأول مرة في كتابات فرانسيس بيكونFrancis Bacon التي نشرها في عام ١٥٩٧م، ومضمون هذه الفرية ان محمدا ﷺ لما دعي الناس الى الايمان به طلب من التلة ان تتقدم نحوه فلما لم تتحرك التلة نحوه تحرك هو

باتجاهها[٥٩].

لكن أشدّ ما قيل عن الرسول ﷺ ما جاء على لسان الشاعر الاسكتلندي وليام دينبار William Dunbar المولود١٤٦٠ في قصيدته السبع الموبقات التي اشتمل عليها وصف الأشخاص الراقصين في الجحيم الذين خرجوا عن سلطة الكنيسة، وقد اشار الى ان السراسنة الذين يعبدون الهاً للشر كان يدعى ماهون[٦٠]

اما عن وفاته ﷺ فقد كثر الحديث عن ذلك في الموروث البريطاني ولاسيما قصة ضريحه المعلق بين السقف والارض في المدينة بواسطة احجار مغناطيسية والتي باتت مثلا للتعبير ان اي امر مشكوك فيه يعبر عنه بتابوت محمد المعلق[٦١]

لكن هذا الامر لا يبدو جليا في كتابات الفترة الاولى من القرن السابع عشر، حينما طبع في لندن عام ١٦١٠ كتاب «علاقات الرحلة « A Relation of a Journey للشاعر والرحالة البريطاني السير جورج سيدني George Sandys (١٥٧٧-١٦٤٤) الذي اشتمل على اربعة اقسام قدم فيه وصفا عاما للدولة العثمانية ومصر والاراضي المقدسة والجزر الايطالية البعيدة وبسط فيه الحديث عن سيرة المصطفى ﷺ بنحو مجحف باعتباره شخصاً تظاهر بانه اختير بفضل العناية الالهية لتبليغ شريعة جديده لأبناء الجنس البشري وان يخضع العالم لطاعته بواسطة استخدام السلاح[٦٢]

لقد شهد القرن السابع عشر تزايدا في عدد المصنفات البريطانية المختصة بتاريخ الاتراك وحيثيات الاسلام[٦٣]، كما رددت الأفكار الشائعة القديمة مِن قِبل أكثر الكُتّابِ البريطانيين في هذه الحقبة، برؤية تتماشى مع التصورات الجديدة عن الاسلام كما ورد في كتاب «التاريخ العام للاتراك HistorieGenrral

Turkes»عـــام ١٦٠٣م لمؤلفـــه ريتشـــاردنولدز Knolles Richard (١٥٤٥-١٦١٠م) الذي يعد سـجلاً حـافلاً لأعـمال القسـوةِ والتعـذيبِ الوحشية العُثمانيةِ، وقد اقتفـى نولـدز اثـر الكُتّـابِ السـابقينِ، في نظـرتهم للإمبراطوريـةِ العُثمانيـةِ عـلى انهـا الارهـاب الاعظـم في العـالمِ، وان الإسـلام عمـل شـيطاني ومحمـد نبـي مزيّـف [٦٤]، كـما صـدر في عـام ١٦٥٦لفرانسيس اوسبورن Francis s ' Osborn «كتـاب العلاقـات السياسية لحكومـة الاتـراك Political Reflections on the Government of theTurks» وصدر كذلك في عـام ١٦٦٨م في لنـدن كتـاب «اوضـاع الامبراطورية العثمانية «Present State of the Ottoman Empire لـبـول ريكـوتس Paul Rycaut s ' (١٦٢٩-١٧٠٠)، وقد ظهر في هذين الكتـابين نقـد عنيـف للسـيرة النبويـة والاسلام [٦٥].

ويبـدو ان الخطـاب الاستـشراقي البريطاني في هـذه المرحلـة اخـذ بعـدا سياسيا نتيجة ظهور العثمانيين الاتراك بوصفه خطراً حقيقيـاً يحـدق بأوروبـا منذ القرن الخـامس عـشر، قبـل هـذه المرحلة نظر الأوروبيـون الى الاسـلام والنبوة من منظـار دينـي لاهـوتي ذي طابع خيـالي متعسـف، بيـد ان ظهـور المـارد العـثماني جسـد هـذه الصـورة الكلاسـيكية المشـوهة عـن الرسـول والاسلام عـلى ارض الواقـع وباتـت طموحـات السـلاطين الاتـراك وسياسـتهم التوسـعية هـي التمثـل الجديـد لصـورة محمـد ﷺ ودينـه في الخطـاب البريطـاني لـذلك قلـما نجـد مصنفا في القـرن الخـامس عـشر ومـا تلاه لا يحمل بين دفتيه اسلوب المزامنة المفاهيمية المتمثلة «صورة محمـد ﷺ = صورة الاتراك التوسعين» على الـرغم من الاختلافات العرقيـة و الزمكانيـة بـين محمـد ﷺ والعثمانيـين ومـن ثـمّ أمست صورة النبوة المشوهة في اوربـا

اداة للتعبئة العسكرية والمفاهيمية ضد العثمانيين، بعد ان كان يروج لها من اجل حماية اوربا من استشراء الاسلام، وفي ذلك يشير برنارد لويس:« ان مسيحية العصور الوسطى انكبت لدراسة الاسلام بغية التشكيك به وحماية المسيحيين من إلحاد المسلمين وحمل المسلمين على اعتناق المسيحية لذاك تجد ان اغلب الباحثين هم من طبقة الكهنة ورجال الدين خلقوا اطارا ادبيا يتعلق بالدين ونبيه وكتابه، وقد حملت الجدالات الدينية نبرة بذيئة ترمي الى تشويه صورة الاسلام وحماية المسيحية بدلاً عن التبليغ وعلى الرغم من ظهور بعض الابحاث المتناثرة الا انّ سمة التعصب والتحيز ظلت طاغية عليها، وقد لعب التجديد دوراً في التقليل من حدة النظرة التقليدية للإسلام حينما عكف الكتاب الكاثوليك الى تشبيه البروتستانتيين بمحمد»[٦٦].

ويبدو انّ الاسلام اضحى جزءا من حالة الجدل الديني المحتدم بين الكاثوليكية والبروتستانتية في القرن السابع عشر لاسيما حول مسألة أصل المسيحية وطبيعتها، إذ أصبح الاسلام دلالة تنكيل يستخدمها كل معسكر في تقريع غريمه وتشبيه بأنّه يحوز على نفس مبادئ الاسلام واتباع وثنيين على شاكلة الاتراك[٦٧].

لكن سرعان ما ظهرت سمة جديدة في الكتابة عن الاسلام جلبتها بواكير عصر التنوير، فأصبحت الدراسات الأكاديمية مهتمة بمقارنة الأديان، لاسيما بعد ان لفت الفيلسوف البريطاني روبرت بويل Robert Boyle (١٦٩١-١٧٢٧) الى ضرورة النظر بجدية الى مقارنة محتويات كلا من اليهودية والاسلام مؤسسا بذلك روحاً نقدية جديدة[٦٨]، على اثرها تأسس في جامعة كامبردج كرسي اللغة العربية في عام ١٦٣٢من قبل تاجر اقمشة من لندن يدعى ثوماس ادم Thomas Adams

ومن ثم شرع وليم لويود William Laud (١٥٧٣-١٦٤٥) بتأسيس كراس العربية في جامعة اكسفورد، الذي تمكن من ان يحرر رسالة ملكية الى شركة الهند الشرقية المتواجدة في الشرق يحثهم فيها على ارسال المخطوطات العربية والفارسية، وبذلك تمكن من حيازة اكثر من ستة مائة مخطوطة وعدد من صناديق العملات الشرقية[٦٩].

لكن أقدم كتاب صنف بإنكليزية يحمل على غلافه اسم الرسول ﷺ ظهر في هذه المرحلة بريشة لوليم بيدويل William Bedwell (١٥٦٢-١٦٣٢م) والموسوم «الكشف عن محمد المنتحل والقران A Discovery of the Impostures of Mahomet and of the Koran.» الصادر في لندن في ١٦١٥م هذا المصنف عكس عنوان غلافه ما ينطوي عليه محتواه من التعصب والاجترار لنفس الافكار القديمة، وقد نظر بيدويل الى مقام الرسول٩على انّه شخص مغرّر به وان القران في تصوره كتاب للزندقة، اسس بيدويل اراءه بناءا على ترجمته للقران الكريم التي تعدّ أول ترجمة الى اللغة الانكليزية من اللغة اللاتينية[٧٠]، كما تمكن بيدويل من الاطلاع على بعض المخطوطات العربية والمعاجم اللغوية المترجمة الى اللاتينية[٧١].

وقد اقتفى تلميذه ادوارد بوكوك Edward Pococke (١٦٠٤-١٦٩٠) اثره وصب اهتماماته على دراسة اللغتين العبرية والعربية فهو الكاتب الوحيد في عصره الذي حاز على فرصة الاطلاع على المصادر الاسلامية الاصلية وقد اصدر في عام ١٦٥٠ كتابه «لمع من تاريخ العرب Specimen Historiae Arabum»[٧٢] وهو ترجمة لكتابات ابن العبري وكتابات أبو الفدا واضاف عليها

تعليقات باللغة اللاتينية [٧٣]، كما قام بوكوك ايضا بترجمة حياة محمد من العربية الى الانكليزية[٧٤]، ولم تخلُ هذه الترجمة من المغالطات القديمة والمتمثلة بدعوى ان الاسلام دين زائف[٧٥].

ويشير ارثر جفري الى ان كتاب عصر النهضة اعتمدوا في كتاباتهم عن السيرة على المصادر العربية الاصلية التي باتت متاحة في الترجمات اللاتينية وأغلب هذه الأعمال كانت معادية بشكل مرير وذات احكام تعسفية مسبقة الحُكْمِ[٧٦].

وجدير بالإشارة ان الخطاب الانجليزي حمل بين دفتيه نبرة عنصرية عند الحديث عن قضايا الاسلام والمسلمين فكان النعت المفضل لدى الكتاب البريطانيين عند حديثهم عن المسلمين في القرون الوسطى هو Moorsهذه الكلمة تحمل بين طياتها دلالات متعددة لكنها كانت تستعمل للدلالة على العرب البدو البرابرة او العرب الافارقة [٧٧] كما يرد لها دلالة في قاموسDictionary of Phrase and Fable بمعنى ابناء هاجر زوجة ابراهيم[٧٨] وهذا المعنى يوازي المدلول السابق لمصطلح «سراسنة Saracens»اوعبيد سارة، ويمكننا ان نلمس ذلك في كتابات الشاعر روبرت بارون Robert Baron)١٦٣٠-١٦٥٨) في الفصل الثالث من مسرحية ميرزا Mirza التي عرضت في لندن عام ١٦٥٥في معرض حديثه عن القران في الفصل الثالث بقوله:

"Al Coran is a history of Mahomet authentique among the Moores as the gospel among us Christians."

«ان القرآن هو التاريخ الموثق لمحمد بين اتباعه كما يمثل الانجيل بالنسبة لنا نحن المسيحيون[٧٩]»، وقد اشار بارون ايضا الى ان الرسول ﷺ قد استعان في نظمه للقران بطبقة

العبيد المسيحين في مكة الذين احاطوا بمعرفة مشوشة عن العهد الجديد[٨٠].

وفي العام ١٦٣٧م/ ١٠٤٧هـ، صدر في لندن كتاب حياة محمد ووفاته The Life and Death of Mahomet لولتر رالي Walter Raleigh (١٥٥٢-١٦١٨)، والذي اعتقد بان محمدا ﷺ ذهب الى المدينة غازيا واخذها بعنوة السيف، ثم لم يلبث ان يناقض نفسه بعد صفحات قلائل من كتابه ليقول ان محمدا دخل المدينة سلما[٨١].

اما الكسندر روز(١٥٩٢-١٦٥٤م) Alexander Ross فقد فرغ من ترجمة نسخة القران الكريم من الفرنسية الى الانكليزية في العام ١٦٤٩ هذه الترجمة التي عمد روز من خلالها الى تشويه العبارات وتحريفها بنحو فظ وبنوايا عدائية [٨٢]، كما تمكن روز ايضا من تصنيف كتاب «بانسيبيا او عرض لتاريخ اديان العالم Pansebeia or View of all the Religions in the World » في العام ١٦٥٢ والذي افرد القسم السادس منه للحديث عن السيرة النبوية وتاريخ المسلمين من العرب والفرس والاتراك، وقد اشتمل كتابه على جانب من الموضوعية مقارنة بمعاصريه في عرضه لشخصية الرسول ﷺ وقد انكر الاعتقاد السائد بان محمدا هو المسيح الدجال مشيرا الى انه لم يكن يوما عدو المسيح الذي ورد في سفر الرؤيا [٨٣] خلافا لما ذهب له بيتر هيلين Peter Heylyn (١٥٩٩-١٦٦٢) في كتاب الكوزموغرافيا Cosmographie الذي صدر في عام ١٦٥٢ والذي اعتقد بأن محمدا ﷺ تمكن من بناء امبراطورية بفعل ما استحوذ عليه من مبادئ شيطانية[٨٤].

وفي عام ١٦٧١ انبلج الى حيز الدراسات الاستشراقية اول فجر لعمل موضوعي منصف من سيرة الرسول في التاريخ البريطاني حمل

عنوان «الاعتبار في نهوض وتنامي المحمدية والدفاع عن محمد ودينه من مطاعن المسيحيين»:

An Account of the Rise and Progress of Mahometanism, and a Vindication of Him and His Religion from the Calumnies of Christians.

للفيزيائي والكاتب البريطاني هنري ستوب Henry Stubbe (١٦٣٢–١٦٧٦م) والغريب في الامر ان هذا الكتاب لم يرَ النور الا في عام ١٩١١م، وقد بسط ستوب من خلاله الى عمل مماثلة بين الاسلام والمسيحية مقرا بحقيقة دين الاسلام منكرا جميع الاتهامات القديمة معتبرا محمداً ﷺ اعظم مشرع عرفته البشرية [٨٥] لقد مثل ستوب جزءا من تقليد فكري متنامٍ آنذاك قائم على نقد التناقضات الفكرية التي تحملها مسألة التثليث المسيحية، هذا التقليد رجع فيه اصحابه للتفتيش عن جذور التوحيد الاصلية في تاريخ الشرق الاوسط [٨٦].

ولم تلبث حتى ظهر في العام ١٦٧٠ كتاب لم يخل من التهكمات القديمة جاء عنوانه «عقوق الوثنية والمحمدية of the Impiety and Imposture of Paganism and Mahometanism للراهب البريطاني اسحاق بارو Isaac Barrow – ١٦٣٠ ١٦٧٧» [٨٧].

انّ السمة الابرز في الخطاب الاستشراقي البريطاني ابان هذه المرحلة من عصر التنوير التأكيد على الصورة التقليدية المشوهة عن الرسول ﷺ على الرغم من المحاولات النقدية الخجولة التي شرع بها بعض الباحثين والتي لم تأت اكلها لان العقلية البريطانية لم تبلغ يومها حد الانسلاخ الفعلي عن الموروث الكلاسيكي المثيولوجي كما يبدو لنا، وهذا ما دلت عليه عنوانات المصنفات التي كانت

تحمل على اغلفتها عبارة (imposter المنتحل او الدجال) للدلالة على سيرة الرسول ﷺ التي اضحت في هذا العصر مادة للادب والفن والمسرح والدراما فضلا عن الخطاب المسيحي الكلاسيكي. وقد اتسمت كتابات هذه المرحلة بأنها قدمت للقارئ أحكاماً مسبقةً قبل أن تشرع بسرد تفاصيل السيرة النبوية بين ثنايا متونها لتحاكي ما استهل عليه عنوان المصنف في المقام الاول، وبذلك يخيل لنا ان المنهج العكسي كان الملمح الاول في تطور منهج كتابة السيرة النبوية في بريطانيا.

ويشير الموند Almond ان عبارة المنتحل Imposter ظلت التعبير العلمي الملازم لاسم محمد ﷺ لتميزه عن اسماء من لديهم التسمية نفسها حتى وقت قريب من العهد الفيكتوري، ومن امثلة ذلك ما ورد في دائرة المعارف الانكليزية English Encyclopedia لعام ١٨٠٢، ودائرة المعارف البريطانية Britannica للأعوام ١٨١٧ و١٨٣٢[٨٨]، لكن اعنف نقد تعرضت له سيرة الرسول ﷺ ظهر في عام ١٦٩٧ على يد الكاتب البريطاني همفري برديو Humphrey Prideaux (١٦٤٨-١٧٢٠) في كتاب كان عنوانه يحمل دلالة واضحة «طبيعة الانتحال الصادقة تظهر كاملة في حياة محمد The True Nature of Imposture Fully Displayed in the Life of Mahomet» وصف بريدو رسول الله ﷺ بعبارات قاسية متعصبة ومنها:«خلق محمد ديناً ظن بانه بات مستساغا لكنه لا يعدو ان يكون مزيجا مضطربا من اليهودية وهرطقة مسيحية كانت منتشرة في الشرق آنذاك وطقوس وثنية قديمة عند العرب من ثم شرع بإباحة كل اصناف الغرائز الشهوانية بشتى أشكالها بغية

اجتذاب اصناف البشر لاعتناق دينه...ولما كانت تعصف به نوبات المرض فتسقطه صريعا لكنه كان يدعي بانها غشية الملك جبريل عندما يقبل عليه بوحي من الرب»[٨٩].

عصر الانفتاح على التراث الاسلامي (المرحلة الاحترافية):

في مطلع القرن الثامن عشر برز اسم سيمون اوكلي Simon Ockley (١٦٧٩-١٧٢٠) قس مدينة كامبرج الذي درس العربية واصدر في العام ١٧٠٨كتابه «غزو السراسنة لسوريا وفارس ومصر The Conquest of Syria, Persia, and Aegypt by the Saracens»، وفي العام ١٧١٨ اصدر كتابه «تاريخ السراسنة« The History of the Saracens وقد اعتمد اوكلي في تصنيفهما على كتاب فتوح الشام للواقدي، وتعدّ مصنفات اوكلي اول محاولة شاملة للكتابة عن تاريخ العرب والمسلمين باللغة الانكليزية[٩٠] ويبدو ان صورة الرسول بدت مشوهة في كتاباته لانه سار في اثر برديو في تصويره لطبيعة الاسلام وسيرة الرسول ﷺ[٩١].

وتأتي مؤلفات جين كانيه Jean Gagnier١٦٧٠-١٧٤٠ البريطاني ذي الاصول الفرنسية واستاذ اللسانيات الشرقية في جامعة اكسفورد والذي شرع بتصنيف سيرة لمحمد في ثلاثة أجزاء بالاعتماد على أبي الفداء، علاوة عن ترجمته لكتاب أبي الفداء «المختصر في تاريخ البشر» عام ١٧٢٣ الى اللغة اللاتينية، وباتت سيرة النبي المكتوبة باللغة العربية متاحة لأول مرة في اوربا، كما شرع جانيه بتصنيف سيرة للرسول سنة ١٧٣٢م، اشار في مطلعها إلى انّه لم يرغب من تصنيف كتاب يستعرض فيه حقيقة حياة محمد بقدر تعلق الموضوع بإظهار البواعث التي أدّت إلى ايمان العرب به، وقد أصبح كتابه

عن حياة محمد مرجعاً اساساً في تاريخ السيرة في اوربا حتى ظهور كتاب فايل Weil «Mohammed der Prophet محمد النبي» في عام ١٨٤٣ ليعلن بداية مرحلة جديدة في دراسات السيرة [٩٢].

خصّص جانييه مقدمة كتابه بصفة رئيسة لتفنيد الآراء المتحاملة للكاتب الفرنسي هنري بونافلييه Henri de Boulainvilliers (١٦٥٨-١٧٢٢) الذي صنف في باريس عام ١٧٣١كتابه «تاريخ العرب مع حياة محمد Histoire des Arabes avec la Vie de Mahomet»، لقد تمتع جانيه في هذا العمل بكثير من المهارة والذوق لدرجة انّ كتابه عدّ من افضل ما كتب عن سيرة محمد وقد اغترف منه كثير من المؤرخين، لكن رغم ذلك لم يكن جانيه منصفا للرسول انصافا تاما فقد وصفه بانه اكثر الناس شرا، وقد علق بفانمولر على ذلك بقوله «من هذا يتبين لنا انّ الامر هنا ليس له الا تفسير واحد هو توجيه القارئ من بادئ الامر لقراءة الكتاب في ضوء هذه الاحكام وبهذا يؤثر جانيه على القارئ ويقيد حريته ويقلده بذلك نظارة سوداء تلون كل ما تقع عليه عينه بهذا اللون القاتم وهذا ليس من العلم والانصاف ولا يمت الى الامانة العلمية بسبب» [٩٣]

وفي عام ١٧٣٤ وبعد خمس وثمانين عاما من ترجمة روسRose ظهرت ترجمة جديدة للقران على يد البريطاني جورج سيل George Sale(١٦٩٧ - ١٧٣٦) اشتملت على حواشي وتعليقات مقتبسة من نسخة القران اللاتينية الجدلية المضادة للإسلام والتي صدرت في روما عام ١٦٩٨ للدوفيشيو ماراشي Lodovico Marracci (١٦١٢-١٧٠٠)، قدم سيل نبذة عن حياة محمد، لم يخرج فيها عن النظرة التقليدية السلبية إزاء النبوة لكنه اختلف عمن سبقه بانه اشاد

بالقيم الاخلاقية التي يحملها محمد وهذا يعد تطورا في نظرة البريطانيين الى شخصية محمد، حتى ان ادوارد جيبون ذهب الى عده نصف مسلم[٩٤] وفي ذلك نورد اقتباسا من اقوال سيل في حق الرسول ﷺ:

"Mahomet ...he was a man of at least tolerable morals and not such a monster of wickedness as he is usually represented..."[٩٥]

«محمد... رجل ذو أخلاق رفيعة وليس وحشاً أو شراً كما ينظر إليه في العادة».

لقد جلب القرن الثامن عشر مع تحولات في طبيعة الخطاب الاستشراقي إزاء السيرة النبوية حيث يشير برنارد لويس «لقد ظهرت في كتابات عصر التنوير شهادات ايجابية بحق محمد على انه الحكيم والمتسامح والمشرع والحاكم والمجدد...على الرغم من ادانتهم واتهاماتهم له بالتعصب والتلفيق»[٩٦] ويبدو ان ظهور نزعة التناقض في الموروث السلبي واعتماد وجهات نظر جديدة تتسم بالموضوعية في كتابات القرن الثامن عشر ادت الى تغير النظرة تجاه الاسلام لكن بنحو بطيء[٩٧].

شهد القرن الثامن عشر ولادة مفكرين نظروا الى الرسول والاسلام من زاوية مغايرة للموروث السائد، وهذا ما نلمسه عند الشاعر الانكليزي صمويل تايلور Samuel Taylor Coleridge (١٧٢٢-١٨٣٤) الفيلسوف الانكليزي ومؤسس الحركة الرومانسية الانكليزية، الذي قدم في عام ١٧٩٩ قصيدة عن الرسول ﷺ عنوانها «محمد Mahomet» وهي من الاعمال الادبية المنسية[٩٨] وتعدّ أروع ما كتب عن الرسول ﷺ في الادب الانكليزي وتقع في اربعة عشر بيتاً، دافع فيها عن الرسول واصفاً إياه بانّه النبي الواعظ والثائر البروتستانتي والمحارب المتحمس الذي سحق

طقوس الكفر عند وثنيي مكة وعند وثنيي المسيحية ناشرا بذلك تعاليم الانجيل الحقيقية للمسيح [٩٩].

لكن الكاتب المسرحي ولتر سافج لاندروز Walter Savage Landor (١٧٧٥-١٨٦٤م) ذهب الى ان محمدا ﷺ والقديس سيرجيس كلاهما يطلبان الشهرة فالقديس سيرجيس كان يطمع ان يظهر في القسطنطينية بينما اراد محمد ان يظهر في سوريا فمحمد ليس بنبي بل حرم الخمر على نفسه لما يصيبه من صرع واغماء فادعى ان ذلك وحي من السماء وانه حرام على المسلمين»[١٠٠]. لكن النزعة الجديدة لم تبلغ اوجها الا في طروحات المؤرخ الانجليزي ادوارد جيبون Edward Gibbon (١٧٣٧-١٧٩٤م) في مصنفه «تاريخ انحدار وسقوط الامبراطورية الرومانية» The History of the Decline and Fall of the Roman Empire بين عامي ١٧٧٦-١٧٨٨ الذي افرد في القسم الخمسين من المجلد التاسع لطبعة ١٧٨٩ للحديث عن تاريخ الجزيرة العربية وسيرة الرسول ﷺ، إذ استهلّ هذا القسم بعبارته الشهيرة « استطاع محمد باستخدام السيف في يد والقرآن باليد الأُخرى أن يقيم عرشه على انقاض المسيحية وانقاض روما»[١٠١] واشار في موضع آخر إلى «انّ عقيدة محمد خالية من الخرافات، والقرآن شهادة مجيدة على وحدانية الرب»[١٠٢] كما ذهب الى ان محمداً تفادى ان يقع فريسة لطموحه حتى بلوغه سن الاربعين، ويرى انّ طموحه السياسي جرفه لتبني منهجاً مغايراً في المدينة خلافاً لما كان عليه في مكة وسرعان ما ذهبت عنه ملامح شخصيته المكية المتسامحة بفعل هذا الطموح[١٠٣]، ويمكن ان نحكم على مبلغ التناقض والحيرة التي بلغها كتاب هذه العصر من خلال النص التالي:

«ان الخلاصة من حياة محمد توجب علينا ان نقيم توازناً بين فضائله وأخطائه وان نقرّر عنواناً لهذا الرجل الاستثنائي هل كان متحمساً ام منتحلاً؟...كيف يمكن لرجل حكيم أن يخدع نفسه، وهل يمكن لرجل صالح أن يخدع الآخرين؟ هل يهجع الضمير في خليط مضطرب من خداع الذات والاحتيال الاختياري ؟هذا الرجل الذي يشهد له صهره علي: بانه جمع كل الفضائل فهو الشاعر والمحارب والقديس، الذي لازالت حكمته تَشْهقُ الأقوال الأخلاقيةِ والدينيةِ؛ الذي وقف بفصاحته وشجاعته بمنازلات السيف واللسان منذ ان صدح بدعوته حتى اخر طقس في جنازته الذي لم يُخذل من صاحبه الكريم واخيه ونائبه الذي اخلص له وكان له بمنزله هارون من موسى»[١٠٤].

ان الاشارة الى شخصية الامام علي (ع) في هذه المرحلة يدلل بنحو لا يرقى إليه الشك على تطور جديد في قراءة سيرة الرسول ﷺ ليشمل آفاقاً أوسع تستوعب شهادة الاعلام المقربين من الرسول ﷺ هذا التطور يبدو انه اضفى حالة من التوازن النسبي على الصورة الكلاسيكية المشوهة وهو يرتدّ الى تجليات النزعة العقلية التي برزت في هذه المرحلة، زد على ذلك فان اختيار جيبون لشهادة الامام علي (ع) تحديدا في صياغة خلاصته عن حياة محمد ﷺ يقطع بان الكتاب البريطانيين كانت لهم احكام وتصورات عن علاقات النبي بأصحابه ومبلغ منازلهم الفكرية وهذا يدلل على ظهور النزعة التحليلية ذات الطابع الشمولي في قراءة تفصيلات السيرة في هذه المرحلة النقدية المبكرة.

وفي أواخر القرن الثامن عشر والتي تعد مرحلة انتقال الى ما يعرف بالتاريخ الاستعماري او الكولنيالي فرضت شركة الهند الشرقية هيمنتها

على الهند واستحوذت على القوة من الحكام المسلمين، صاحب التوسع الاستعماري البريطاني إذ شهدت تبدلاً في المواقف حيال الشرق وفي هذه المدة ظهرت طائفة من رجالات الشركة من المنبهرين بالثقافة المحلية في الهند والمنجز الحضاري للشرق، هؤلاء كان لهم أثر بالغ في تغيير نبرة الخطاب التاريخي عن الشرق فباتت النبرة اقل حدة وتهديدا من السابق، لكن السمة البارزة التي كانت عليها كتابات هذه المرحلة هي الابقاء على حالة الابوية من قضايا الشرق بشكل يسهم في تعزيز السيادة البريطانية وتسويغ الحكم الاستعماري[١٠٥].

الخاتمة:

ان السمة الغالبة على الخطاب الاستشراقي البريطاني الكلاسيكي بشكله العام كان تحامليا معبأ بالموروثات المثيلوجية للكنيسة بنحو غير مبرر على الرغم من التحولات الإيديولوجية والمفاهيمية والمنهجية التي تمخضت عنها الانشقاقات البروتستانتية او التي افرزتها الحقبة الكولنيالية على الرغم من ظهور محاولات متواضعة لتقديم صورة موضوعية عن الشخصية المحمدية تصل الى حد الندرة؛ تمثل من وجهة نظرنا حالات فردية انسلخت من موروثاتها الفكرية لتمعن النظر في الشخصية المحمدية كظاهرة انسانية مستقلة في اطارها الزمكاني بمعزل عن الموروثات الدينية او الصراعات السياسية بين اوربا وتركيا العثمانية؛ اذ لم تجد صورة الرسول البراقة طريقها الى المخيال الشعبي البريطاني بفعل التشويه التي جعلت صورته توازي صورة الشيطان ليكون الاسلام عقابا بدلا عن كونه تحديثاً قيمياً قائماً على الوحدانية، كما نلحظ ان التطورات التي شهدتها العقلية البريطانية من المرحلة القروسطية ذات الصبغة المثيولجية الاعتباطية ومرورا الى المرحلة الكولنيالية العلمانية لم تؤدِّ

الى حدوث تغير موضوعي عن الشخصية المحمدية في الخطاب الاستشراقي بل لمسنا ان ارهاصات هذه التطورات قد تم توظيفها لتعزيز الخطاب التقليدي التحاملي من خلال تشذيبه من الموروثات المثيولجية المسيحية والتشديد على الابعاد التقويضية للمنظومة الاسلامية من خلال نبرة اقل حدة وخطاب متطور اشد وقعا.

كما ظهر لنا ان هذا الخطاب اتخذ شكلا بانوراميا شموليا كانت افرازاته واضحة على التدوين و الفلكلور والادب والفن والتأليف واقتناء المخطوطات والترجمة والقصيدة والمسرح، ونلمس انه ليس من شخصية في تاريخ بريطانيا حازت على مثل هذا القدر من الاهتمام والتأليف بقدر ما حازت عليه الشخصية المحمدية؛ ولعل كل ملمح من ملامح الفن والاحساس والرقي الإنساني سخرت بنحو منظم لتجعل من الاسلام عدوا مخيفا يتسور بريطانيا التي يفصلها عن الاسلام بحار بعيدة لكن ما يلوح في الافق ان الشخصية المحمدية المشوهة في الخطاب الاستشراقي البريطاني قد تم انتاجها لتغدو مستحثا من مستحثات التطور.

هوامش البحث

[1] Melrose, Robin, The Druids and King Arthur A New View. of Early Britain ,British library,UK,2011,p.53

[2] Quinn ,Frederick, the sum of all heresies the image of Islam in western thought oxford University press , 2008,p.38

[3] Ibid.

[4]Arthur, Jeffery The Quest of the Historical Muhammad The Muslim World, vol. xvi, Issue 4(October 1926) p330,,Thomson R. W. Historical, commentary by James Howard-Johnston Assistance The Armenian History,attributed to Sebeos,translated, with notes, Liverpool,University Press,Oxford,1998,pp .53-49

[5]Walter ,Emil Kaegi, Initial Byzantine Reactions to the Arab Conquest Cambridge University Press on behalf of the American Society of Church History, Church History, Vol. 38, No. 2(Jun. 1969), pp .145-142

[6] Ibid.

[7] Ibid.

[8] Ibid.

[9] Quinn , Op. cit., p.38

[10] Hourani,Albert,Islam in European Thought, Cambridge University,Uk 1989,p .225

[١١] سوذرن، ريتشارد صورة الاسلام في القرون الوسطى ترجمة رضوان السيد، دار المدار الاسلامي، بيروت، ٢٠٠٦، ٤٩ ـ ٥٣.

[١٢] السراسنة او السراقين Saracens او saraceni كما تترجم من اليونانية و "saracenes"، عبارة استعملها اللاتين على هذه الصورة "saracenus"، وذلك في معنى العرب وأطلقوها على قبائل عربية كانت تقيم في بادية الشام وفي طور سيناء، وقد توسع مدلولها بعد الميلاد، فأطلقت على العرب عامة قد أطلق بعض المؤرخين من أمثال "يوسبيوس" "أويسبيوس" "eusebius" و"هيرونيموس""Hieronymus هذه اللفظة على "الإسماعيليين" وبعضهم يرجعها الى الاغريق الذين اطلقوا على العرب عبيد سارة زوجة ابراهيم ٧ وما يؤكد هذا الراي اشارة بعض الباحثين الى ان الكلمة تتألف من مركب «سرا» و«قين» التي

تعني عبيد ـ سارة، يعلق ستروب Stubbeعلى هذه العبارة بقوله «لا يمكن ان يدعى العرب بالسراسنة نسبة الى سارة او عبيد سارة بل الصحيح ان يطلق عليهم الهاجريين نسبة الى هاجر او الإسماعيليين نسبة الى اسماعيل بن ابراهيم »للمزيد ينظر: علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، ط ٤،، د.م، ٢٠٠١م ١/٢٦-٢٩.

Stubbe,Henry, account of the rise and progress of Mahometanism ،London ،1911 ، p 106Mansour, Atallah,Narrow Gate Churches,The Christian Presence in the Holy Land Under Muslim,USA,2004, p.31

[١٣]سوذرن، الاسلام في القرون الوسطى.

[14] Walter. Op. cit., p .142

[١٥] شاخت، جوزيف، كليفوردبوزورث، تراث الإسلام، ترجمة وتعليق محمد زهيرالسمهوري واخرون، تحقيق، شاكر مصطفى، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١،١٩٧٨/٦١.

[١٦]جورافسكي، أليسكي، الإسلام والمسيحية، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٧، ٦٣.

[١٧] سوذرن، الاسلام في القرون الوسطى، ٦٢.

[18]Setton ,Kenneth M,Western Hostility to Islam and Prophecies of Turkish doom, American philosophical Society , Phiadilifia. 1992p.5

[١٩] جورافسكي، الإسلام والمسيحية، ٦٣.

[20]Beckett ,Katharine scarf, Anglo-Saxon perceptions of the Islamic world ,Cambridge University Press,UK,2003,p.

[21]Elzain Elgamri, Islam In The British Broadsheets The Impact of Orientalism on Representations of Islam in the British Press ,Ithaca Press,UK, 2008p3

[٢٢]سوذرن، الاسلام في القرون الوسطى، ٥٤.

[23]Quinn , Op. cit., p .38

[24]Beckett, Op. cit., p.18

[25]Shihab, Alwi Examining Islam in the West, Addressing Accusations and Correcting,indonisia.2011,p .63

[٢٦] شاخت، تراث الاسلام، ٣٤/١.

[٢٧] شاخت، تراث الاسلام، ٣٥/١.

[٢٨] سوذرن، الاسلام في القرون الوسطى ٦٥ – ٦٦.

[٢٩] المصدر نفسه ٣١/١.

[٣٠] سوذرن، الاسلام في القرون الوسطى ٦٥ – ٦٦.

[٣١] المصدر نفسه.

[٣٢] المصدر نفسه، ٥٩.

[٣٣] المصدر نفسه.

[34]Arthur , Op. cit.,.331

[٣٥] أغنية رولان (Chanson de Rolland) قصيدة غنائية فرنسية ظهرت في القرون الوسطى طورت وعدلت مرات كثيرة فكان شكلها أكثر اكتمالاً من تحرير أكسفورد حوالي ١١٧٠ م. موضوعاتها التاريخية تقوم على سرد الحكايات البطولية حول حروب كارل العظيم أو الكبير بكل هذه الملحمة الغنائية، جورافسكي، الإسلام والمسيحية، ٦٦.

" [36]Mahomet Mahoniery, Mahound, Macamethe, Machamete. Makomete, Makaniete, Machomete, Machomet, Machamyte, Macomite,Mahomette, Mahometite, Mahumet, Mahoved, Mumet Machometus, Mahumctus Mahometits, Maumet, Mahum, Mahun, Mahoune, Mahoun, Mahone, Mawhown, Machoun,

Mahowne, Macon; Mahount, Mahowrde. Machound, Mauhound, MahutiMahont, Baphomet Mahomite" Murray" James A. H,A New English Dictionary on Historical Principles: Founded Mainly on the Materials Collected by the Philological Society,Oxford,vol M,39-1928,37, Davidson Thomas chambers ' twentieth century dictionary of the English language pronouncing, London edinburgh, 1903p.545

[37]Brewer's Dictionary of Phrase And Fable,Harper & Brothers publisher, newyork, 1890p73

[٣٨]المصدر نفسه ٦٦.

[39]Shakespeare, William, and others, The plays of William Shakespeare, Romeo and Juliet, London 1813, Vol 20,p .184

[٤٠]سوذرن، الاسلام في القرون الوسطى ٨٠.

[٤١]جورافسكي، الإسلام والمسيحية، ٧٠

[٤٢]المصدر نفسه.

[٤٣]المصدر نفسه ٧٠-٧٣.

[٤٤]المصدر نفسه ٧٣.

[٤٥]سوذرن، الاسلام في القرون الوسطى ٨٧.

[٤٦]المصدر نفسه ٩٥-١٠٥.

[٤٧]المصدر نفسه ١٢٢.

[٤٨]المصدر نفسه ١٢٢.

[٤٩]المصدر نفسه ١٣٠.

[50]Quinn , Op. cit., p .45

[51]Ibid p.45

[52]Ibid,p .46

[53]Ibid p.45

[54]Netton,Ian Richard, orientalism revisited: Art, Land And Voyage, USA,2013,pp-5 .10

[55]David R. Blanks and Michael Frassetto,Western Views of Islam in Medieval and Early Modern Europe,Newyork,1999,p.66

[56]Raleigh, Walter,The history of the world, London,1614,first book p .178

[57]ShakespeareOp. cit., Henry VI, London 1813, Vol 13,p .27

[58]Dibdin, Thomas, the London theatre, collection of the most celebrated and dramatic pieces, vol.xvi,London .218-1816,176

[59]Martin H. Manser, the facts on file dictionary of proverbs, the facts on file,USA,2007,p.135

[60]David Laing ,The Poems of William Dunbar , Edinburgh ,Vol 2,p.254

[61]The British Controversialist, And Literary Magazine, publisher Houlston and Stonemen vol3,London 1860, p.206

[62]George ,Sandy ' s, relation of a journey begun An: Dom Fovre bookes. Containing a description of the Turkish Empire, of Ægypt, of the Holy Land, of the remote parts of Italy, and islands adjoining Printed for W. Arrett, London, 1610,pp.53-52

[63]Curtis, Michael Orientalism and Islam European Thinkers on Oriental Despotism in the Middle East and India, Cambridge university press Cambridge,2009,p.34

[64]Netton, Op. cit.,pp.7-5

[65]Op. cit.,p.34

[66]Lewis, Op. cit.,pp.86-85

[67]Curtis, Op. cit.,p.34

[68]Quinn , Op. cit., p .56

[69]Ibid, p .64

[70]Hamilton, Alastair ,William Bedwell the Arabist 1632-1563,advansment pure research, Leiden Netherland,1985,pp.39,67

[71]Quinn , Op. cit., p .65

[72]Lewis, Bernard, Islam and west , Oxford university press, Oxford, 1993p .90

[73]Edward Pococke, Specimen Historiae Arabum Oxford, 1806,pp ii-xiv.

[74]Quinn , Op. cit., p .65

[75]Netton, Op. cit.,pp.7-5

[76]Arthur , Op. cit.,.332

[77]Society for the Diffusion of Useful Knowledge The Penny Cyclopaedia,London.1833,vol 1p.328

[78]Brewer's Dictionary of Phrase And Fable,Harper & Brothers publisher,newyork, 1890p.430

[79]Birchwood,Matthew,Staging Islam in England Drama and Culture,Cambridg,2007,p.88

[80]Ibid.

[٨١] وزان، محمد عدنان، صورة الاسلام في الادب الانجليزي دراسة تاريخية نقدية مقارنة، دار اشبيلية للطباعة والنشر، ط١، الرياظ، ١٩٩٨، ١\٧٤٣.

[82]Quinn , Op. cit., p .66

[83]Ross, Alexander,Pansebeia, or, A view of all religions in the world...London ,1669,p .128-116

[84]Almond, C, Philip, Heretic and Hero: Muhammad and the Victorians, Netherland, 1989, p.9

[85]Curtis, Op. cit.,p.35

[86]Force, James E. & others Newton and Religion: Context, Nature, and Influence Kluwer academic publisher, Netherlands, 1999p. .156

[87]Quinn , Op. cit., p .68

[88]Almond, Op. cit, p.11

[89]Humphrey Prideaux, The True Nature of Imposture ,Oxford,1723.p13-10

[90]Quinn , Op. cit., p .69

[91]Ockley, Simone, History of the Saracens ,Cambridge, 1757,vol 2p,xxxv

[92]Lewis, Op. cit.,.90

[93]سيرة الرسول في تصورات الغربين فصول مختارة من كتابات المستشرق الالماني جوستاف بفانمولر ترجمها وقدم لها محمود حمدي زقزوقجامعة الازهر، مجلة مركز البحوث السنة والسيرة، العدد الثاني، 1987 12083،، 171.

[94]Quinn , Op. cit., p .67

[95]Sale, George The Koran, Commonly Called the Alcoran of Mohammed,London,1795, Vol1,p.54

[96]Lewis, Op. cit.,.90

[97]Quinn , Op. cit., p .58-57

[98]Garcia Humberto ,Islam and the English Enlightenment 1840-1670, Johns Hopkins University press,USA,2012,p.2

[99]Taylor, Samuel The Poetical Works of S.T. Coleridge, Vol 2,London 1836,p.68

[100] وزان، صورة الاسلام 743.

[101]Gibbon, Edward The history of the decline and fall of the Roman Empire, vol 9 London,1789,p.115

[102]Ibid,p.122

[103]Ibid,p .173-167

[104]Gibbon, Op. cit.,p .171

[105]Netton, Op. cit.,pp.6-5

المصادر والمراجع

-أولاً المصادر العربية والمعربة:

١-جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، ط ٤، د.م، ٢٠٠١م.

٢-جورافسكي، أليسكي، الإسلام والمسيحية، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٧

٣ -زقزوق، محمود حمدي سيرة الرسول في تصورات الغربين فصول مختارة من كتابات المستشرق الالماني جوستاف بفانمولر ترجمها وقدم لها جامعة الازهر، مجلة مركز البحوث السنة والسيرة، العدد الثاني، القاهرة، ١٩٨٧

٤-سوذرن، ريتشارد صورة الاسلام في القرون الوسطى ترجمة رضوان السيد، دار المدار الاسلامي، بيروت، ٢٠٠٦، ٤٩-٥٣

٥ -شاخت، جوزيف، كليفوردبوزورث، تراث الإسلام، ترجمة وتعليق محمد زهير السمهوري واخرون، تحقيق، شاكر مصطفى، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٧٨

٦ -وزان، محمد عدنان، صورة الاسلام في الادب الانجليزي دراسة تاريخية نقدية مقارنة، دار اشبيلية للطباعة والنشر، ط١، الرياظ، ١٩٩٨

-ثانيًا: المصادر الاجنبية:

Almond,C,Philip,Heretic and Hero: Muhammad and the Victorians,Netherland,.1989

Arthur, Jeffery The Quest of the Historical Muhammad The Muslim World, vol. xvi, Issue 4(October .(1926

Beckett ,Katharine scarf, Anglo-Saxon perceptions of the Islamic world ,Cambridge University Press,UK,2003

Birchwood,Matthew,Staging Islam in England Drama and Culture,Cambridg,.2007

Brewer's Dictionary of Phrase And Fable,Harper & Brothers publisher,newyork,1890

Brewer's Dictionary of Phrase And Fable,Harper & Brothers publisher,newyork,.1890

Curtis,Michael Orientalism and Islam European Thinkers on Oriental Despotism in the Middle East and India, Cambridge university press Cambridge,.2009

David Laing ,The Poems of William Dunbar , Vol 2,Edinburgh, .1893

David R. Blanks and Michael Frassetto,Western Views of Islam in Medieval and Early Modern Europe,Newyork,.1999

Davidson Thomas chambers ' twentieth century dictionary of the English language pronouncing, London edinburgh,.1903

Dibdin,Thomas,the London theatre, collection of the most celebrated and dramatic pieces,vol.xvi,London .1816

Edward Pococke, Specimen Historiae Arabum Oxford, .1806

Elzain Elgamri, Islam In The British Broadsheets The Impact of Orientalism on Representations of Islam in the British Press ,Ithaca Press,UK, 2008

Force, James E. & others Newton and Religion: Context, Nature, and Influence Kluwer academic publisher,Netherlands,.1999

GarciaHumberto ,Islam and the English Enlightenment 1840-1670, Johns Hopkins University press,USA,.2012

George ,Sandy ' s, relation of a journey begun An: Dom Fovre bookes. Containing a description of the Turkish Empire, of Ægypt, of the Holy Land, of the remote parts of Italy, and islands adjoining Printed for W. Arrett,London, .1610

Gibbon, Edward The history of the decline and fall of the Roman Empire, vol 9 London,.1789

Hamilton, Alastair ,William Bedwell the Arabist 1632-1563,advansment pure research, Leiden Netherland,.1985

Hourani,Albert,Islam in European Thought, Cambridge University,Uk .1989

Humphrey Prideaux, The True Nature of Imposture ,Oxford,.1723

James A. H,A New English Dictionary on Historical Principles: Founded Mainly on the Materials Collected by the Philological Society,Oxford,vol M,1928

Lewis, Bernard, Islam and west , Oxford university press, Oxford,.1993

Mansour,Atallah,Narrow Gate Churches,The Christian Presence in the Holy Land Under Muslim,USA,2004

Martin H. Manser,the facts on file dictionary of proverbs, the facts on file,USA,.2007

Melrose, Robin, The Druids and King Arthur A New View of Early Britain ,British library,UK,.2011

Netton,Ian Richard, orientalism revisited: Art, Land And Voyage,USA,.2013

Ockley,Simone, History of the Saracens, vol 2,Cambridge, .1757

Quinn ,Frederick, the sum of all heresies the image of Islam in western thought oxford University press , .2008

Raleigh, Walter,The history of the world, first book, London,.1614

Ross, Alexander,Pansebeia, or, A view of all religions in the world...London ,.1669

Sale,George The Koran,Commonly Called the Alcoran of Mohammed Vol1,London,,1795

Setton ,Kenneth M,Western Hostility to Islam and Prophecies of Turkish doom, American philosophical Society , Phiadilifia.1992

ShakespeareWilliam, and others, The plays of William Shakespeare., Henry VI, London 1813, Vol ,13

Shakespeare, William, and others, The plays of William Shakespeare, Romeo and Juliet, London 1813, Vol .20

Shihab,Alwi Examining Islam in the West, Addressing Accusations and Correcting,indonisia..2011

Society for the Diffusion of Useful Knowledge The Penny Cyclopaedia,London.1833,vol.1

Stubbe,Henry, account of the rise and progress of Mahometanism,London,1911

Taylor,Samuel The Poetical Works of S.T. Coleridge, Vol 2,London .1836

The British Controversialist, And Literary Magazine, publisher Houlston and Stonemen vol3,London .1860

Thomson R. W. Historical, commentary by James Howard-Johnston Assistance The Armenian History,attributed to Sebeos,translated, with notes, Liverpool,University

Press,Oxford,1998

Walter ,Emil Kaegi, Initial Byzantine Reactions to the Arab Conquest Cambridge University Press on behalf of the American Society of Church History, Church History, Vol. 38, No. 2(Jun. (1969

د. محمد بنعمر
المغرب/ جامعة القاضي عياض

أصالة المنهج في التراث العربي الإسلامي
النصّ القرآني مسدّداً

يدّعي بعض المفكّرين[1] أنّ المسألة المنهجيّة لم تنلْ حقّها من الحضور في التراث العربيّ الإسلاميّ، بحكم عناية الممارسة التراثيّة بالمضامين والمحتويات أكثر من اهتمامها وعنايتها بالآليّات المُنتجة لتلك المضامين، على الرغم من أنّ التراث العربيّ الإسلاميّ كان مشبعًا بهذه الآليّات على قدر كبير؛ وبخاصّة في ما يتعلّق بالآليّات اللغويّة والبرهانيّة والمنطقيّة...[2].

وانطلاقًا من هذا الادّعاء بغياب المنهج في الممارسة التراثيّة، باتت الحاجة ماسّة لإبراز مدى حضور المنهج في أغلب العلوم التي أنتجتها علوم التراث العربيّ الإسلاميّ في جميع امتداداته الزمانيّة والمكانيّة، من خلال تقصّي الأنساق المعرفيّة المركّبة لهذه العلوم وفحصها، وذلك بهدف دحض الرأي، وإسقاط الادّعاء القائل بغياب خطاب المنهج في التراث العربيّ الإسلاميّ بصفة عامّة؛ لذا جاءت هذه المقالة محاولة أوّليّة لتقصّي خطاب المنهج في التراث العربيّ الإسلاميّ واستحضاره.

أوّلًا: أهمّيّة المنهج في الممارسة التراثيّة:

شكّل المنهج حضورًا متميّزًا في التراث العربيّ الإسلاميّ عامّة، باعتبار أنّ المنهج هو السبيل في البحث، وطريق المعرفة، ومفتاح العلوم، وهو أساس كلّ فكر، وركن كلّ دراسة، وعماد كلّ بحث؛ فهو من أهمّ مقتضيات قيام العلم، ومن أهمّ دعائم سداده واستمراريّته، فالمنهج يهدف إلى تقييد مستعمليه ومستخدميه بالطرق الصحيحة والسليمة، وإلزامهم بالمسالك السديدة القويمة في تحصيل المعرفة واكتسابها.

وهذه العناية بالمنهج في جميع العلوم الإسلاميّة تعود أساسًا إلى كون الثقافة العربيّة الإسلاميّة تنطلق من هذا الثابت المعرفيّ، وهو «أنّ سلامة الأفكار متوقّفة على مدى سلامة المناهج، وعلى صحّة الطرق والمسالك المركّبة لهذه المناهج، وعلى مدى سداد الطرق من حيث هي آليّات محقّقة ومُوصِلة إلى المعرفة...»[٣].

وتبعًا لهذا المعطى العلميّ والمعرفيّ، فقد كان لكلّ علم منهجه الخاصّ به، الذي يميّزه عن غيره من العلوم، وخاصّة فيما يتعلّق بمستوى الموضوع، أو فيما يتعلّق بمستوى المفاهيم المشكِّلة لذلك الموضوع، بحيث تميّز كلّ علم بمسالكه الخاصّة به، وبمبادئه العامّة، وبطرقه، وبمفاهيمه ومصطلحاته...

وهذا الاهتمام بالمنهج هو الذي يفسِّر لنا مدى حجم السؤال المعرفيّ الذي احتلّه المنهج في أحضان التراث العربيّ الإسلاميّ في جميع امتدادات هذا التراث الزمانيّة والمكانيّة، وبين جميع علماء الإسلام، على الرغم من اختلاف مدارسهم، وتعدّد اتّجاهاتهم، وتنوّع مذاهبهم واختصاصاتهم...

وقيمة العلوم بصفة عامّة تتحدّد، بما تحمله من مناهج، باعتبار أنّ من شرط قيام العلم وسداده اقتران هذا العلم وارتباطه بالمنهج، وأنْ تكون

لهذا العلم طرق معيّنة، ومسالك ناظمة، وآليّات موجِّهة له...

ثانيًا: معنى المنهج ووظيفته:

المنهج في اللغة هو الطريق الواضح، ونَهَجَه سَلَكَه، وفلان يستنهِج سبيل فلان، أي يسلك مسلكه...[٤].

وأمّا في الاصطلاح، فقد عرِّف بتعاريف عدّة، أبرزها:

المنهج هو مجموعة من المسالك والطرائق العاصمة للذهن، فالمنهج «هو جملة الطرق والأساليب التي يُتوصَّل بها إلى نتائج معيّنة في حقل معرفيّ معيّن...»[٥]، والغاية من المنهج هي تحصين العقل من الوقوع في الخطأ، وذلك إذا ما مارس هذا العقل التفكير أو عمل على بناء النسق المعرفيّ.

المنهج هو العلم الضابط الذي يعين على بناء المقدّمات التصحيحيّة للوصول إلى النتائج السليمة المنضبطة التي من شأنها أنْ تسدِّد السبل المؤدّية إلى المعرفة، والهادية إلى العلم...»[٦].

هذه التعاريف تشترك وتتّفق في أنّ المنهج هو مجموعة من القواعد المتعلّقة بالتفكير والناظمة للنظر، والكاشفة للضوابط والمُجلية للأصول.

ثالثًا: المنهج في الممارسة التراثيّة:

لقد أدركت الممارسة التراثيّة في وقت مبكّر القيمة المعرفيّة للمنهج، وعبّرت عن هذه القيمة والإدراك المعرفيّ بعدّة صيغ وأشكال، وعبارات ومقدّمات، ونقول وشواهد؛ بحيث تشترك في ما بينها في أنّ المنهج ضروريّ في تحصيل المعرفة[٧]، وأنّ القيمة العلميّة لأيّ علم من العلوم تتحدّد في مدى الأخذ بالمنهج السديد، والتمسّك بآليّاته الرصينة، وحمل عناصره ومكوّناته؛ باعتبار أنّ المنهج هو الصانع والمشيّد والمسدّد للمعرفة[٨]، علمًا أنّ الغاية من هذه القوانين، والضوابط، والقواعد هو

العمل على عصمة الذهن من الزلل، وحفظ العقل من الوقوع في الخطأ، وتوجيهه إلى الطريق السديد، والسبيل الصحيح، إذا هو مارس التفكير أو النظر، أو اختار البحث[٩].

وتبعًا لهذا المعطى، فإنّ من أبرز مداخل إعمال المنهج في العلوم هو اعتباره وسيلةً للبحث، وطريقًا في تحصيل المعرفة، وبالتالي، لا يجب اعتباره غاية في حدّ ذاته؛ لأنّ المنهج مهمّته مساعدة الباحث، ووظيفته إعانة الدارس على اكتساب المعارف، وتحقيق التعلّم، وتحصيل العلم؛ وهو ما يعني أنّ اكتشاف المنهج في العلوم يُعدّ نقلة نوعيّة، وطفرة معرفيّة في المسار الفكريّ والعلميّ الذي قطعه العقل البشريّ في اشتغاله على العلم والمعرفة[١٠].

ومن جهة أخرى، فقد أدركت الممارسة التراثيّة في اشتغالها على العلوم، أنّ قيمة المنهج تتحدّد في كونه من أساسيّات تحصيل العلم، ومن ضروريّات اكتساب المعرفة، ومن دعائم النظر والبحث.

وبناءً على هذا المعطى المعرفيّ والعلميّ، فقد شكّل البحث في المنهج ثابتًا محوريًّا، وقاسمًا مشتركًا في الممارسة التراثيّة في جميع نظمها المعرفيّة، وفي اشتغالها، وفي عنايتها واهتمامها بالمنهج؛ من حيث هو أحد مكوّنات المادّة العلميّة ودعائمها في أيّ علم من العلوم.

وما يجلي هذه القناعة ويؤكّد التزام الممارسة التراثيّة بهذا المعطى وبتأصيل هذا الثابت، هو تنصيصها الدائم وإلحاحها المتكرّر على أنّ المنهج من السُبُل والمسالك التي يتحرّى الباحث من خلالها السلامة في التفكير، والسداد في الفهم، والضبط في النظر.

كما تأصّل في الثقافة العربيّة الإسلاميّة كثيرٌ من العلوم المسمَّاة بعلوم المناهج أو العلوم المسدِّدة الخادمة لغيرها، وهي العلوم التي اشتغلت على المنهج في مستوى إعماله

وتطبيقاته؛ مثل: أصول الحديث، وأصول التفسير، وأصول الفقه، وعلم النحو، وعلم المنطق...بحيث ساهمت هذه العلوم في وضع الأصول ورسم القواعد التي تكفل الفهم السليم للنصّ الشرعيّ.

رابعًا: قيمة المنهج في العلوم الإسلاميّة:

لقد أدرك علماء الإسلام قيمة المنهج في العلوم عامّة، والعلوم الإسلاميّة خاصّة، في وقت مبكر؛ انطلاقًا من مبدأ أنّ سلامة الأفكار متوقّفة على مدى سلامة المناهج وصحّة الطرق والوسائل والمسالك المؤدّية إلى المعارف والعلوم(١١).

وما مكّنهم من هذا السبق والريادة في الأخذ بالمنهج؛ تقعيدًا، وإعمالًا، وممارسةً، وتطبيقًا، واستثمارًا هو توجّههم واشتغالهم في تحصيل العلوم أو اكتساب المعارف، انطلاقًا من أنّ التحقّق من المنهج السديد يُعدّ من أبرز المداخل الأوّليّة، ومن المطالب الأساس والشروط الرئيسة والعناصر الضروريّة في اكتساب العلم والمعرفة وتحصيلها(١٢).

وتبعًا لهذا المعطى العلميّ والمعرفيّ، الذي بات يشكّل أحد القناعات في طبيعة المعرفة الإسلاميّة في جميع مساراتها وامتداداتها وأشكالها وأبعادها، فقد اعتنت الممارسة التراثيّة بالعلوم في مستوى التنظير والتأصيل والتطبيق والإعمال، فوضعت المناهج والأدوات والآليّات للعلوم، وأرست القواعد والكلّيّات لهذه العلوم بجميع أشكالها، سواء أكانت هذه العلوم نقليّة أم عقليّة، أصليّة أم وافدة دخيلة من ثقافات وحضارات أخرى.

وهذه مؤشّرات قويّة، وملامح واضحة، وعلامات مؤكّدة وراشدة وهادية على مدى حضور الدرس المنهجيّ في أحضان علوم التراث العربيّ الإسلاميّ.

وما تمسّك به علماء الإسلام في اشتغالهم بالمنهج هو الانطلاق من هذا الثابت المعرفيّ الذي دافعوا عنه بقوّة، ورافعوا عليه باستماتة، باعتبار أنّ المنهج من أولى الأوّليّات في تأصيل المعرفة النظريّة والتطبيقيّة، وتصحيح الأصول، وتمثّل الغايات، وإدراك المقاصد العليا في أيّ مجال أو قطاع أو ممارسة معرفيّة في البناء الحضاريّ الإسلاميّ؛ ارتكازًا على مبدأ أنّ المعرفة الإسلاميّة تتأسّس أصولها على مرجعيّة الوحي، انطلاقًا من القرآن الكريم الذي هو كتاب الأمّة ومنهجها في الحياة، منه تستمدّ أحكامها وقيمها، ومنه تحصل على معارفها...

لذا فقد اختار علماء الإسلام السير على المنهج، وإعماله في جميع بحوثهم التي اشتغلوا عليها، وفي جميع الدراسات التي أنجزوها أو التي حقّقوها، سعيًا نحو تحقيق النظرة التكامليّة التداخليّة الجامعة للعلوم، باعتبار أنّ البعد التكامليّ في العلوم هو البعد الذي ينظر إلى المعرفة من حيث هي معرفة نسقيّة جامعة ومتكاملة ومتداخلة، لا تقبل التفرقة، ولا تحتمل التجزئة بين وحداتها، ولا يسري عليها التقطيع بين مكوّناتها وأجزائها وقطاعاتها المشكِّلة والمؤسِّسة لها، فهي وحدة معرفيّة متكاملة في مضامينها، ومنسجمة في محتوياتها، ومتناسقة في مسالكها وآليّاتها[١٣].

خامسًا: منهج الفهم في التراث العربيّ الإسلاميّ:

بناءً على ما تقدّم من علاقة المنهج بالموضوع، واستنادًا إلى أنّ العلوم تتميّز بموضوعها، وتختصّ بمفاهيمها ومصطلحاتها؛ فلا يمكن الحديث عن منهاج واحد مشترك وجامع بين جميع العلوم التي اشتهرت في التراث العربيّ الإسلاميّ؛ حيث إنّ «لكلّ علم منهجًا خاصًّا به تفرضه طبيعة الموضوع»، وهو ما يعني أنّ طبيعة

الموضوع المدروس هي التي تحدّد طبيعة المنهج ونوعه.

لكنْ، لمّا كان المشترك في العلوم الإسلاميّة هو الفهم للخطاب، واستمداد المعنى، وتحصيل المقصد من هذا الخطاب؛ فإنّ المنهج الذي كان أكثر حضورًا وسيادة وغلبة في علوم التراث كان منهج الفهم والبيان والاستمداد، وهو ما يعني أنّ الغلبة والسيادة في التراث العربيّ الإسلاميّ كانت للمنهج المشتغل على الفهم والبيان والاستمداد؛ بحيث كان من مقدّمات ما اشتغل عليه علماء الإسلام هو التوجّه نحو تأسيس البيان والفهم المؤدّي إلى فهم الخطاب القرآنيّ، عن طريق وضع الضوابط والمقتضيات المُعيْنَة على الفهم، والمساعدة على الاستنباط.

فالشاغل الرئيس في العلوم الإسلاميّة والبيانيّة هو البحث في علاقة الألفاظ بالمعاني في الخطاب؛ بوضع الضوابط، وبيان الكيفيّة التي يفهم بها الخطاب الشرعيّ، وهذا ما يتأكّد للمتتبّعين والممارسين، وينكشف للمشتغلين والدارسين لهذه العلوم، علمًا أنّ الجامع للعلوم في الممارسة التراثيّة هو تقاسمها وخدمتها للنصّ؛ تحقيقًا، واستمدادًا، وبيانًا[١٤].

فعلى الرغم من أنّ العلوم الإسلاميّة تختلف مضمونًا وشكلًا وبناءً، وتتعدّد أسماؤها وأنواعها، وتتباين أهدافها، لكنّها تبدو من الناحية المعرفيّة علمًا واحدًا مهمّته ووظيفته تحصيل المعنى، وإدراك الشروط والمقتضيات الموصلة إلى هذا المعنى للمكلّف؛ لأنّ من مقتضيات البيان في الخطاب استخدام الألفاظ والأساليب المفهومة لدى عموم المتخاطبين وتوظيفها حتّى يتحقّق لديهم خطاب التكليف[١٥]، وهو ما جعل العلوم في التراث العربيّ الإسلاميّ تتّجه إلى تأسيس البيان

والفهم المؤدّي إلى فهم الخطاب الشرعيّ وتشييده؛ بوضع الضوابط، وإرساء الشروط، وعرض الأسس المبيّنة لكيفيّة الفهم واكتساب الدلالة من هذا الخطاب[١٦].

إنّ أغلب معارف هذا التراث وعلومه هي معارف وعلوم ضابطة للتفسير، ومؤصّلة لشروطه، ومجلّية لدعائمه، ومبيّنة لمقتضياته، ومؤسِّسة لأسسه، وكاشفة لمكوّناته، ومقنّنة لعناصره ومقدّماته[١٧]؛ لأنّها اختارت الانطلاق من مبدأ علميّ ومنهجيّ؛ وهو «أنّ كتاب الله لا يفسَّر إلا بتصريف جميع العلوم فيه»[١٨].

سادسًا: منهج الفهم: المرجعيّة والأصل:

تقدّم الكلام في أنّ المرجع والجامع للعلوم في التراث العربيّ الإسلاميّ كان هو النصّ المؤسِّس، الذي هو القرآن الكريم، والسنّة النبويّة الشريفة، وهو ما يعني صريحًا أنّ المشترك والجامع في العلوم الإسلاميّة كان هو خدمتها للنصّ؛ توثيقًا، وتحقيقًا، واستمدادًا، وبيانًا، وفهمًا، وتأويلًا...

وهذا المنهج المتعلّق بالفهم كان مستمدًّا من اللغة العربيّة؛ من حيث طبيعتها في الخطاب والتخاطب، ومنطقها في التواصل، وإبلاغ المعنى؛ باعتبار أنّ الحقّ سبحانه إنّما خاطب العرب بلسانهم وبلغتهم.

قال الشافعي: «إنّما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها، وكان ممّا تعرف من معانيها اتّساع لسانها»[١٩].

إذًا، فسيادة منهج الفهم يعود إلى أنّ ثمّة خلفيّة دينيّة تحكّمت وساهمت بشكل مباشر في تشكيل العلوم، وفي تركيب أنساقها، وفي تطوّر بنيتها وعناصرها ومكوّناتها، وتوجيه مباحثها، وفي ارتقائها وتطوّرها من مجال إلى آخر[٢٠]. ولهذه الغاية بذل

علماء الإسلام جهودًا مباركة، وأعمالًا كبيرة، ومشاريع رصينة؛ لإرساء هذا المنهج الذي يتعلّق بفقه النصّ وتلقّي الخطاب[٢١].

سابعاً: مناهج الفهم في العلوم الإسلاميّة:

ومن التجلّيات الدالّة والمظاهر المؤكِّدة على مدى حضور المرجع الدينيّ في مناهج العلوم التي اشتغلت على الفهم والبيان؛ تنظيرًا، وممارسة، هو أنّ كثيرًا من العلوم كانت في أصلها علوم مناهج، واشتُهرت في التراث العربيّ الإسلاميّ بـ«العلوم المسدِّدة»، وقد احتلّت هذه العلوم المسمّاة بـ«علوم المناهج» أو «المسدِّدة» مكانًا رفيعًا في نسق العلوم الإسلاميّة، ومن أبرزها علم أصول التفسير، وهو علم يشتغل على قواعد البيان في النصّ القرآنيّ؛ لأنّه عبارة عن القواعد والأصول لمعرفة كيفيّة التعامل مع القرآن الكريم، وهذا العلم هو المنهج التطبيقيّ لعلم التفسير، بحيث يهتدي المفسّر بقواعده في تفسيره لكتاب الله؛ فالمنهج ما هو إلا تنزيل لتلك الأصول والضوابط على النصّ القرآنيّ.

ومنها: علم أصول الحديث، وهو منهج لفحص الأخبار والمرويّات وتحقيق النصوص التاريخيّة وتصحيحها. ويُعدّ علم أصول الفقه منهجًا لأصول الاجتهاد، وبيانًا لقواعد الفهم وطرائق استنباط الحكم الشرعيّ، فهو يعيْن الفقيه على استثمار الأحكام الشرعيّة من الخطاب الشرعيّ. وعليه؛ فإنّ علم أصول الفقه، وعلم أصول التفسير، وعلم أصول الحديث؛ هي من العلوم التي يمكن اعتبارها من أبرز العلوم اشتغالًا على النصّ؛ بحكم صلتها المباشرة بعلم بيان النصّ. فالمشترك في مناهج العلوم الإسلاميّة هو اختصاصها بالبيان، وتحليل ضروب القول، وأصناف الكلام، سواء أكان هذا الكلام شرعيًّا أم بشريًّا[٢٢].

إنّ العلوم التراثيّة، وخاصّة الدينيّة والبيانيّة منها، تحمل في جنباتها منهجًا دقيقًا غنيًّا في مسالكه، مرنًا في تطبيقاته، متداخلًا في عناصره ومكوّناته، بما يكشف عن قوّة العقليّة الفقهيّة والأصوليّة والبيانيّة في بناء مناهج الفهم والبيان ووضع آليّاتها.

ثامنًا: مؤكّدات حضور منهج الفهم في التراث العربيّ الإسلاميّ:

١. خطاب المقدّمات:

من الأمور الداعمة والمؤكِّدة لحضور المنهج في الممارسة التراثيّة هو حضور خطاب المقدِّمات في أغلب المؤلّفات، والمدوّنات، والمصنّفات، والكتب التي صُنِّفت وأُلِّفت في مختلف العلوم والمعارف الإسلاميّة، حيث اختارت مقدِّمات هذه العلوم في مختلف العلوم والمعارف التراثيّة تصدير مباحثها، وتقديم مطالبها، واستهلال مداخلها بمقدِّمات منهجيّة كاشفة ومجْليَة للمنهج العلميّ الذي التزم وتقيّد به واضعو تلك المصنّفات، ومؤلّفو تلك الكتب، في اشتغالهم ومدارستهم للعلم الذي اختصّوا به.

وقد كشف أبو حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ.ق.) عن قيمة هذه المقدِّمات العلميّة، بقوله:«إنّ المقدّمات؛ وهي التي تجري منه مجرى الآلات، كعلم اللغة، والنحو، فإنّها آلة لعلم كتاب الله -تعالى- وسنّة نبيّه ﷺ، وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعيّة في أنفسها، ولكنْ يلزم الخوض فيهما بسبب الشرع؛ إذ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب، وكلّ شريعة لا تظهر إلا بلغة، فيصير تعلّم تلك اللغة آلة...»[٢٣]. فمقدّمات كتب العلوم في التراث تحمل خطابًا صريحًا، ونصوصًا مدعّمة، وشواهد مؤكَّدة، وهي دالّة على حضور المنهج في العلوم التي تستحضرها وتشتغل عليها تلك المقدِّمات.

- مقدّمات كتب الأصول:

احتوت مقدّمات كتب علم الأصول ومدوّناته على مباحث واسعة، ودراسات شاسعة لها صلة وطيدة مباشرة بمباحث اللغة وبعلومها، من حيث هي أداة ومسالك مسدِّدة للفهم وصانعة للتأويل. ومن أبرز المقدّمات في كتب علم الأصول: مقدّمة المستصفى للإمام الغزاليّ المعروفة بالمقدّمة المنطقيّة، فالمنطق، كما قال الغزالي في مقدّمة كتابه المستصفى، «هو مقدّمة العلوم كلّها، ومن لا يحيط به فلا ثقة له بعلومه أصلًا»[٢٤]؛ لأنّ المنطق قانون عاصم للذهن من الخطأ، كما يعصم النحو اللسان من اللحن في القول[٢٥].

- مقدّمات كتب التفسير:

إنّ مقدّمات كتب التفسير بجميع اتّجاهاتها ومدارسها تحفل بالقضايا المنهجيّة العامّة التي تتّصل بممارسة التفسير، وخاصّة فيما يتعلّق بالأصول والضوابط الموجِّهة والمؤسِّسة للتفسير. وتُعدّ مقدّمة تفسير التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزّي الكلبيّ الغرناطيّ[٢٦] من أبرز المقدّمات التي اشتغلت على المنهج في تفسير النصّ القرآنيّ، فهي خطاب علنيّ صريح يدعو إلى ضرورة إعمال القواعد الأصوليّة اللغويّة في تفسير النصّ القرآنيّ؛ لما تكتسبه هذه العمليّة من أهمّيّة بالغة في التفسير والبيان.

قال ابن جزّي في مقدّمة تفسيره: «وأمّا أصول الفقه، فإنّها من أدوات تفسير القرآن الكريم، على أنّ كثيرًا من المفسّرين لم يشتغلوا بها، وإنّها لنِعْمَ العون على فهم المعاني وترجيح الأقوال، وما أحوج المفسّر إلى معرفة النصّ والظاهر، والمجمل والمبيّن، والعامّ والخاصّ، والمطلق، وفحوى الخطاب، ولحن الخطاب، ودليل الخطاب، وشروط النسخ، ووجوه

التعارض، وأسباب الخلف، وغير ذلك من علم أصول الفقه...»[٢٧].

كما حملت هذه المقدِّمات اعتناء علماء التفسير بمسائل أصول التفسير؛ لأنّ هذا العلم مجموعة من القواعد، وما وضعوه من كلّيّات، وما بسطوه من أصول ضابطة للتفسير ومسدِّدة للتأويل، من خلال ما سطّروه من مقدّمات تصدّرت تفاسيرهم، وهو ما يعني بشكل صريح وواضح أنّ كتب التفسير ومصنّفاته تحتوي مقدّماتها على مادّة علميّة غنيّة وثريّة وواسعة تتّصل بالمنهج الذي تقيّد به المفسّر والتزم به حين إقدامه على بيان المعنى المراد من كلام الله.

إنّ حضور المنهج في التراث تؤكّده مصنّفات التفسير، ذلك أنّ مقدّمات كتب التفسير تحتوي على مادّة علميّة ثريّة وواسعة في شتّى العلوم الإسلاميّة التي تشتغل على التفسير؛ من الفقه، والأصول، والنحو، واللغة، ومعاني المفردات، والاشتقاق، والتصريف، والوجوه والنظائر، وغيرها من العلوم التي تشترك في الاشتغال على البيان والتفسير والاستمداد؛ بحيث نضجت وتأصّلت كثير من العلوم في أحضان كتب التفسير، فاجتمع فيه من العلوم ما تفرّق في غيره. ومن أبرز العلوم حضورًا أصول التفسير[٢٨]، فقد احتفظت لنا كتب التفسير بمادّة علميّة غنيّة وثريّة من المعارف التي ضاعت في أصولها، وفي مصادرها ومظانّها الأصليّة، وبخاصّة تلك المعارف التي تتّصل بالبيان، وتتعلّق بتفسير النصّ القرآنيّ.

٢. علوم المناهج:

- علم أصول الفقه:

من أبرز العلوم المنهجيّة في التراث العربيّ الإسلاميّ علم أصول الفقه؛ فهو من أهمّ العلوم للمجتهد، والمستدلّ، والفقيه؛ لأنّه يمدّ المستدلّ والفقيه بالقواعد والكلّيّات المساعدة

والمعيْنة على الاستدلال والاستنباط. قال فخر الدين الرازيّ (ت: ٦٠٦هـ.ق): «إنّ أهمّ العلوم للمجتهد علم أصول الفقه...»[٢٩].

والمرجع المنهجيّ في علم أصول الفقه يعود إلى أنّ علم أصول الفقه مبيّن لطرق الفقه[٣٠]، فعلم أصول الفقه هو في أصله علم منهجيّ كاشف لطرق الاستدلال، ومسدِّد لفهم النصوص الشرعيّة، فهو يعكس مدى اشتغال علماء الإسلام بالمنهج.

ولعلّ البعد المنهجيّ المؤسّس لعلم أصول الفقه، هو الذي جعل الدكتور عبد المجيد التركي ينعت هذا العلم ويسمّيه: «المنهجيّة التشريعيّة»، فهو مجموعة من الآليّات والقواعد المعيْنة للفقيه في استمداده للأحكام الشرعيّة، أو في سعيه لتفهّم النصّ الشرعيّ[٣١].

وأمّا الدكتور محمّد عابد الجابري، فكان ينعت علم أصول الفقه بـ«منطق الفقه»؛ فعلم أصول الفقه يمكن اعتباره منطقًا للفقه[٣٢]، والطابع المنهجيّ والابستمولوجيّ حاضر في علم أصول الفقه؛ لأنّه مجموعة من القواعد التي يُتوسَّل بها إلى تفهّم النصوص الشرعيّة، أو إلى استنباط الأحكام الشرعيّة من تلك النصوص الشرعيّة[٣٣].

- علاقة علم الفقه بعلم أصول الفقه:

إنّ علم الفقه هو علم تطبيقيّ غايته تنزيل الحكم الشرعيّ على أفعال المكلَّف وتصرّفاته في الواقع الاجتماعيّ الذي يعيش فيه ذلك المكلّف، حيث يواكبه ويرتبط به علم نظريّ؛ وهو علم أصول الفقه؛ من حيث هو علم منهجيّ مسدِّد للفقيه، وضابط له في استنباطه للحكم الشرعيّ، ومعيْن له في تفهّمه للنصّ الشرعيّ، ومساعد له في استدلاله على الحكم الشرعيّ من النصّ...ومضافًا إلى هذا، فإنّ علم أصول الفقه، من

جهة أخرى، يمكن اعتباره منطقًا للفقه؛ لأنّه يرجع في بنائه إلى مجموعة من القواعد، والآليّات، والأنساق، والكلّيّات، والمسالك المسدِّدة للفقيه، بحيث تعيْنه على معرفة الحكم الشرعيّ، وتعصمه في استدلاله على هذا الحكم[٣٤].

إنّ علم أصول الفقه يجسّد مدى عمق العقليّة الإسلاميّة في استحضارها للإشكال المنهجيّ، وإمكانيّاتها في ضبط مسالك المعرفة، وبناء الأنساق الاستدلاليّة المشيّدة لهذه المعرفة[٣٥].

لقد أراد له مؤسّسه الإمام الشافعيّ (ت٢٠٤هـ.ق) أنْ يكون علمًا مسدِّدًا لفهم النصّ الشرعيّ، وخادمًا للاستدلال، حتّى يكون هذا الفهم طريقًا وتمهيدًا وسبيلًا في استنباط الأحكام الشرعيّة من النصّ الشرعيّ، فهو علم يعكس في أحد جوانبه ومستوياته مدى اشتغال علماء الإسلام على المسألة المنهجيّة في العلوم بشكل كبير، واستحضارهم للمسالك الموصلة إلى المعارف، وعنايتهم البالغة بالعلوم في مستواها النظريّ والتطبيقيّ، بحيث كان لكلّ علم منهجه الخاصّ به، المميّز والفاصل له عن غيره من العلوم[٣٦].

ومن أبرز المرجعيّات المشيّدة لعلم أصول الفقه المرجع اللغويّ، حيث إنّ الدرس اللغويّ عند علماء أصول الفقه يأخذ جهات ومستويات عدّة؛ أبرزها: جهة اللفظ في علاقته بالمعنى، وهو ما يسمّى «جهة الدلالات». وإنّ اهتمام الأصوليّين بهذه الجهة أمْلَته اعتبارات ومعطيات عدّة؛ أبرزها: كون اللفظ أصغر وحدة معجميّة في أداء المعنى، وإبلاغ الدلالة، وإيصال المطلوب، فهو وسيلة ضروريّة لتحصيل المعنى المراد من تداول الخطاب، علمًا أنّ المعنى هو المقصود من التخاطب في الشريعة الإسلاميّة، واللفظ ما هو إلّا أداة لاكتساب المعنى، وعليه «فلا بيان إلّا بالألفاظ

المعبّرة عن المعاني التي وقعت عليها في اللغة»[٣٧].

واشتغالًا بمبحث الدلالات، وُضِعَت القواعد والكلّيّات اللغويّة بعد الاستقراء والتتبّع لأساليب اللغة العربيّة، وإدراك طبيعتها في الخطاب والتخاطب، ومعرفة ما يمكن أنْ تؤدّيه تلك الألفاظ والتراكيب من مدلولات[٣٨]، والقصد من هذه القواعد هو تسهيل الاستنباط والفهم للخطاب الشرعيّ وتيسيره.

ومن هنا؛ ندرك أنّ علم أصول الفقه من أبرز العلوم التي اجتمعت فيه علوم كثيرة؛ بما استُثمِر فيه من المعارف؛ من أجل جعله علمًا مسدِّدًا للفهم والاستدلال.

خاتمة:

لقد كان المنهج، باعتباره مسالك راشدة وطرقًا هادية للباحث والمفسّر والمشتغل على فهم النصوص الشرعيّة حاضرًا بقوّة في التراث العربيّ الإسلاميّ، وهو ما يعني أنّ كثيرًا من العلوم التي نشأت في أحضان التراث العربيّ الإسلاميّ كانت في أصلها علوم مناهج.

وقد أدركت الثقافة العربيّة الإسلاميّة في بداية نشأتها أنّ الحاجة ماسّة وضروريّة إلى تأسيس منهج يضبط عمليّة الفهم، ويسدّد عمليّة البيان، ويقوِّم الاستمداد ويحصّنه، وينظّم عمليّة التأويل، ويُبعد التحريف عن النصوص الشرعيّة، لكنّ الغلبة والسيادة في التراث العربيّ الإسلاميّ كانت للمنهج المشتغل على الفهم، والمسدِّد للبيان، والمحقّق للتفسير، والمُعِين على الاستمداد؛ ما جعل معارف هذا التراث تحمل إنتاجات نظريّة ضخمة ضابطة للتفسير، ومؤصِّلة لشروطه، ومجلّية لدعائمه، ومبيّنة لمقتضياته، ومؤسّسة لأسسه، وكاشفة لمكوّناته، ومقنّنة لقواعده ولعناصره[٣٩].

ومن ثـمّ فـلا يمكـن قـراءة الإنتـاج العلميّ والفكـريّ لأيّ عـالم مـن علـماء الإسلام أو القيام بتقويمه؛ مـا لم يتأسّـس فعـل القـراءة أو التقـويم عـلى الاقتنـاع المبدئيّ والتسليم العلميّ بأنّ نتاجـه كـان متداخلًا ومتفاعلًا وموصولًا مع أقـرب العلـوم السـائدة والشـائعة والمتداولـة في زمنه، وفي عصره[٤٠].

المصادر والمراجع العربية

١. البوشيخي، الشاهد: «نظرات في المصطلح والمنهج»، ضمن كتاب «دراسات مصطلحيّة»، ط١، دار السلام، ٢٠١٢م.

٢. التقريب لحدّ المنطق، ج,٤

٣. صالح، أديب: تفسير النصوص، ط٣، المكتب الإسلاميّ، ١٩٨٤م، ج,١

٤. «في فقه المصطلح الفلسفيّ»، مجلّة المناظرة، السنة ٤، العدد ٧١، ١٩٩٣م.

٥. ابن جزّي، محمّد: التسهيل لعلوم التنزيل، ج١، مقدّمة التفسير.

٦. ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، بيروت، دار إحياء التراث العربيّ، ٢٠٠٠م، ج,١٤

٧. حمادي، إدريس: الخطاب الشرعيّ وطرق استثماره، المركز الثقافيّ العربيّ، ١٩٩٤م.

٨. الباجي، أبو الوليد: مقدّمة إحكام الفصول، تحقيق: عبد المجيد تركي، ط٢، دار الغرب الإسلاميّ، ١٩٩٤م.

٩. بزا، عبد النور: مصالح الإنسان مقاربة مقاصديّة، إصدار المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ، ٢٠٠٨م.

١٠. البصريّ، أبو الحسين: المعتمد، ج,١

١١. بن حماد، مولاي عمر: علم أصول التفسير محاولة في البناء، مصر، دار السلام، ٢٠١٠م.

١٢. تجديد المنهج في تقويم التراث، ط٣، المركز الثقافيّ العربيّ، لا ت.

١٣. الجابري، محمد عابد: تكوين العقل العربيّ، ط١، المركز الثقافيّ العربيّ، ١٩٨٤م.

١٤. الرازي، فخر الدين: المحصول، تحقيق: جابر العلوانيّ، جامعة الإمام محمد سعود، ١٩٨١م، ج,٦

١٥. السنوسي، محمد بن يوسف: المختصر في المنطق، مصر، مطبعة السعادة، ١٣٣٠هـ.ق.

١٦. الشافعي، محمد بن إدريس: الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة الرسالة، ١٩٨٠م.

١٧. عبادي، أحمد: القرآن الكريم والتأويل، مجلّة التأويل، تصدر عن الرابطة المحمّديّة، المغرب، العدد١، ٢٠١٤م.

١٨. عبد الرحمان، طه: حوار من أجل المستقبل، ط٢، منشورات الزمن، ٢٠٠٨م.

١٩. عكيوي، عبد الكريم: نظريّة الاعتبار في العلوم الإسلاميّة، منشورات المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ، ٢٠٠٨م.

٢٠. العلمي، عبد الحميد: منهج الدرس الدلاليّ عند الإمام الشاطبيّ، منشورات وزارة الأوقاف المغربيّة، ٢٠٠١م.

٢١. العلواني، طه جابر: معالم في المنهج القرآنيّ، مجلّة الإحياء المغربيّة، تصدر عن الرابطة المحمّديّة للعلماء، المغرب، العدد ٢٧، ٢٠٠٨م.

٢٢. الغرناطي، ابن عطيّة: تفسير ابن عطية (المحرّر الوجيز)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، بيروت، دار الكتب العلميّة، ١٤١٣هـ.ق.، ج١، مقدّمة التفسير.
٢٣. الغزاليّ، أبو حامد: المستصفى، تحقيق: حمزة زهير حافظ، مكتبة العبيكان، ١٩٩٣م، ج١.
٢٤. المالكيّ، محمّد: دراسة الطبريّ للمعنى في تفسيره، منشورات وزارة الأوقاف المغربيّة، ١٩٩٤م.
٢٥. مجموعة من المؤلّفين: مناهج الاستمداد من الوحي، منشورات الرابطة المحمّديّة للعلماء، المغرب، ٢٠٠٧م، مقدّمة الكتاب (أحمد عبادي)، «خطاب في المنهج».
٢٦. محمد سيدي محمد مولاي، دار الضياء، ٢٠٠٩م.
٢٧. ملكاوي، فتحي: «التفكير المنهجيّ وضرورته»، مجلّة إسلاميّة المعرفة، تصدر عن المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ، العدد ٢٨، ٢٠٠٢م.
٢٨. النشّار، علي سامي: مناهج البحث عند مفكّري الإسلام، مصر، دار السلام، ٢٠١٣م.
٢٩. همام، محمّد: «طه عبد الرحمان قارئًا لمحمّد عابد الجابريّ»، مجلة الأزمنة الحديثة، السنة ٤، العدد ٣، ٢٠١١م.
٣٠. يفوت، سالم: قيمة العلم في الإسلام، بيروت، دار الطليعة، ٢٠٠٠م.

الهوامش:

[١] باحث في الفكر الإسلامي وأستاذ في جامعة القاضي عياض – المملكة المغربية.

– يُعدّ الدكتور طه عبد الرحمان من أبرز المفكّرين الذين تبنّوا هذا الطرح القائل باعتناء الممارسة التراثيّة بالمضامين أكثر من اهتمامها وعنايتها بالآليّات. انظر:

– تجديد المنهج في تقويم التراث، ط٣، المركز الثقافيّ العربيّ، لا ت، ص٨٦–٨٩.

– «في فقه المصطلح الفلسفيّ»، مجلّة المناظرة، السنة ٤، العدد ٧١، ١٩٩٣م، ص٧٨.

– عبد الرحمان، طه: حوار من أجل المستقبل، ط٢، منشورات الزمن، ٢٠٠٨م، ص٤٣.

–همام، محمّد: «طه عبد الرحمان قارئًا لمحمّد عابد الجابريّ»، مجلة الأزمنة الحديثة، السنة ٤، العدد ٣، ٢٠١١م.

[٢] انظر: عبد الرحمان، حوار من أجل المستقبل، م.س.، ص٤٣.

[٣] عكيوي، عبد الكريم: نظريّة الاعتبار في العلوم الإسلاميّة، منشورات المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ، ٢٠٠٨م، ص١٠.

[٤] انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، بيروت، دار إحياء التراث العربيّ، ٢٠٠٠م، ج١٤، ص٣٠٠.

[٥] عبد الرحمان، تجديد المنهج في تقويم التراث، م.س، ص٨٦.

[٦] العلواني، طه جابر: معالم في المنهج القرآنيّ، مجلّة الإحياء المغربيّة، تصدر عن الرابطة المحمّديّة للعلماء، المغرب، العدد ٢٧، ٢٠٠٨م، ص٥٤.

[٧] انظر: عبد الرحمان، تجديد المنهج في تقويم التراث، م.س، ص٨٦.

[٨] انظر: يفوت، سالم:.قيمة العلم في الإسلام، بيروت، دار الطليعة، ٢٠٠٠م، ص٤٣.

[٩] انظر: العلواني، معالم في المنهج القرآنيّ، م.س،ص٥٤.

[١٠] انظر: مجموعة من المؤلّفين: مناهج الاستمداد من الوحي، منشورات الرابطة المحمّديّة للعلماء، المغرب، ٢٠٠٧م، مقدّمة الكتاب (أحمد عبادي)، «خطاب في المنهج».

[١١] انظر: عكيوي، نظريّة الاعتبار في العلوم الإسلاميّة، م.س، ص١١.

[١٢] انظر: العلمي، عبد الحميد: منهج الدرس الدلاليّ عند الإمام الشاطبيّ، منشورات وزارة الأوقاف المغربيّة،٢٠٠١م، ص٢١.

[١٣] انظر: عبد الرحمان، حوار من أجل المستقبل، م.س، ص٢٨.

[١٤] انظر: النشّار، علي سامي: مناهج البحث عند مفكّري الإسلام، مصر، دار السلام، ٢٠١٣م، ص٥.

[١٥] انظر: بزا، عبد النور: مصالح الإنسان مقاربة مقاصديّة، إصدار المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ، ٢٠٠٨م.

[١٦] انظر: عبادي، أحمد: القرآن الكريم والتأويل، مجلّة التأويل، تصدر عن الرابطة المحمّديّة، المغرب، العدد١، ٢٠١٤م، ص١٣.

[١٧] انظر: ملكاوي، فتحي:«التفكير المنهجيّ وضرورته»، مجلّة إسلاميّة المعرفة، تصدر عن المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ، العدد٢٨، ٢٠٠٢م، ص١٩.

[١٨] الغرناطي، ابن عطيّة: تفسير ابن عطية (المحرّر الوجيز)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، بيروت، دار الكتب العلميّة، ١٤١٣هـ.ق.، ج١، مقدّمة التفسير، ص٥.

[١٩] الشافعي، محمد بن إدريس: الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة الرسالة،١٩٨٠م، ص٥٧.

[٢٠] انظر: المالكيّ، محمّد: دراسة الطبريّ للمعنى في تفسيره، منشورات وزارة الأوقاف المغربيّة، ١٩٩٤م، ص٢٢.

[٢١] انظر: حمادي، إدريس:الخطاب الشرعيّ وطرق استثماره، المركز الثقافيّ العربيّ، ١٩٩٤م، ص٢٦.

[٢٢] انظر: عكيوي، نظريّة الاعتبار في العلوم الإسلاميّة، م.س، ص٩

[٢٣] الغزاليّ، أبو حامد: إحياء علوم الدين، ج١، ص١٧.

[٢٤] الغزاليّ، أبو حامد: المستصفى، تحقيق: حمزة زهير حافظ، مكتبة العبيكان، ١٩٩٣م، ج١، ص١٠.

[٢٥] انظر: السنوسي، محمد بن يوسف: المختصر في المنطق، مصر، مطبعة السعادة، ١٣٣٠هـ.ق، ص٢٨.

[٢٦] تحقيق: محمد سيدي محمد مولاي، دار الضياء، ٢٠٠٩م.

[٢٧] ابن جزّي، محمّد: التسهيل لعلوم التنزيل، ج١، مقدّمة التفسير، ص١١.

[٢٨] انظر: بنحماد، مولاي عمر: علم أصول التفسير محاولة في البناء،مصر، دار السلام، ٢٠١٠م، ص٣.

[٢٩] الرازي، فخر الدين: المحصول، تحقيق: جابر العلوانيّ، جامعة الإمام محمد سعود، ١٩٨١م، ج٦، ص٥٥.

[٣٠] انظر: البصريّ، أبو الحسين: المعتمد، ج١، ص١٣.

[٣١] انظر: الباجي، أبو الوليد: مقدّمة إحكام الفصول، تحقيق: عبد المجيد تركي، ط٢، دار الغرب الإسلاميّ، ١٩٩٤م، ص٢٢.

[٣٢] انظر: الجابري، محمد عابد: تكوين العقل العربيّ، ط١، المركز الثقافيّ العربيّ، ١٩٨٤م، ص٥٨.

[٣٣] انظر: م.ن، ص١٠٠.

[٣٤] انظر: م.ن، ص٣٢.

[٣٥] انظر: عبد الرحمان، طه: الحوار أفقًا، الشبكة العربيّة، ٢٠١٤م، ص١٦٢.

[٣٦] انظر: عكيوي، نظريّة الاعتبار في العلوم الإسلاميّة، م.س، ص٩.

[٣٧] التقريب لحدّ المنطق، ج٤، ص١٢٨.

[٣٨] انظر: صالح، أديب: تفسير النصوص، ط٣، المكتب الإسلاميّ، ١٩٨٤م، ج١، ص١٠.

[٣٩] انظر: ملكاوي، «التفكير المنهجيّ وضرورته»، م.س، ص١٩.

[٤٠] انظر: البوشيخي، الشاهد: «نظرات في المصطلح والمنهج»، ضمن كتاب «دراسات مصطلحيّة»، ط١، دار السلام، ٢٠١٢م، ص١١.